P.O.W

د. كريم محسن الخياط

P.O.W

رواية

الطبعة الأولى

2022

دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ـ العراق

حقوق الطبع محفوظة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية رقم 720 لسنة 2022

دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع - العراق

ديوانية – السوق الكبير / بغداد – شارع المتنبي

Dar_nippur@yahoo.com
Dar.nippur1@gmail.com
هاتف
00967823014900

شكر واحترام

يسعدني كثيراً أن أشكرَ الأستاذ الفاضل، الشاعر والناقد الدكتور عبد الكاظم جبر، وصديقي الحبيب الكاتب المبدع الدكتور زهير هداد، وصديقي الرائع الدكتور نبيل هادي ناهي، وصديقي الجميل الدكتور داخل دمان الوطيفي، وابنتي الغالية فينوس الخياط، لتفضلهم علي بقراءة هذه الرواية وهي ماثلة للمطبعة، إذ كان لآرائهم وملاحظاتهم الأثر المهم في أن تخرج هذه الرواية بحلتها التي هي عليها.

1

كان الوقت قد تجاوز السابعة مساءً عندما بدأ الجيش العراقي استعداداته لإيقاف الهجوم الإيراني المرتقب، فعلى الرغم من أن جبهة القتال تبدو هادئة، إلا أن الاستخبارات العسكرية علمت أن الإيرانيين يستعدون لهجوم على منطقة الطاهري وجسر حالوب؛ لمحاصرة مدينة المحمرة التي احتلها العراق قبل مدة، وهو الأمر الذي جعل القوات العراقية تتموضع في أماكن جديدة؛ لتفادي زخم الهجوم؛ ففي الساعة السابعة من مساء التاسع والعشرين من نيسان سنة 1982، استدعتْ قيادة العمليات العراقية كثيراً من القوات المتقدمة إلى المواقع الخلفية؛ لإعادة تشكيلها، وكانت القوة الجديدة التي ينتمي إليها الجندي المكلف (عادل أمين) متشكّلة من فصيل مغاوير ورعيل مدافع 52 مقاومة للطائرات، ورعيل من كتيبة استطلاع حطين متكوّن من أربع مدرعات بيردم2، وقد تقدمت هذه القوة، والقوات الأخرى إلى العمق الإيراني، فاستقرتْ على ضفاف نهر الكارون من الجانب الذي احتله العراق قبل عامين.

نشرت القيادة العراقية خمساً وعشرين قوة صغيرة على خط موازٍ لنهر الكارون، بواقع قوة واحدة لكل أربعة كيلومترات؛ لتكوّن هذه القوات رؤوس مثلثات لستٍّ وعشرين قوة تقف وراءها بمسافة

أربعة كيلومترات، وهذه القوات الست والعشرون تُشكل رؤوس مثلثات لقوات تقف وراءها على المسافة نفسها. وعندما يبدأ الهجوم الإيراني، تعمل قوات الخط الأول على امتصاص زخم الهجوم لعشر دقائق ثم تنسحب، مُشعرة العدوّ بأنه انتصر، لكن هذا الإنسحاب يضع العدوَّ في جيبٍ مُهلك، وذلك عندما تلتحم القوات المنسحبة برأس مثلث خلفي، في حين تبدأ قواعد المثلث الأول بإطلاق النار على العدو من الخلف، وكأنها قد قامت بعملية التفاف حوله وهي ثابتة في محلها.

كان من المفترض أن يبدأ العدوُّ هجومه في الساعة العاشرة من مساء التاسع والعشرين من نيسان، لكنه تأخر؛ وهو الأمر الذي أشعر عادل أمين ورفيقيه في المدرعة أن الهجوم قد تأجّل؛ إذ اعتاد الإيرانيون على أن يشنوا حملة إعلامية كبيرة قبل هجوماتهم، ويحددوا موعدها بالساعة والدقيقة، لكنهم يؤخرون هجومهم لأيام، أو ربما لأشهر؛ لذلك طلبَ عادل أمين من رفيقيه: (عارف خليل) و(عبد النبي مرهون) أن يغيّرا تردد جهاز الاتصال؛ ليستمعوا إلى حفلة أم كلثوم التي يبثها راديو (الإمارات العربية المتحدة) من الساعة الثانية عشرة إلى الواحدة من بعد منتصف الليل في كل يوم، لكن عبد النبي- بوصفه مسؤولاً عن جهاز الاتصال- رفض تغيير التردد؛ لئلا يتحمل مسؤولية ذلك، ولاسيما هذا اليوم، فألحّ عليه عادل أمين، وأخبره أن (الحمامة

ترقد على بيوضها)، وهذه شفرة قد استلموها قبل دقائق، تعني أن الجو هادئ، ولا شيء مثيراً على ضفتي الكارون.

هيّأتِ الهندسة العسكرية موضعاً محصناً لكل قوة، مكوناً من ساترٍ ترابيٍّ على شكل دائرة، يبلغ قطرها مئة متر، مقسمة على أربعة أقسام، يفصل بين كلِّ قسم وآخر ساتر ترابيّ يرتفع إلى مترين تقريباً، وهيّأت مواضع للمدرعات، وهي ملاجئ مكشوفة ذات ساتر ترابيّ، تقف فيه المدرعة، ولا يظهر منها سوى رشاشتها الثقيلة، وكذلك فعلتْ مع رعيل مقاومة الطائرات، وكان أفراد قوات المغاوير منتشرين على الساتر الدائري بشكل غير منتظم؛ إذ كانت كثافة الجنود المنتشرين باتجاه العدو أكثر من الجنود المنتشرين باتجاه العراق.

اعتاد الأصدقاء الثلاثة: سائق المدرعة (عادل أمين) والرامي (عارف خليل) والمخابر (عبد النبي مرهون) على القتال معاً منذ بداية الحرب في أيلول عام 1980، ومروا معاً بمواقف غاية في الصعوبة على خط الجبهة الممتد لمسافة ألف ومئتي كيلومتر. وعلى الرغم من اختلاف طبائعهم، إلا أن هناك رابطاً خفياً يربط بينهم.

كانوا شباباً في مطلع العشرينيات، ليس لديهم ماض بعيد؛ لذلك كانوا يتحدثون عن مستقبلهم دائماً، لكنهم يختلفون في طبائعهم

وتوجهاتهم الفكرية، إذ كان عادل هادئاً ملتزماً اجتماعياً شاكاً بالعقائد، في حين كان (عارف خليل) يجمع بين الفكر القومي والبعثي، ويميل نحو إنكار الدين، أما (عبد النبي مرهون) فيختلف عنهما في أنه ملتزم دينياً، ويميل نحو الوسطية، لكنه قلق، ويصفه عادل أمين بأنه يشبه معلقة عبيد بن الأبرص. وكثيراً ما كانت هذه الاختلافات في التفكير تؤول إلى صراعات كلامية بين عارف وعبد النبي، وغالباً ما يحاول عادل التوفيق بينهما؛ لينتهي الموقف بالسرعة الممكنة.

كان (عادل أمين) ورفيقاه في المدرعة الأولى، يستمعون إلى المقدمة الموسيقية لأغنية (أقبل الليل) التي أبدع ألحانها الموسيقار رياض السنباطي، مركزاً على أصوات آلة الأورغ التي دخلت تخت السيدة أم كلثوم لأول مرة في هذه الأغنية، فبدأتْ تلك الأصوات تخيفه، وكأنَّ حدثاً ما سيحدث لأول مرة. وما إن قالتْ السيدة أم كلثوم : (أقبل الليل)، وصال بعدها الأورغ بجملة موسيقة أخافت عبد النبي مرهون، حتى امتزج صوت الأورغ بصوت صفارة الإنذار التي تعلن عن بدء الهجوم الإيراني في الساعة الثانية عشرة وأربع دقائق، فبدا لعادل صوت صفارة الإنذار وكأنه يصرخ به: (محكمة).

كانت قوات المشاة الإيرانية، وقوات البسيج تسير باتجاه القوات العراقية المتقدمة، وكأنهم ذاهبون في سفرة، وقد بلغتْ أعداد هذه

القوات التي كانت تتجه إلى القوة التي ينتمي إليها عادل أمين أكثر من خمسين ألف مقاتل، بحسب متوسط التقديرات.

شاهد عادل أمين التقدم الإيراني بمساعدة ضوء القمر وجهاز الرؤية الليلية على بعد أكثر من خمسة كيلومترات، وكانت الأوامر تقضي باستخدام الأسلحة بحسب مداها القاتل، فقد أصدر آمر القوة أمراً بأن تبدأ مقاومة الطائرات بإطلاق قذائف انفلاقية تنفجر فوق رؤوس قوات مشاة العدوّ، وحين استمر العدوّ بالتقدم ـ على الرغم من آلاف القتلى الذين يسقطون منه بلا قتال ـ؛ أصدر آمر القوة أمراً آخر ببدء استعمال الرشاشات الثقيلة التي يصل مداها القاتل إلى أكثر من أربعة كيلومترات، فبدأ رماة المدرعات بيردم 2 ومنهم (عارف خليل) إطلاق النار بكثافة، ثم تلتها الرشاشات المتوسطة، وما إن دخل العدوّ في مدى الألف متر حتى صدرت الأوامر إلى جنود المشاة العراقيين باستخدام رشاشاتهم الكلاشنكوف.

شاهد عادل المعركة بدقة، على الرغم من الليمونة التي علقها صديقه عارف على الرشاشة الثقيلة؛ إذ كانتْ تتأرجح يميناً وشمالاً، فلم تتمكن تلك الليمونة والضوضاء التي يحدثها إطلاق النار داخل المدرعة من تشويش تركيز عادل وهو يقدِّر عدد قتلى العدو الذي تجاوز الأربعين ألفاً، حينها تساءل عادل: (هل من المعقول أن يضحي

جيش بأربعين ألف مقاتل للتمكن من قوة قليلة لا يبلغ عدد أفرادها مئة وخمسين جندياً؟! ما الدافع لذلك؟ هل يمكن القول أن العدوّ يريد التخلص من جنوده كما يشاع في بغداد)؟ وبينما كان عادل غارقاً في تساؤلاته، طلب منه عارف بأن يصمت قليلاً ويقاتل، في حين كان عبد النبي مرهون صامتاً يترقب أمر الانسحاب وهو يتذمر بين حين وآخر ويصرخ: (وين أمر الانسحاب؟ وين أمر الانسحاب). كان عبد النبي يردد سؤاله وهو يلعن الرئيس العراقي، ويطلب من رفيقيه أن لا يكونا بطلين. وما هي إلا دقيقة حتى صدر أمر الانسحاب متأخراً؛ فقوات العدو قد وصلت إلى مسافة خمس مئة متر تقريباً. وما إن صدر أمر الانسحاب حتى بدأت قذائف المدفعية الإيرانية تدك القوة بكثافة، وقد سقطت قذيفة من تلك القذائف على مؤخرة المدرعة 183 التي يقودها عادل أمين، وهو الأمر الذي جعل طاقم المدرعة يخرج منها بأسلحته الرشاشة؛ ليقاتل على الساتر الترابي مثل الجنود المشاة.

في الوقت الذي كان فيه عادل مشغولاً بإطلاق النار على العدو الذي بدأ بإطلاق النار من رشاشاته الجيسي على بعد مئتي متر تقريباً، سقطت قذيفة خلفه، فشعر عادل برطوبة في ظهره، ظنها للوهلة الأولى رطوبة الطين الذي أثارته القذيفة عند سقوطها، فالتف إلى الخلف ليتأكد من وجود طين، وفي هذه اللحظة سقطت قذيفة أخرى؛ فأصيبَ عادل

بكثير من الشظايا الصغيرة في ظهره، وفي جزء وجهه الأيسر، وشيئاً فشيئاً بدأ عادل يشعر بأنه يفقد توازنه، ولاسيما وهو يستمع إلى عبد النبي مرهون وهو يصرخ: (اصوَّبِتْ، اصوَّبِتْ)، فشعر عادل بأنه ينهار، وقبل أن يسقط على الأرض سمع صديقه عارف يصرخ بأعلى صوته: (دمرناهم، دمرناهم). أعادت تلك الصرخات لعادل أمين نشاطه، وبدأ يفكر بحل ينقذه من الموت، لكنه تفاجأ بأن مجرى المعركة قد تغيّر؛ إذ بدأت حرب الرمانات اليدوية، وبدأ الجنود الإيرانيون المتبقون بتسلق الساتر الترابي، فصاح عبد النبي بأعلى صوته: (ولكم احتلوا القسم الثاني من دائرة القوة).

كان القسم الثاني المواجه للعدوّ من دائرة القوة قد سقط بيد العدوّ، وبدأتْ معركة السلاح الأبيض. وشيئاً فشيئاً بدأ عادل يتهاوى من أثر النزف، وبدأت القوة تسقط بيد مجموعة لا تتجاوز ألف مقاتل، وأصوات اللغة الفارسية تخترق ليل الآخر من نيسان، فقرر الرفاق الثلاثة الزحف نحو ملجأ تحت الأرض، أعدّته الهندسة العسكرية على عجل بالقرب من مؤخرة مدرعتهم المحترقة؛ لكن نيران المدرعة المحترقة تغلق بوابة الملجأ، وهو الأمر الذي اضطرهم إلى الدخول عبر بوابة التهوية.

كان الملجأ مضاءً بنيران المدرعة المحترقة، فأيّ جندي إيراني يستطيع رؤية من في الملجأ إذا نظر من فتحة التهوية؛ لذلك طلب عادل أمين من عارف خليل أن يغلق فتحة التهوية بحقيبة كانت موضوعة في إحدى زوايا الملجأ، لكن الحقيبة كانت أصغر من الفتحة؛ فاضطر عبد النبي أن يخلع ثيابه العسكرية ويغلق بها ما بقي من فتحة التهوية. في هذه اللحظة، شعر عادل أنه فعل شيئاً يحافظ فيه على حياته وحياة عارف وعبد النبي وجنود ثلاثة سبقوهم إلى الملجأ.

بعد مدة صمت قليلة، بدأ أحد الجنود الثلاثة الجرحى في الملجأ بالصراخ طالباً الرحمة من العدو، لكن صوته لم يصل إلى أحد؛ إذ كان عتاد المدرعة المحترقة يتفجر كل بضعة دقائق؛ فيزيد من نار الاحتراق، ويزيد من إغلاق بوابة الملجأ. كان عادل يرى أن هذه النار تحميهم من العدوّ، في حين كان الجندي الذي يطلب الرحمة يرى أنّ النار تمنع العدو من مساعدته، ولما رأى عارف خليل أن جندياً آخر انضمّ إلى الجندي الذي يطلب الرحمة، وبدأ الجنديان يرددان كلمات وجملاً تستنجد بالقائد الإيراني بصوت عال، حتى أن عبد النبي قد أوشك أن يردد ما يقولان؛ طلب عادل منهما الصمت، لكنهما لم يصمتا، فنهض عارف خليل وسدد فوّهة رشاشته إلى رأس أحدهما وصرخَ بصوت خفيض غاضب: (كلمه ثانيه وأفجّر راسك)، وفي هذه

اللحظة، سكت الجندي الثاني، ولما رأى عادل أمين الجنديين صامتين وهما مرتبكان، أخبرهما أن العدوّ لا يُؤسر أحداً في هذه الظروف، فعليهما أن يهدآ، وينتظرا إلى أن يسكت الرصاص في الخارج، فأمّا أن يتدخل اللواء المدرع العاشر في الصباح الباكر ويحسم المعركة لصالح العراق، وأمّا أن يقعوا أسرى بيد العدوّ. بعد كلمات عادل هذه، أيقن الجميع أنّ ما قاله هو الصواب؛ فسكتوا، وظلوا ينتظرون إلى أنْ أخذهم النوم جميعاً قبل الساعة الثالثة من الثلاثين من نيسان.

2

(أخرجْ أسيرا، أخرجْ أسيرا). استيقظ عادل أمين على هذه العبارة وكأنه في حلم، فنظر إلى اتجاه الصوت، فإذا بجندي إيراني لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، يقف بباب الملجأ، ويوجّه بندقيته نحو رأس عادل الذي كان نائماً عند الباب، وقد خمدت نيران مدرعته، وأضاءت الشمس المكان بدل النيران. نظر إلى الجندي بعينه اليمنى فقط، وقد كان جسده مسمّراً على أرض الملجأ لا يتحرك، وشعر أن عينه اليسرى قد انطفأت، وبعد أن قرر الخروج، أخبر عارف خليل بأنه سيخرج، وإذا تعرض للقتل من قبل الجندي الإيراني، فعلى عارف أن يقرر ما سيفعل، ولكنه نصحه بأن يقتل الجندي؛ فذلك أفضل من أن يقوم الجندي الإيراني بإعدامهم تباعاً، وما إن أنهى عادل كلامه، حتى نهض الجنود الثلاثة الآخرون وتفحصوا أسلحتهم، ووجّهوها إلى باب الملجأ من دون أن يراهم الجندي الإيراني، أما عبد النبي مرهون فلم يستيقظ، وبدا على وجهه أنه في حالة إغماء.

خرج عادل وهو رافعٌ يديّه إلى الأعلى، وتقدم نحو الجندي الإيراني، وكان عندما يتقدم خطوة، ينسحبَ الجندي خطوة، حتى بدا

لعادل أن هذا الجندي حذرٌ جداً منه، فحاول عادل ألّا يستفزه؛ إذ رأى إصبعه وهو يرتجف على زناد بندقيته الجيسي.

طلبَ الجندي من عادل أن يستدير إلى الخلف، ففعل ذلك ببطء شديد، لكي لا يتوهّم الجندي بأن عادلاً يحاول فعلَ شيء ضدّه، ثم طلبَ الجندي منه أن يتوجّه إلى مكانٍ يريده، فمشى عادل أمامه وفوّهة بندقية الجندي تلامس ظهره، وما هي إلّا دقيقة، حتى جاء ثلاثة جنود إيرانيين وتحدثوا مع صاحبهم بالفارسية، فذهبوا مسرعين إلى الملجأ.

أجلس الجنديُّ عادلاً قرب الساتر الترابي الذي يحيط بالقوة من جهة العراق، أمام مقطورة ماء صغيرة، فبدأ عادل يتفحّص جسمه، فوجد أن هناك دماءً كثيرة على ثيابه العسكرية في موضعي رجله اليمنى وصدره، وبدأ يشعر بألم في كعب رجله اليسرى، وخدّه الأيسر، ولاحظ أنه لا يرى بعينه اليسرى وكأنها قد تجمّدت.

بعد دقائق، أحضر الجنود الإيرانيون من بقيَ في الملجأ، وكانوا كلّهم أحياء، لكنهم جرحى. جلسوا على جانبي عادل متكئين على الساتر الترابي وهم مندهشون مما يجري، فلا يوجد أثر لموتى من أفراد قوتهم العسكرية التي تشكلت يوم أمس، وبدا لهم أن القوّة قد

انسحبت على وفق الخطة قبل اقتحام الإيرانيين المكان، ولم يبقَ منها غير الجرحى.

كان عبد النبي يلّح بسؤال الجنود الإيرانيين: (راح تكتلونا؟ راح تكتلونا؟)، وفي كل مرة يجيبه أحد الجنود العربستانيين: (لا، لا، لا نقتلكم، انتم أسرى).

التفت عارف خليل إلى عادل أمين وسأله بصوت خفيض: (إحنا اسرى)؟ كان عارف يسأل وتكاد الدمعة تقفز من عينيه السوداوين الصغيرتين، في حين كان عادل يحرّك رأسه بالإيجاب وهو ينظر إلى جهة العراق.

طلب الجندي الإيراني من عادل أن ينهض ويتوجه إلى مقطورة الماء ليغسل رأسه، فنهض عادل وهو في شبه غيبوبة، ونفذ أمر الجندي بصمت وذهول، فهو لم يصدق ما يجري.

وضع عادل رأسه تحت حنفية خزان المياه، وبدأ يدلك رأسه بهدوء، وهو يشعر بألم شديد في قلبه من هول الصدمة، فقد كان يدلك رأسه وهو يردد: (معقولة آني أسير؟! معقولة؟!)، وحين حاول تنظيف عينيه، اكتشفَ أن عينه اليسرى سليمة، وأن الإصابة كانت في جبينه،

وما إن دلك جبينه حتى بدأ الدم يسيل من جديد، وهو الأمر الذي دعا الجندي الإيراني الذي أسره إلى أن يلفّ رأس عادل بقطعة من القماش الأخضر، ويربطها بقطعة قماش كان يربطها على رأسه، مكتوب عليها: (مسافر كربلاء).

عندما عاد عادل إلى مكانه قرب الساتر الترابي، لم يجد عارف وعبد النبي والجنود الثلاثة الجرحى؛ إذ أخذتهم سيارة إسعاف إلى مستشفى في الأحواز، عند ذلك طلب الجندي الإيراني من ضابطه أن يُعيد سيارة الإسعاف لتقل عادل إلى المستشفى، وقد فهم عادل ما قاله الجندي عندما جاءت سيارة إسعاف أخرى، فأنزل المسعفون سدية، ووضعوه عليها بهدوء، وسارت بهم السيارة إلى الأحواز.

3

حين وصل عادل إلى المستشفى العسكرية في الأحواز، وجد عناية خاصة لم يكن يتوقعها؛ إذ تجمع على رأسه كثير من الأطباء والممرضين، وأجروا له عمليات صغرى استخرجوا فيها كثيراً من شظايا الرمانات اليدوية التي كانت في جبينه وخده الأيسر وأذنه وظهره، ثم أخرجوا شظية من كعب قدمه اليسرى بطول خمسة سانتمترات اخترقت الكعب، وظلت ظاهرة من الجهتين، بالإضافة إلى ثلاثين شظية صغيرة بحجم حبة الحمص كانت منتشرة في بقية جسده.

مرّ على عادل يومان وهو في هذه المستشفى يجد رعاية لم يجدها في المستشفيات العراقية، وقد كانت المستشفى نظيفة جداً، وكان الممرضون يعتنون بالجنود المصابين.

في صبيحة اليوم الثالث، جاءت لجنة عسكرية تسجل أسماء المصابين، فلاحظ عادل أن الجنود المصابين يتحدثون باللغة الفارسية، وحين وصلوا إلى عادل، سأله أحدهم: (اسم چيه)؟ فلم يجب؛ لأنه لم يكن يعرف أنّ الضابط يسأله عن اسمه، ثم كرر عليه هذه العبارة مرات، لكنه لم يجب، فظنّ الضابط أنّ عادلاً مصاب بالذهول، فمدّ يده إلى جيب عادل وأخرج بطاقة هويته العسكرية، وما إن قرأ الضابط

الإيراني بطاقة هوية عادل أمين حتى حدثَ صخب بين أعضاء اللجنة، وكأن القيامة قد قامت، إذ تجمهر الأطباء والعسكريون، حتى أن الجنود الإيرانيين المصابين قد تحلّقوا حول سريره، وهو ينظر إليهم غير مدرك لما يحدث.

بعد تلك الضجة جاء جنديان إيرانيّان وأخرجاه من المستشفى، وعندما وصلوا إلى الشارع، قرأ عادل لوحة كبيرة كُتب عليها اسم المستشفى وهو: (إخلاء جرحى إيراني)، وقد أخذه الجنديان إلى مستشفى أخرى مجاورة، كُتب عليها: (إخلاء جرحى عراقي)، وهنا تبين له ما كان يجري، وهو أنهم ظنوه إيرانياً؛ بسبب قطعة القماش التي ربطها على رأسه الجندي الذي أسره: (مسافر كربلاء).

تركه الجنديان في وسط مستشفى إخلاء الجرحى العراقيين التي أقيمت على عجل، فهي مكوّنة من قاعتين كبيرتين تتوسطهما حمّامات، وقد وضعتْ فيها أسرّة بطريقة عشوائية، وكان أغلب الجنود العراقيين يأنّون من الألم الجسدي والنفسي، وبعضهم يصرخون من الألم.

جالَ عادل بنظره؛ يبحث عن مكان يريح فيه جسده، فوجد سريراً خالياً، فجلس عليه وهو ما زال يجول بنظره في أروقة القاعة

الكبيرة التي جعلها الإيرانيون مستشفى طارئة. كان الممرضون الإيرانيون يتمشون بين الجرحى العراقيين من دون أن يفعلوا شيئاً، ويبدو التذمر على وجوههم، فتذكر عادل الجندي الإيراني الذي أسره وطلب منه أن يغتسل، شاعراً بأن تعامل ذلك الجندي أفضل بكثير من تعامل الممرضين مع الجرحى.

تأمل عادل وجوه الجرحى الذين يئنون من الألم، فمنهم من كان ينزف، ومنهم من كان يصرخ من شدة ألم الحروق التي التهمت جسده، وبينما هو كذلك، سمع صوتاً يناديه من بعيد، وحين أدار رأسه ناحية الصوت، رأى عارف خليل وعبد النبي مرهون متوجهين نحوه، فنهض من سريره وسار نحوهما وهو يشعر أن شيئاً ما قد خفف عنه آلامه.

طال عناقه مع عارف وعبد النبي وهم يبكون بحرقة، وكان عادل وعارف يتساءلان بحزن شديد: (معقولة؟! معقولة؟!)، فأجابهم عبد النبي بحزن أيضاً: (إي معقولة، هاي هيه، إحنه أسرى، إحنا أسرى، شتريدوهم يعاملونا مثل جنودهم؟). كان عبد النبي يظن أن تساؤل عادل وعارف حول معاملة الإيرانيين للأسرى، ولم يدرك أنَ عارفاً غير مصدق أنهم وقعوا في الأسر، ثم إنه كان يظن بأن عادلاً قد

قُتل في الجبهة، في حين كان تساءل عادل لأنه غير مصدق بأنه سيجتمع مع رفيقيه مرة ثانية.

بينما كان عارف وعبد النبي يستمعان إلى ما حدث لعادل وهما جالسان على سريره، سمعا صرخة مفاجئة من الجريح الذي يرقد بجانب عادل، بدا لهم من زيه العسكري أنه ملازم ثان من صنف الدروع. كانت بدلته المصممة ضدّ الحريق قد احترقتْ، وتفحم بعضها والتصق على جلده، وهو الأمر الذي جعله يئن كثيراً، ويصرخ قليلاً. كان عادل يرى نفسه أفضل صحيّاً من كلِّ المصابين في هذه المستشفى؛ لأنه تلقى علاجاً حقيقياً، في حين كان عارف يشكو من ألم رصاصة اخترقت فخذه الأيمن، لكنها لم تكسر عظمه، وهو غير مبال بما يصيبه، فهو يتحرك بسرعة إلى الحمامات، ويحاول مساعدة بعض الجرحى، وكان عبد النبي قد أصيب بشظية صغيرة استقرت في كتفه الأيمن، من دون أن تشكل خطراً كبيراً على صحته.

نظر الأصدقاء الثلاثة إلى الضابط معاً ،وقررا مساعدته بهدوء، حينها بدأ عادل بتنظيف ما التصق على جسده من بدلته المتفحمة، ثم حمله عارف على ظهره إلى الحمامات عندما وجد أنه احتاج إلى ذلك، وهيأ له عبد النبي مبولة ليبول وهو مضطجع؛ لأن

عملية نهوضه تؤلمه كثيراً، وعلى الرغم من أنّه لم ينطق بكلمة سوى الأنين، لكن عبارات الشكر كان جلية في عينيه.

كان لفعل الأصدقاء الثلاثة هذا مع الضابط العراقي أثرٌ على بعض الجنود الجرحى الذين كانت إصاباتهم أخف من غيرهم، فشكلوا ما يشبه مجموعة للمساعدة، إذ كان الممرضون لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يأتون بطعام لا يعرفه العراقيون، ويوزعونه على الجرحى، ويأتون بضمادات يضعونها في زاوية من زوايا القاعة ويذهبون؛ لذلك كان على لجنة المساعدة أنْ تفعل ما تستطيعه لمساعدة المصابين.

4

في السادس من مايس، جاءت لجنة طبيّة تعمل على إخراج الجنود الذين وصفتهم بأنهم قد تعافوا إلى مكان آخر. فاجتمع عادل بعارف وعبد، ووقفوا قرب بعض لئلا يفترقوا، وما هي إلا دقائق حتى وصلوا إلى مكان كان مخزناً لمعمل اسمنت الأحواز، ولكن الجيش الإيراني استغله ليجمع فيه الأسرى العراقيين. كان المخزن مكوناً من جملونين مفتوحين على بعضهما، وكانت أرضيّة المخزن متربة بكثير من الإسمنت، وكان في هذا المخزن قرابة ثلاثة آلاف من الأسرى العراقيين، بعضهم يجلس قرب الجدران وبعضهم ينام على الأرض المغبرة، وبعضهم يئنُّ من إصابة جسدية أو نفسية.

بحثَ عادل كثيراً عن رفاق آخرين من كتيبته، وسأل أكثر، فلم يجد سوى شابين مسيحيين نائمين بهدوء. توسّدَ أحدهما رجل الآخر قرب الجدار الشمالي للجملون، أحدهما عماد سركيس الذي يعمل ميكانيكياً في مفرزة إصلاح المدرعات، والثاني يعمل معه، فجلس عادل قربهما بصمت، في حين كان عبد النبي يجلس قرب عارف على مقربة من الشابين المسيحيين ويضع يده على بطنه من ألم الجوع وهو ينظر إلى عبد النبي.

لاحظ عادل أنه الوحيد الذي يحتذي نعالاً في رجليه، إذ كان كل الأسرى بلا أحذية، فقد حصل على هذا النعال الطبي المملوء بالهواء عندما كان جريحاً إيرانياً قبل أسبوع في مستشفى (إخلاء جرحى إيراني)، وهنا شعر باستحالة بقاء هذا النعال في رجليه، فتركه قرب صديقيه المسيحيين، وذهب ليجلس قرب عارف وعبد النبي في المكان المعد للجرحى قرب بوابة الجملون.

كان عادل يردد كل بضعة دقائق: (معقولة؟!) لاسيما عندما يرى الطعام يوزع بطريقة مذلّة؛ إذ كان الإيرانيون يرمون الخبز من الطابق الثاني للجملون بطريقة عشوائية، وكان كثير من الأسرى الجائعين يتلقون الخبز بأيديهم، وكان كثير من الأسرى لا يحصلون على الخبز، وهو الطعام الوحيد. كان عادل وعارف يشعران بالإحراج عندما يأتيهما أحد الجنود العربستانيين بالخبز بوصفهما جريحين، في حين كان عبد النبي مستمتعاً بهذه الخصيصة، فهو غالباً ما يقول: (هم زين إحنا جرحى)، وهو الأمر الذي يجعل عادلاً وعارف يتبادلان نظرات الاستنكار بسبب قوله هذا.

كان الجندي العربستاني يتعاطف مع الجرحى عندما يأتيهم بالخبز، وغالباً ما كان يخبرهم بأن مشكلة الطعام في طريقها إلى الحل، وأخبرهم أن النساء الأحوازيات قمن بحملة جمع تبرعات للأسرى.

في صبيحة اليوم التالي بدأت المساعدات تتدفق على الجملون ثم ازدادت، وكان الإيرانيون يرمون الخبز من الطابق الثاني من دون أن يتجمهر تحتهم الأسرى العراقيون، وقد بدأت تبرعات أهالي الأحواز تصل تباعاً على طريقة المواكب الحسينية، إذ يأتي الطعام في قدور كبيرة مليئة بالرز واللبن الرائب وغيره. وكان أكثر ما أراح عارفاً وعبد النبي من هذه المساعدات هو علب السجائر المتنوعة التي تبرع بها الأهالي، فقد حصل عبد النبي على علبتين، فيما حصل عارف على أربع علب؛ لأن عادلاً تبرع بسجائره له.

في اليوم التالي، ادّعى الإيرانيون أنهم أسروا ستة جنود ينتمون إلى اللواء المدرع العاشر، وكان من المتعارف عليه أنَّ أفراد هذا اللواء يحسمون أغلب المعارك، وهم لا يقعون في الأسر؛ إذ إن هذا اللواء لا يشترك في هجوم، إلّا بعد أنْ يقوم طيران الجيش بدكّ المواقع الإيرانية بكثافة؛ لذلك كان الإيرانيون يُشيعون أنهم دمروا دبابة من اللواء العاشر، أو أسروا بعض جنوده، وقد تأكد لعارف هذا الإدعاء عندما التقى بالجنود الستة، وذلك حينما طلب منهم الإيرانيون أن يتحدثوا عبر الراديو لأهلهم، على شرط أن يقولوا إنّهم من اللواء المدرع العاشر، فعندما عرف عارف أنّهم سيتحدثون عبر الراديو، جازف في الانضمام إليهم، فصاروا سبعة جنود من اللواء المدرع العاشر.

تقدم عارف بحذر، ووقف خلف الجنود الستة، ثم تقدم ليكون تسلسله الثالث، وهو ينظر إلى عادل بين لحظة وأخرى، ثم سأل عارف الجندي الذي يقف خلفه عن مكان أسره؛ ليعرف كيف يتحدث بواسطة الراديو.

وما هي إلا دقائق حتى التقى بهم المذيع العسكري الإيراني الذي كان غالباً ما يلتقي الأسرى، وطلب منهم الحديث، ولما جاء دور عارف، قال على الهواء: (إني عارف خليل، أحد جنود كتيبة استطلاع حطين المدرعة. تجحفلنا مع اللواء العاشر لإنقاذ قوة محاصرة، ووقعنا في الأسر)، قال ذلك لأنه لا يجرؤ على أن يسيء للواء طالما تفاخر العراقيون بهجوماته الحاسمة. بعد ذلك حاول المذيع العربستاني أن يقوّل عارفاً كلمات عن تخاذل الضباط العراقيين، لكن عارفاً تجاهل طلبه، وأعاد كلماته نفسها؛ ليعلم أهله أنه أسير.

في اليوم قبل الأخير من الأيام الثمانية التي أمضاها الأسرى في جملوني الأحواز، قرر الإيرانيون أن يستعرضوا بهم في مدينة الأحواز أمام الأهالي، فوضعوهم في باصات كبيرة دارت بهم في شوارع المدينة، والناس متجمهرون على الأرصفة، كان عادل ينظر إلى سلوك المتجمهرين وهو محتار؛ فمنهم من يقذف الأسرى بالحجارة، ومنهم من يلعنهم، ومنهم من يبكي على حالهم، والذي أزاد

من اندهاش عادل أنه سمع بأذنه امرأة عربية تلوم الأسرى العراقيين بقولها: (ليش ولكم؟ معقولة يجيبوكم هذوله أهل الگمل)! وقد قرأ عادل هذه العبارة في ملامح الحزن البادية على وجوه النساء العربيات وهن يشاهدن الأسرى وهم موثوقون في الباصات.

همس عارف في أذن عادل بأن حركة السيارات في هذا الاستعراض مخطط لها بدقة؛ إذ لاحظ أن سائق الباص يتوقف في الوقت الذي يقوم فيه مجموعة من الناس بقذف الباص بالحجارة، ويسير بصورة اعتيادية عندما يكون الوضع اعتيادياً، فهو يعطي وقتاً أكثر لمن يقذف الأسرى بالحجارة؛ لكي يمارس غضبه أمام وسائل الإعلام الإيرانية. كان عادل مشغولاً بالنظر إلى الناس عن تحليلات عارف، وهو يردد في نفسه: (من الواجب معاملة أسرى الحرب بطريقة إنسانية في جميع الأحوال. وتُكفل لهم الحماية من كل أعمال العنف والترهيب والشتائم وفضول الجمهور)، كان عادل ينظر إلى وجوه الضباط الإيرانيين وهو يردد هذه الفقرة من القانون الدولي، وفي صدره صرخة مدوية كتمها بدموعه، في حين كانت ملامح الخوف المشوب بالحذر طاغية على وجه عبد النبي وهو يتفادى الحجارة من وراء الزجاج.

5

في اليوم الثامن أعد الإيرانيون قوائم بأسماء الأسرى؛ لينقلوهم إلى معسكرات ثابتة. وفي الساعة الثامنة صباحاً وضعوهم، وهم موثوقو الأيدي، في قطار.

طلب عادل من رفيقيه أن يبقيا قريبين من بعض لئلا يفترقوا، وقد نجحوا في أن يكونوا في غرفة واحدة في القطار، وقد انضم إليهم عماد سركيس، كان شاباً في العشرينيات من عمره، متوسط القامة ابيض الوجه شاحبه، تحيط عينيه هالة سوداء مزرقة، وعظمتا خديّه بارزتان، بشعر خفيف ناعم، تبدو على رأسه أمارات الصلع المبكر.

كان الطريق إلى طهران مرعباً، لاسيما عندما يدخل القطار في نفق مظلم طويل يخترق جوف جبل، وقد كانت هذه الأنفاق كثيرة، ثم أن هناك استدرات حادة حول سفوح بعض الجبال، وكثيراً ما كان عبد النبي يصرخ بأعلى صوته: (راح ننكلب، راح ننكلب)، وكثيراً ما حاول عادل تهدئته، في حين كان عارف يفكر في طريقة للهرب: بأن يلقي بنفسه من القطار، وقد حاول عارف أن يقنع عادل بالفكرة، وهي أن يتمكنوا من السيطرة على الحارسين اللذين يقفان عند بوابة المقطورة، ثم يلقون أنفسهم في نهر صغير، أو مزرعة يمر بها القطار،

لكن عادلاً كان يستبعد نجاح الخطة، ويحذر من أن فشلها سيؤدي إلى موتهم، في الوقت الذي تحدّث فيه عارف وعادل حول محاولة الهرب كانت عينا عبد النبي تتحركان بسرعة من عادل الى عارف وبالعكس وكأنهما عينا حكم كرة الطاولة، وكان عماد حزيناً؛ لأن صديقه الذي كان معه في مفرزة إصلاح المدرعات قد نُقل إلى مكان آخر.

بعد نصف ساعة شعر عبد النبي بالحاجة الى النوم، فهو لم ينم بما فيه الكفاية خلال الأيام الماضية، فوضع رأسه على رجل عماد سركيس، ونام عارف على رجل عادل، في حين اتكأ عادل على حافة نافذة الغرفة وغط في النوم.

كانت أوضاع نومهم تتغير كل حين، وكثيراً ما كانوا يفزون من نومهم عند المنعطفات والمنحدرات والأنفاق، لكنهم يعودون للنوم بعد دقائق إلى أن وصلوا طهران عند حلول الليل.

6

بعد أن وصل القطار إلى طهران، أنزل الإيرانيون الأسرى في ملعب طهران لكرة القدم، فأجلسوهم على أرضية الملعب، ووقف الحراس على المدرجات، ثم أحضروا لهم طعاماً، إذ لم يطعموهم في القطار شيئاً.

كانت حركة عارف خليل دؤوبة على عشب الملعب، فكثيراً ما اقترح تغيير مكان رفاقه من دون أن يبرر ذلك، إلى أن استقر رأيه بأن يجلسوا في الموضع الذي سدد منه حسين سعيد رأسيته معلناً فوز منتخب شباب العراق على إيران عام 1977، وهو الأمر الذي جعل عادلاً يبرر اختيار عارف بأنه تعويض عن الهزيمة التي يشعر بها وهو موثوق اليدين في طهران.

وفي الوقت الذي كان فيه أغلب الأسرى الموثوقين يبحثون عن رفاقهم كان عبد النبي مشغولاً في تناول طعامه والبحث عن كمية أكبر من الطعام الذي تركه الأسرى المذهولون على العشب.

كان الليل طويلاً جداً وبارداً جعل عادلاً يرتجف من البرد متخذاً أوضاعاً متعددة، محاولاً تفادي البرد، ولم يتمكن من النوم على

الرغم من أنه حاول ذلك كثيراً، فهو يغفو دقيقة أو دقيقتين ثم يـفـزّ عند سماعه صرخة أسير فـزّ من نومه لرؤيته كابوساً ما.

كانت الكوابيس ترافق عادلاً طوال الليل خلال الأيام الماضية، وهي ما زالت لغاية الآن! فما إن غفا حتى رأى نفسه يسير في جبهة القتال في ليل دامس لا يرى فيه كفّيه، فتهيأ له أن هناك شيئاً يتحرك على مقربة منه، وعندما توجه نحوه، وأمسك ذلك الشيء المتحرك على الأرض تحول الليل إلى نهار، فوجد بين يديه رأساً مقطوعاً، ووجد عادل نفسه يمسكه من شعره، وعندما صرخ بأعلى صوته، أيقظه عارف خليل، فصحا من هذا الكابوس المرعب. كان عادل يعرف ما يرى الأسرى من كوابيس في الملعب، وكان يحاول إيقاظ من يصرخ منهم، ويطلب منه أن يروي له ما رأى.

7

تأمل عادل الجبال الشاهقة من نافذة القطار المتوجه إلى (بندر أنزلي)، وهو يردد بصمت مقطعاً من قصيدة (وتريات ليلية) لمظفر النواب: (في العاشر من نيسان بكيت على أبواب الأحواز...)، فتمنى أن يكون بكاؤه كبكاء الشاعر، لكنه لم يكن كذلك، وكانت أحداث المعركة الأخيرة تبرق أمام عينيه، وتسير ببطء حين تصل أفكاره إلى هذا اليوم، حين وضعَ في قطار آخر، قيل له إنه سيتوجه إلى مدينة (بندر أنزلي)، وهي مدينة تقع في شمال إيران، تابعة لمحافظة گيلان، وهي ميناء إيران الرئيس على بحر قزوين. لاحظ عادل أن بعض الجنود العربستانيين يسمونها (بندر بهلوى) لكن اسمها تغير إلى بندر أنزلي أي: (ميناء البوابة)؛ لأن المدينة هي بوابة إيران على الاتحاد السوفيتي، وهي تضم قاعدة عسكرية للقوة البحرية، قرر الإيرانيون أن يجعلوا جزءاً منها معتقلاً للأسرى العراقيين.

على الرغم من أن عارفاً لم يكن يشعر بالبرد مثل عادل وعبد النبي، إلا أن البرد هذه المرة كان أشد من السابق، إذ إن القطار متوجه إلى أقصى شمال إيران، وعندما يقترب من الشمال تزداد شدة البرد، وهو ما جعل الرفاق الأربعة يحتضنون بعضهم كإحدى الطرق لأن

يتدفؤوا قليلاً. فحيناً يدلكون كفوفهم ببعضها على الرغم من أنها موثوقة، وحيناً ينفخ أحدهم بين كفيه، وكثيراً ما كان يقف عارف ويهرول في مكانه، وكثيراً ما يجلس فجأة عندما يسمع صوت الحارس وهو يصرخ: (بِشِنْ) طالباً منه أن يجلس.

لم تكن زرقة بحر قزوين وعتباته، كتلك التي رآها عامر وجدي في رواية ميرامار حين وصل إلى الاسكندرية بعد غياب طويل، بل كانت على العكس من ذلك عندما رآها عادل أمين؛ فهي غريبة وتنذر بالمجهول؛ إذ شعر عادل بحنين قهقري وهو يردد: (معقوله آني هنا؟!) فقاطع عارف تأملاته بقوله: (آني لحد الآن ما مصدك)، وهنا تدخل عبد النبي وهو يحاول وضع كفيه الموثوقتين على كتف عارف : (صدَق أو لا تصدق، ما راح يفرق شي.. إحنا أسرى).

كان معسكر بندر أنزلي يضم أسرى من معركتي: الشوش، وديزفول، أولئك الأسرى الذين أسروا في السابع والعشرين من آذار الفائت، وقد عرف عادل ذلك عن طريق الوشوم التي شوّهتْ سواعدهم، والتي تحمل تاريخ أسرهم، متبوعاً بكلمة دالة على قساوة اليوم، من مثل (يوم النكبة) أو (يوم النكسة) أو (يوم العار) وغيرها...

جلس عادل قرب أسير متذمر من رداءة الخط الذي كُتب على ساعده، فنصح عادل الأسير أن يتخلى عن فكرة الوشم لكنه كان مصراً على ذلك، وفي النهاية تمكن عادل من إقناعه بأن يكتب على زنده بدلاً عن ساعده؛ لأنه سيندم على هذا الوشم لاحقاً، فاقتنع الأسير بوجهة نظر عادل وكتب على زنده: (27 - 3 - 1982 الشوش) وتحتها (يوم النكبة).

كانوا 2500 أسير وزعهم الإيرانيون على خمس بنايات كانت معدّة لجنود القوة البحرية، تكونتْ كل بناية من طابقين، وقُسم كل طابق على قاعات، يضم بعضها خمسين فرداً وبعضها مئة، وكانت الأسرّة من ثلاثة طوابق، وهي مرصوفة بطريقة تجعل المرور من بين الأسرة صعباً، وقد فصل الإيرانيون بين البنايات بسور من الأسلاك الشائكة التي لا يمكن لقطّة أن تمر من خلالها، وكانت المسافة بين بناية وبناية تبلغ عشرة أمتار، تتوسطها الأسلاك الشائكة.

في أثناء توزيع الأسرى على البنايات قام عادل وعارف وعبد النبي وعماد بشبك ايديهم؛ ليكونوا معاً في قاعة واحدة، وأخبرهم عارف خليل أن هذا اليوم يوم حاسم في حياتهم؛ لأن المعسكر يبدو ثابتاً، ويجب أن يعملوا على البقاء معاً بشتى الوسائل، وحين وزع الإيرانيون الأسرى على القاعات، ظهرت أسماء عادل وعارف وعبد النبي في

القاعة الخامسة المطلة على البحر، والتي أطلق عليها الأسرى اسم السرية الخامسة، في حين ظهر اسم عماد في السرية الأولى البعيدة عن البحر.

أمضى أسرى السرية الخامسة اليوم الأول في ترتيب وضعهم الجديد، واختيار الأماكن، وتبادل الأمكنة، فعندما يجد أحدهم صديقاً له، يحاول أن يكون قريباً منه. كانوا بحاجة إلى التواصل، بل كان التواصل أهم شيء يحتاجون إليه؛ لأن العزلة كانت قاتلة تصيب الفرد بالجنون، وعندما يزداد التواصل تقل الكوابيس، ففي الأيام الأولى في بندر أنزلي، لم يكن أحد يستطيع النوم؛ ففي قاعة عادل وعارف وعبد، التي تطل على بحر قزوين، كان عادل يفزّ من النوم كل خمس دقائق؛ لأن الأسرى المئة الذي كانوا معه يتناوبون على الكوابيس، وبعضهم كان يصرخ مرتين أو ثلاثاً في الليل؛ إذ لم يتمكن أيّ منهم من النوم بلا كوابيس؛ لذلك صار اهتمامهم بالتواصل أمراً ضرورياً، فهم يمارسونه من دون أن يشعروا بذلك، وكثيراً ما كانوا يحاولون الحديث عن أشياء لا تدور حول الحرب، لكن الحديث يتحول شيئاً فشيئاً ليدور حول المعركة الأخيرة التي أسروا فيها، فلكل منهم روايته عما شاهده من الأحداث التي تتسبب في رؤية الكوابيس.

روى أحد الأسرى أنّ الإيرانيين أجلسوا الأسرى في صفين، يبعد كل صف عن الآخر مسافة البعد بين سرفتي دبابة، وقد أجلس الإيرانيون كلّ أسير في حضن الأسير الآخر، ثم أمروهم أن يضطجعوا، ثم داستهم الدبابة. وقال هذا الأسير أنه سمع أصوات انفجار الرؤوس، وما زالت هذه الأصوات تجعله يصرخ بأعلى صوته حينما يسمعها في النوم، وإن الذي أنقذ ما تبقى من الأسرى هم حرس الثورة الإيرانية، فقد حضروا بعد أن أعدم الجنودُ الإيرانيون أكثر من مئة أسير، وقد وبّخ حرس الثورة الضابطَ المسؤول، وأمروه أن يتوقف عن هذه الأفعال الشنيعة وإلا أعدموه.

كانت أغلب الروايات التي توقظ الكوابيس تنتهي بتدخل من قبل حرس الثورة، وهو الأمر الذي جعل عارف خليل يقول عن هذه الأفعال إنها سيناريوهات معدّة مسبقاً؛ إذ يقوم الجيش بإعدام كثير من الأسرى، ثم يتدخل حرس الثورة؛ لينقذ قليلاً منهم، وإن حرس الثورة يحاولون كسب عقول الأسرى العراقيين، فقاطعه عبد النبي رافضاً هذا التحليل، مدعياً أن الأسرى لا يعنون شيئاً مهماً للإيرانيين، حتى يكسبوا عقولهم، وهنا حاول عادل أمين التدخل عندما رأى أن النقاش سيحتدّ بين صديقيه، فأخبرهما أنه يشك بتحليل عارف ولا يرفضه، معتمداً على حقيقة، وهي أن عقيدة الجيش الإيراني ما زالت شاهنشاهية، إذ لم

تتمكن الحكومة الإسلامية من إنشاء عقيدة عسكرية بعد، فهي قد حكمت إيران في شباط 1979، والحرب قد بدأت في أيلول 1980. وبعد أن أكمل عادل كلامه، سكت عارف، وقال عبد النبي: (ولو آني ما افتهمت شي، بس أحس بعادل وياي).

كانت الأيام تمر بطيئة في معتقل القوة البحرية، إذ لا يوجد ما يثير في ذلك المكان؛ لذلك اقترح عادل على عارف أن يلعبا لعبة (الغو) الصينية التي لا تحتاج إلى كثير من الفن لصناعتها؛ إذ تتكون من رقعة تشبه رقعة الشطرنج، وقد اختار عارف الحجم الصغير من اللعبة الذي تتكون رقعته المربعة من 81 مربعاً، فرسمها عادل على ورق مقوى، وجمع أزرار بلونين مختلفين، فوجد عادل أن هذه اللعبة تنسجم مع كونهم أسرى، لأن استراتيجية لعبة (الغو) تعتمد على أسر قطع الرسيل، وأنها تتطلب وقتاً كثيراً للتفكير؛ بسبب كثرة احتمالاتها، وقد أخذت هذه اللعبة كثيراً من وقتهما ووقت الأسرى في القاعة، وكان عبد النبي دائم التفرج عليهما وهما يلعبان. وبمرور الوقت، صار يجتمع حولهما كثير من الأسرى المشاهدين، ولسهولة صناعة اللعبة، فقد انتشرت، وأصبح لها ابطال يشار إليهم، وكان عادل من هؤلاء الأبطال في هذه اللعبة، فكان يتعرض إلى تحديات في كثير من الأوقات، ويأتيه لاعبون من القاعات الأخرى في السرية الخامسة.

أما عبد النبي فقد وجد سلوته في لعبة الهويشة الريفية والريز والجلگة، فكان يجلس على الرمل لساعات أمام أحد الأسرى يمارس إحدى هذه الألعاب حتى تتهرأ ثياب اللاعب المقابل من كثرة الجلوس على الرمل، ومن حسن حظ عبد النبي أنه من صنف الدروع؛ إذ كان يرتدي بذلة غالية الثمن، تمكّن بسهولة من إزالة دمائه من عليها، وهي أفضل بكثير من بذلات بعض الضباط الإيرانيين، فهي براقة، وتنظيفها سهل، ومقاومة للتهرؤ، لكن أغلب الأسرى الآخرون كانت ثيابهم متهرّئة، أو ملطخة بدمائهم، أو دماء الجرحى من رفاقهم في الجيش.

كان عادل وعارف وعبد النبي يجلسون آخر الصفوف في أثناء التعداد الصباحي والمسائي؛ لأنهم جرحى، ولا يستطيعون الوقوف كثيراً، وكان عادل يقضي أغلب وقت التعداد الصباحي الذي يستمر لساعة كاملة في توزيع حصة الفطور الصباحي. ففي التعداد الصباحي يأتي جنديان إيرانيان يقسمان الفطور الصباحي على عدد الأسرى، وقد كان الفطور الصباحي خبزاً وجبناً، وحصة كل عشرة أسرى من الجبن كانت قطعة بطول اربعة انجات، وعرض انجين، وارتفاع انج واحد، وكان تقسيم هذه القطعة على عشرة أشخاص يعد مشكلة، ولاسيما أن هذه القطعة الصغيرة من الجبن كانت الطعام الوحيد الذي يوضع في مئة غرام من الخبز ليتناوله الأسير، ليجوع بعد

ساعة، ويبقى ينتظر وجبة الغداء، وهي كوب صغير من الرز بلا خبز، أما العشاء فكان كوباً صغيراً من الماء الذي يسميه الإيرانيون مرقاً. فهو ماء أحمر يقال عنه إنه عشاء.

ابتدع عادل طريقة لتقسيم قطعة الجبن على عشرة أشخاص خلال مدة التعداد الصباحي باستخدام خيط مفتول؛ فهو يقطّع الجبن الى 500 قطعة متساوية الأبعاد، على عدد أفراد السرية الخامسة، وكان غالباً ما يتحدى أي أسير أن يجد قطعة أكبر من أخرى، وكان عبد النبي غالباً ما يأخذ قطعته في البداية، وبمجرد ما ينظر إلى القطع ويمد يده لأخذ واحدة منها، يشعر عادل بأن تلك القطعة كبيرة نوعاً ما، فيندهش لقدرة عبد النبي في اكتشاف الفارق لصالحه.

لم يكن عادل من الأسرى الذين يدخنون، ولكنه لاحظ أن ثلثي الأسرى مدخنون، وكانت حصة الأسير هي سبع سجائر في اليوم، كان عادل يراها كثيرة، في حين كان المدخنون يرونها أقل من القليل، فبعضهم كان يدخن علبتين أو ثلاثاً في اليوم عندما كان في العراق؛ لذلك كانت هناك مشاكل تسببُها قلة السجائر، فقد كان الإيرانيون يوزعون السجائر كل شهر، بواقع عشر علب لكل أسير، لكن هذه الكمية تنفد خلال النصف الأول من الشهر، وبعد منتصف الشهر، تبدأ حالات الغضب وعدم المرونة في التعامل مع الآخر، وقد اختار

الأسرى مصطلحاً استقر لاحقاً على من تنفد سجائره، وهو (داوي)، إذ استعاروه من الحائط المنخور الذي يكاد يسقط في أية لحظة. كانت السجائر من نوع واحد، وهو (أشنو ويـژه)، وهي سجائر قصيرة بلا فلتر ذات تبغ حار جداً، تكتظّ في علبة ورقية ليست مقواة، مرسوم عليها جبل مغطى بالثلج. كان عادل لا يأخذ حصته من السجائر؛ إذ تبرع بها مسبقاً لعارف خليل وعبد النبي، فهما يدخنان كثيراً، وقد كان عارف يحاول أن يجعل ما لديه من سجائر يكفيه إلى نهاية الشهر، في حين كان عبد النبي من الذين تنفذ سجائرهم في منتصف الشهر، وكان كثيراً ما يلجأ إلى عارف؛ ليساعده بنصف سيجارة بعد كل وجبة طعام.

على الرغم من الشح في كل شيء: السجائر، والثياب، والطعام، فقد كان الطعام يقل يوماً بعد يوم، ففي كل يوم من أيام الشهر الثامن من عام 1982، يبقى مئة أسير في السرية الخامسة بلا طعام في وجبتي الغداء والعشاء، وكان موزع الطعام الإيراني يحاول إنصاف الذين لم يحصلوا على الغداء، بأن يجعلهم في بداية الطابور في وجبة العشاء، وهو الأمر الذي استوجب أن تُسجل أسماء الأسرى المحرومين من الطعام بعد كل وجبة، ولا تخلو عملية التسجيل من إدعاء مجموعة من الأسرى أنهم لم يستلموا طعامهم.

غالباً ما كان عبد النبي يقترح تقديم شكوى للضبّاط الإيرانيين من قلة الطعام، وكان عارف يهزأ من اقتراحه المتكرر هذا، ويدعي أن التجويع مقصود، ودليله على ذلك أن الجندي الإيراني يوزع الرز بمغرفة متوسطة الحجم، وعندما يغرف من القدر الكبير غرفة، يمسح المغرفة من الأعلى بكفه ليساوي الرز فيها، وحينما ينتهي الرز يسجل أسماء الأسرى المحرومين من الطعام، ويأخذ القدر ويذهب، وهو يعلم جيداً أنه ترك قرابة مئة أسير من دون طعام، لكن عبد النبي لم يقتنع بأن القضية مقصودة.

في أحد الأيام خرج عبد النبي إلى باب السرية، وطلب مقابلة الضابط المسؤول، ولما وافق الضابط على مقابلته، شرح له عبد النبي المسألة، ثم طلب منه أحد ثلاثة خيارات: إما زيادة الطعام، وإما أن يوزعوا الطعام بمغرفة صغيرة، وأما أن يقوم أحد الأسرى بتوزيع الطعام، لكن الضابط رفض مقترحات عبد النبي، فعاد خائباً، وجلس قرب عادل وعارف وهما يلعبان لعبة الغو. كان عارف يعرف أن عبد النبي قابل الضابط، وتوقع عودته خائباً، لكنّه تجاهل الأمر، ولم يؤنب عبد النبي على ما فعله، في حين كان عادل أمين يتنقل بنظره بينهما، خشية أن يتم فتح الموضوع، وأن تثار مشكلة بين صديقيه، إذ كان

عارف يعد مقابلة الضابط الإيراني عتبة من عتبات الخيانة الصغرى، وأن الحلّ الوحيد لهذه المشكلة هو أن يُضرب الأسرى عن الطعام.

لم يكن عادل يثق بجدوى التهديد بالإضراب عن الطعام؛ إذ كان يشعر أن الأسرى لا يستطيعون الضغط على الإيرانيين بتجويع أنفسهم؛ لأن الإيرانيين ليسوا منشغلين بمعاناة الأسرى، لكن أغلب الأسرى في السرية الخامسة استجابوا لدعوة عارف للإضراب، في حين وقف عادل على الحياد، أما عبد النبي فقد رفض الدعوة إلى الإضراب؛ لسبب يختلف عن السبب الذي جعل عادلاً محايداً، فحين سأله عارف عن سبب حياده، اكتفى عادل بالقول: (أنا لست جباناً، ولكنني أختار معركتي).

في ليلة الثاني عشر من آب من سنة 1982، بدأ عارف خليل يدعو الأسرى إلى الإضراب من دون أن يخبر عادلاً وعبد النبي، ووضع مجموعة من المطالب، وهي: أن يسجل الإيرانيون الأسرى لدى الصليب الأحمر الدولي، وأن يقوم أحد الأسرى بتوزيع الطعام، وأن يكون المترجم بين الأسرى والإيرانيين من الأسرى، وليس من الجنود العربستانيين، وقد حظيتْ دعوة عارف للإضراب بتأييد أغلب أسرى السرية الخامسة.

جلس عادل على سريره ليلاً، ينظر إلى بحر قزوين وهو يستمع لأحاديث الأسرى عن الإضراب في يوم غد، فشعر بأن صديقه عارف خليل سيعرّض هؤلاء الشباب اليافعين إلى مشكلة كبيرة، فأغلب أسرى السرية الخامسة ممن لا تبلغ أعمارهم أكثر من 18 سنة، وربط عادل بين الظروف التي جاءت بهم إلى الأسر، وما يفعله عارف الآن، ففي شهري نيسان ومايس، وقع في الأسر آلاف من شباب (المهمات الخاصة) الذين شاركوا في معركة الطاهري، ثم المحمرة، فهم جيوش غير متدربة، أعدوا لمسك الأرض، لكنهم فوجئوا بالهجوم الإيراني، لاسيما في معركة المحمرة في 24 مايس 1982، فكان هذا العام فاجعة كبيرة للجيش العراقي، تذكّر بالخامس من حزيران عام 1967؛ إذ أُسر أكثر من سبعة عشر ألفاً من المهمات الخاصة، وكان أغلبهم من مدينة الثورة في بغداد، ثم ربط عادل بين مشهد الجنود الإيرانيين وهم يتساقطون بعشرات الآلاف في معركة الطاهري، ومتطوعي المهمام الخاصة العراقيين الذين وقعوا في الأسر في معركة المحمرة، وقد شاع بين الأسرى أن هناك اتفاقاً بين العراق وإيران على إعطاء العراق نصراً لإيران؛ لتوقف إطلاق النار بعد ذلك، وربط عادل أيضاً بين هذه الفكرة، وفكرة إعطاء إسرائيل نصراً لمصر في اكتوبر 1973؛ ليعقدا بعد ذلك معاهدة سلام. شعر عادل أنه ذهب بعيداً في تحليله لهذا الموقف، وأنه بالغ في تقدير الموضوع، لكنه بقي يشكّ بجدوى

الإضراب، ويشعر أنه سيؤدي إلى مشكلة قد تكون كبيرة، فنهض من فوره باحثاً عن عارف، فوجده يقف في الساحة الداخلية للسرية الخامسة، ويتجمهر حوله مجموعة كبيرة من الشباب الأسرى، وما إنْ رأى عارف صديقه حتى استأذن واقترب من عادل، فطلب منه عادل أن يؤجل موضوع الإضراب إلى يوم آخر؛ ليتمكنا من مناقشته بشكل هادئ، لكن عارف رفض مقترح صديقه، وسأله وهو يضع يده على كتفه:

ـ عادل ، إنتَ راح تشارك بالإضراب لو لا؟

= آني ما مقتنع بالنتائج، بس راح أشارك.

ـ وعبد النبي مرهون؟

= ما أدري، بس أظن مَ يشارك. شوفه يجوز يغيّر رأيه.

كان عارف مندهشاً من أن عبد النبي يجوع بسرعة، فهو على الرغم من قصر قامته، إلا أنه سمين قليلاً، لكنه بدأ ينحف شيئاً فشيئاً خلال الأشهر الأربعة الماضية، حتى أنه يبدو نحيفاً مثل عادل وعارف، وعلى الرغم من أنهما طوال القامة إلا أنهما يتحملان الجوع أكثر منه، فقد كان عادل يربط بطنه بقطعة قماش، يعقد وسطها عقدتين أو ثلاث، ويضع ما انعقد منها على بطنه؛ لكي يصغّر معدته، ثم ينام على بطنه بصمت؛ لكي يشعر بأن شيئاً ما ملأ إلى معدته، وكذلك كان

يفعل عارف، وكان عبد النبي يعبّر عن جوعه بصوت عال، فهو كثيراً ما يردد كلمة (جوعان) بصوت مرتفع، ثم يبدأ بسيل من الشتائم على الحرب والعراق وإيران وقادة البلدين وكل من يظنه أنه السبب في ما حصل له.

بعد منتصف الليل، أضاف عارف مطلباً آخر لمطالبه الثلاثة، وهو معالجة كثرة القمل في السريّة، إذ كان الأسرى يعانون من أمر لم يعهدوه في العراق، ولا يتوقعون أن أحداً ما يعاني منه غير إيران، وهو كثرة القمل، فقد كان القمل يملأ المكان بكثافة، فعندما يجلس الأسرى على الأرض في انتظار التعداد، يجدون القمل قد ملأ ثيابهم، وحينما يأخذ أحدهم حفنة واحدة من الرمل الذي يجلس عليه، يجد فيه أكثر من مئة قملة، وإذا ما غسل أحدهم قميصه وعلقه على السور الشائك، يجد فيه أكثر من ألف قملة، حتى أنّ عارفاً سمى مدينة (بندر أنزلي) بأرض القمل. إن هذه التجربة جعلت عادلاً يصدق المرأة الأحوازية عندما قالت وهي تبكي: (ليش ولكم؟ معقولة يجيبوكم هذوله أهل الگمل)؟

في صبيحة يوم الإضراب استيقظ عادل مبكراً جداً، إذ تبرّع له عبد النبي بأن يحلق شعر لحيته التي طالت كثيراً خلال الأشهر الماضية، فقد حصل على نصف موس حلاقة من أحد الجنود

الإيرانيين، وكان نصف الموس هذا يعدّ كنزاً؛ لذلك اتفق عبد النبي مع مجموعة لا يقلّون عن ثلاثين أسيراً ليحلق لهم لحاهم؛ ليظن كل منهم أنه يحلق رأسه بموس جديد، فرأى عادل أن يحلق شعر رأسه أيضاً؛ تفاديا لغزو القمل؛ إذ كان شعر رأسه كثيفاً وكثاً، وقرر عادل أن يحلق رأسه بدرجة صفر؛ إذ لا توجد طريقة للحلاقة تخفف الشعر قليلاً، وبعد أن حلق له عبد النبي شعر رأسه، شعر عادل بالحرج من حلاقة لحيته؛ بسبب وجود عدد كبير من الأسرى في طابور الانتظار، فرأى أن يترك حلاقة لحيته ليوم آخر. نظر إليه عارف خليل مبتسماً، ثم شبهه بجيفارة: شاب أسمر بعمر 23 سنة بعينين سوداوين، طويل القامة نحيف جداً، إذ لا يصل وزنه إلى 55 كيلوغراماً، بوجه مستطيل نحيف ولحية طويلة لكن رأسه حليق.

في الساعة السابعة من صبيحة يوم الثالث عشر من آب، رفض الأسرى دخول الفطور الصباحي إلى السرية الخامسة، ورفضوا دخول الجنود الإيرانيين إلى السرية لإجراء التعداد الصباحي أيضاً، وكان عارف يقف في مقدمة الأسرى الرافضين، في حين مازال عبد النبي في الحمامات يمارس مهنة الحلاقة.

تأمل عادل اضطراب الجنود الإيرانيين وحيرتهم؛ إذ تجمهروا حول صفائح الجبن وأكياس الخبز وهم مندهشون من تجمع الأسرى

قرب بوابة السرية المصنوعة من الأسلاك الشائكة، لاسيما عندما بدأ بعض الأسرى برفع أصواتهم الرافضة والتحرك يميناً وشمالاً معبيرن عن شدة رفضهم.

لم يتخذ الإيرانيون أي إجراء سوى أنهم أعادوا الفطور الصباحي إلى المطبخ وكأنّ شيئاً لم يكن؛ مما أشعر عارف بالخذلان لمدة وجيزة، لكنه استعاد قوته بعد دقائق، وصاح بالأسرى: (ادخلوا للقاعة، ادخلوا للقاعة)، فدخل الأسرى إلى القاعة من دون أي اعتراض.

كان عبد النبي غاضباً من سلوك عارف؛ إذ بدأ يؤنبه على حرمان الشباب اليافعين من الفطور الصباحي، فأجابه عارف، بأن الإضراب سيستمر إلى أن تتحقق المطالب، فوضع عبد النبي يده على بطنه، وزاد عادل من إحكام ربط قطعة القماش على بطنه، وشرب قليلاً من الماء، وحاول النوم، لكنه لم يتمكن من ذلك.

كان عادل يرى أن الإضراب موقف سياسي يمكن التحضير له قبل مدة، إذ يمكن أن يجمع الأسرى قليلاً من الطعام يتناولونه في أثناء الإضراب من دون علم الإيرانيين، لكن عارف يعد ذلك زيفاً، وأن المضرب عن الطعام يجب أن يجوع، ولم يكن لعبد النبي رأي في

الموضوع، سوى أنه أعلن أنه سيرفض الإضراب إذا استمر، وأنه سيأخذ حصته من الطعام حتى لو كان الوحيد الذي يفعل ذلك، ولما رأى عارف إصرار عبد النبي على رأيه، طلب من الأسرى التجمع في ساحة السرية المليئة بالرمل والقمل، وأخبرهم بأنهم أحرار في تصرفهم، فمن أراد أن يستمر بالإضراب فليرفع يده، فرفع أغلب الأسرى أيديهم، وبقي منهم عشرة أسرى تقريباً، منهم عبد النبي مرهون، وهنا طلب منهم عارف أن يخبروا الإيرانيين أنهم ليسوا مضربين عن الطعام، لكن هؤلاء العشرة بدؤوا يبررون سبب رفضهم، فمنهم من كان مريضاً ومنهم من كان لا يتحمل الجوع نهائياً، ومنهم من يخشى العواقب.

حين رفض الأسرى دخول طعام الغداء إلى السرية، اجتمع قائد القوة البحرية في بندر أنزلي بمجموعة من المسؤولين، وأخبرهم أن الأسرى جادين بالإضراب، وأنه كان ينتظر رفضهم لوجبة الغداء؛ ليقرر ما سيفعل، وبناء على ذلك، أخبر المسؤولين أنه سيتفاوض مع الأسرى عصر هذا اليوم، وأمر أحد الضباط بتشكيل قوة لمكافحة الشغب يفيد منها إذاما استفحل الأمر.

بعد وقت الغداء بساعتين، حضر مساعد قائد القوة البحرية في بندر أنزلي بنفسه؛ وطلب من الأسرى أن يتجمعوا في ساحة السرية،

في الساعة الثالثة عصراً؛ لأن قائد القوة البحرية سيزورهم؛ ليستمع إلى مطالبهم.

بعد أن تجمع الأسرى، دخل القائد مع ضابطين وثلاثة من الحراس إلى داخل السرية الخامسة، في حين كانت القوات الأخرى تحاصر السرية، وبنايات الأسرى الخمس من الخارج، فاندهش عادل عندما رأى المدرعات العسكرية الكثيرة التي تحيط بالمعسكر، ورأى القناصين والجنود وهم يسددون بنادقهم نحو الأسرى، وظن أن الأمر لن يمضي على خير.

وقف قائد القوة البحرية أمام أسرى السرية الخامسة المنتظمين في صفوف طويلة وهم يجلسون على الرمل، في حين كان القائد ومن معه يقفون قرب بوابة السرية، وحين سأل القائد عن مطالب المضربين، حدثت ضوضاء من قبل الأسرى؛ إذ كان كثير منهم يذكر مطالب متفق عليها، لكن طريقة عرضها كانت غير منتظمة؛ لذلك طلب القائد أن يختار الأسرى ممثلاً ينوب عن الباقين في الحديث، وما إن قدّم مقترحه هذا حتى ساد الصمت بين الأسرى، فلم يجازف أياً منهم بتمثيل الأسرى حتى عارف خليل. وفي هذه اللحظة الحرجة رفع عادل أمين يده، وأخبر الضابط بأنه سينوب عن الأسرى، وهنا سأل القائد الأسرى فيما إذا كانوا يوافقون على تمثيل عادل أمين لهم، ثم

طلب من الموافقين أن يرفعوا أيديهم، ولما وجد أن معظم الأسرى قد رفعوا أيديهم، طلب القائد من عادل أن يذكر المطالب، لكن بعد أن يتحدث مع الأسرى لخمسة دقائق، فأشار عادل برأسه بالإيجاب.

صمت القائد قليلاً، ثم مشى أمام الأسرى إلى أن وصل إلى آخر الصف الأمامي، ثم عاد إلى منتصف الصف الأمامي، وقال بهدوء: (إن بلادي تتعرض لحصار جائر منذ قيام الثورة الإسلامية قبل ثلاث سنوات، وإن الحرب العراقية الإيرانية جعلت الحصار ثقيلاً علينا، وعلى الرغم من ذلك، فقد أوصانا الإمام الخميني، حفظه الله، أن نعاملكم كما نعامل الضيف الكريم؛ علماً أننا نعاني من قلة الطعام كما تعانون منه أنتم؛ لذلك أطلب منكم الصبر على هذا المصاب، لحين تحسن الأمور).

بينما كان القائد يتحدث قاطعه أحد الأسرى متذمراً وصاح بصوت عال: (هذا ظلم تريدون تعدمونه؟ اعدمونه)، وحين فتح الأسير أزرار قميصة أمام بنادق الحراس، أشار القائد إلى أحد الضابطين بأن يُخرج هذا الأسير من السرية، فأخذه الضابط، ثم سلمه لنائب ضابط كان يقف خارج بوابة السرّية الخامسة مع مجموعة من قوات مكافحة الشغب، وفي هذه اللحظة، مشى عادل أمين بهدوء إلى خارج السرية والقائد ينظر إليه من دون كلام، ثم فك عادل يد الأسير من يد نائب

الضابط، وأدخله إلى السرية، وأجلسه في المكان الذي كان يجلس فيه، فنظر القائد إلى عادل من دون أن يعلق على ما حدث، إذ استأنف كلامه، ووعد الأسرى بأنه سيهتم بمطالبهم شخصياً، ويعمل على تنفيذها على أن لا تكون تعجيزية، وبعد أن أنهى القائد كلامه، أشار إلى عادل لكي يشرع بسرد مطالب الأسرى.

في البداية، ردّ عادل على خطبة القائد، فأخبره بأنه أسير، وهو يعرف جيداً ما تمر به إيران من حصار، وأن الحرب تضعف اقتصادات الدول، ثم أخبره أن مطالب الأسرى لا تؤثر في الاقتصاد الإيراني، فمن جانب الطعام، فالأسرى لا يطلبون زيادته، على الرغم من أنه قليل لا يليق بضيوف، لكنهم يريدون توزيعه بأنفسهم؛ لكي لا يبقى مئة أسير من دون طعام في وجبتي الغداء والعشاء. وبينما كان عادل يتحدث مع القائد، أحضر عارف خليل حصة رز، وحصة مرق في صحنين، وطلب من عادل أن يريهما إلى القائد، فأخبر عادل القائد أن هذه هي حصة الأسير اليومية، وعلى الرغم من قلة الطعام، فهو لا يكفي سوى لأربع مئة أسير من مجموع الأسرى الخمس مئة في هذه السرية، وأنه يعدّ هذا عقوبة للأسرى تتعارض مع القانون الدولي الذي يقول: (لا يكون احتجاز الأسرى شكلاً من أشكال العقوبة، وإنما يهدف فقط إلى منع استمرار مشاركتهم في النزاع).

نظر القائد إلى أحد الضباط الذين كانوا معه، وكأنه يؤنبه على هذه الكمية، وعلى طريقة توزيعها، فشعر عادل أن القائد سيضع حلاً لحصة الطعام؛ لذلك لم يضف شيئاً آخر حول الطعام، فانتقل إلى المطلب الآخر وهو أن من حق الأسرى أن يكونوا مسجلين في منظمة الصليب الأحمر الدولي، وهذا المطلب لا يؤثر على اقتصاديات الدولة. ذكر عادل أمين المطلب الثاني وسكت، وطلب الإذن بالجلوس لأنه شعر بألم في رجلة وأن إحدى الشظايا قد تحركت من مكانها، فسمح له القائد، وأخبره أنه استجاب له، ووعد الأسرى بأنه سينفذ ما عليه، وأنه سيكتب إلى طهران حول زيارة الصليب الأحمر لتسجيل الأسرى لديه. وقبل أن يخرج، طلب من عادل أن يسمح بدخول وجبة العشاء، فسأل عادل الأسرى فيما إذا كانوا يوافقون على دخول وجبة العشاء، فلم يردوا عليه، عند ذلك أخبر عادل القائد بأن الأسرى موافقون على إنهاء الإضراب؛ فتبسم القائد، ووعده أنه سوف يعوض الأسرى عن وجبة الفطور والغداء في اليوم التالي. قال ذلك واستأذن، وخرج وهو يرفع يده بالتحية.

عاد عادل إلى القاعة، وقد تجمهر حوله كثير من الأسرى الذين ساروا معه إلى سريره وهم يهنئونه على ما قاله للقائد، فأخبرهم بأنه مفاوض بالصدفة، وكان ينبغي أن يحل عارف خليل محله،

فاستأذن منهم لأنه يشعر بتعب، وعليه أن يضجع قليلاً، وعندما ارتقى إلى سريره، شعر بألم في كعب رجله المصابة، ولاحظ أن الألم يزداد عندمل يطول وقوفه، لكنه نسي ذلك الألم عندما وجد عارف متربعاً على سريره واضعاً كلتا يديه على رأسه، ولم ينتبه لوصول عادل، فربت عادل على كتفه وتربع أمامه. نظر عارف إلى عادل وسأله فيما إذا كان الإضراب قد نجح أم لا، فأجاب عادل بأنه يشك في ذلك، لأنه يشك في نوايا القائد، إذ على الرغم من أن أسلوبه يبدو لطيفاً، إلا أن نظراته ونبرة صوته توحي بأنه غير مقتنع بمطالب الأسرى، أو غير مقتنع بأن يفرض عليه الأسرى أمراً ما، عند ذلك قال عارف: (أنا مقتنع بأنني أديت ما عليّ؛ لأنني لا أستطيع فعل أكثر من ذلك، فالقاعدة الجماهيرية المؤيدة للإضراب بحماسة شديدة، كانت قليلة جداً؛ لذلك اقتنعت بوعود ربما تكون كاذبة).

وبينما كان الصديقان يتحاوران، سمعا ضجة في الطابق الأرضي، وما هي إلا لحظات حتى جاء عبد النبي راكضاً يلهث ويصرخ بصوت مبحوح: (الجنود اقتحموا السرية، الجنود اقتحموا السرية، وبدو يضربون الأسرى بالهراوات)، وما هي إلا ثوانيَ حتى بدأ الأسرى يصعدون مذعورين إلى الطابق الأول، يصرخون:

اقتحمونه، اقتحمونه)، فقال عبد النبي لعادل وهو يرتجف: (عادل تره يدورن عليك، انت المقصود). ثم أكد قول عبد النبي أسير آخر، وآخر.

لم يكن هناك وقت للتفكير، فأين يمكن أن يختبئ عادل؟ كانت الفكرة الوحيدة التي خطرت على باله، هي أن يتجاوز حالة الغضب التي يمر بها الجنود، فلو تمكّن من الاختباء لحين ما تنتهي سورة الغضب، فربما ينجو من القتل بالهراوات، إذ كان يتوقع أنهم سينهالون عليه بالضرب من قبل أربعة أو خمسة جنود غاضبين؛ لذلك قرر أن يخرج من السرية الخامسة ويتوجه إلى السرية الرابعة عن طريق النافذة المطلة عليها، فحاول إبعاد قضيبين حديديين في النافذة بمساعدة عارف، فتمكن من أن يمرر جسده من بين القضيبين، فنزل على مظلة اسمنتية بعرض نصف متر، وتدلى إلى الأسفل، وأسقط جسده من على بعد خمسة أمتار تقريباً، وحين سقط على الأرض، شعر بألم في كعب رجله المجروحة، ثم إن ركبتيه كادتا أن تحطما فكّيه، لأنه لم يبعدهما عن بعضهما في لحظة السقوط؛ لقلة خبرته في عملية سقوط كهذه، ثم إنه سقط على بلاطة اسمنتية، في حين كان عليه أن يبتعد قليلاً عنها؛ ليسقط على العشب المزروع بين البنايتين. قام من فوره وعبر السور الشائك الذي يفصل بين البنايتين، فقد تسلق السور، ووضع بطنه على أعلاه، ثم حوّل ثقله باتجاه السرية الرابعة، وقبل أن يسقط، مسك بكفه

اليمنى وسط السور، وقلب جسده ليسقط علي رجليه، وحين دخل السرية الرابعة، تفاجأ بعض الأسرى برؤيته وهو يدخل عليهم، عند ذلك أخبره أحد الأسرى بأن أحد الجنود الذين يحاصرون المعسكر قد رآه، وأبلغ الجنود المهاجمين؛ لذلك توجب عليه أن يصعد إلى الطابق الأول؛ ليهرب نحو السرية الثالثة، فقد كان متيقناً من أن نوافذ الطابق الأرضي مغلقة بإحكام، ولا يمكن فتحها، وحين وصل إلى أحدى النوافذ، تمكن من إبعاد قضيبيِّ النافذة وحده هذه المرة، وخرج بالطريقة ذاتها، وكان سقوطه هذه المرة سليماً، فقد سقط على العشب، لكن رأسه تدلى بين ركبتيه كثيراً حين فتحهما، وبينما كان يتجاوز السور الشائك الفاصل بين السرية الرابعة والثالثة، رأى أكثر من ثلاثين جندياً يحملون الهراوات وهم يدخلون إلى السرية الثالثة، فقرر أن يستمر إلى أن يصل إلى السرية الأولى عبر السرية الثانية.

حين دخل السرية الأولى، وجد أن الأسرى هناك يعرفون ما يجري، فما إن رأوه حتى أخذه عماد سركيس إلى الحمامات، وطلب منه عماد أن يصعد على السقف الثانوي الذي يضم مواسير الحمامات، وزوده بموس، وماكنة حلاقة، ومرآة، وكليتة عسكرية (غطاء رأس)، وطلب منه أن يحلق لحيته، ويرتدي غطاء الرأس، ففعل ذلك بسرعة

وهو يشكر عماد والأسيرين اللذين معه، وأخبرهم بأنه ليس خائفاً منهم، وأنه سيسلم نفسه لهم حينما يهدأون.

بعد حوالي عشرة دقائق، جاء الضباط والجنود إلى السرية الأولى، وسألوا عن عادل، فأنكر مسؤول السرية العراقي وجوده معهم، فطلب أحد الضباط أن يتجمع أسرى السرية الأولى في الحال؛ لعمل تعداد، فوقف عادل في التعداد، لكن الضابط الإيراني لم يقم بحساب الأسرى، فقد اكتفى بالتفتيش في الوجوه، وبعد أن عجز عن إيجاد عادل، نادى الضابط الإيراني على مسؤول السرية العراقي، وهو شاب من محافظة صلاح الدين، حظي باحترام أسرى السرية، ولما اقترب منه مسؤول السرية العراقي، أخبره الضابط بأنه متأكد من وجود عادل معهم، ووعده بأن يعامله معاملة حسنة فيما إذا سلم نفسه، وإلا فإنه سيعاقب كل السرية أشد عقوبة، ولاسيما مسؤولها العراقي. في هذه اللحظة تقدم عادل وقال (آني هنا)، فأخذوه إلى الخارج وهو يسمع صوت آمر السرية العراقي وهو يلومه على تسليم نفسه.

ما إن خرج عادل من باب السرية الأولى حتى قام الجنود الإيرانيين بضربه بالهراوات بشكل وحشي، فقد كان كل الجنود يضربونه بقسوة، وكان بعضهم يشعر بالغبن لأنه لم يتمكن من ضربه،

فيبحث الجندي عن ثغرة بين الجنود تؤدي إلى جسد عادل؛ ليضربه بهراوته، بعد ذلك أخرجوه من معسكر الأسرى وهم يضربونه.

بعد حفلة الضرب بالهراوات، أوثقوا يديه بحبل سميك، وربطوه بسيارة صغيرة، ثم سحلوه لمسافة مئة متر تقريباً على طول السور الشائك المواجه للبنايات الخمس من جهة البحر، كانوا قاصدين أن يسحلوه أمام الأسرى الذين يراقبون المشهد من وراء الأسوار الشائكة، وكان عادل يراهم يهتفون، لكنه لم يكن يسمع أصواتهم. وحين وصلتِ السيارة إلى نهاية السور الشائك، استدارت بسرعة، فشعر عادل بدوار وهو يكاد يصطدم بالرصيف المقابل للسور، وعادت السيارة إلى المكان الذي انطلقت منه، وقد فقد عادل وعيه قبل أن يصل مكان انطلاق السيارة، ولما رأى القائد الإيراني أنّ عادلاً في حالة إغماء، أمر بفك وثاقه، ثم أمر أحد الجنود بسكب الماء على وجهه، وهنا صحا عادل ليجد نفسه نائماً على العشب، والجنود متجمهرون حوله، والقائد الذي وعده عصر هذا اليوم بأن ينفذ مطالب الأسرى يضع قدمه على رأسه، فانتبه عادل إلى أن جسده مبلل بالماء، فعرف أنهم سكبوا عليه الماء لكي يفيق من الغيبوبة، وكان يسمع أصوات عواء الاحتقار من حشود الجنود، تمتزج مع صرخات الغضب التي يطلقها الأسرى من خلف الأسلاك الشائكة، وبينما كانت الأصوات

تمتزج مع بعضها، سمع عادل صوت سفينة من جهة الميناء، أشعره ببعض القوة، فحرك عادل رأسه بصعوبة، ونظر إلى القائد نظرة غضب، وقال بنغمة ساخرة: (شكراً على كرم الضيافة) وما إن أكمل عبارته، ونقلها المترجم للقائد، حتى انهال الجنود عليه بالهراوات، بعضهم يضرب وبعضهم يصعقه بالعصا الكهربائية، بعد ذلك أغمي عليه مرة ثانية. وقد تكررت هذه الحالة لأربع مرات، فهو يصحو ويتلفظ بكلمات إدانة، ثم يضربونه، فيغمى عليه. وكانت آخر عبارة قالها للقائد: (متأكد إنت قائد عسكري)؟! فغضب القائد وغادر وهو يقول: (يكْ ماه، سِي رُوز). عرف عادل بعد ذلك أن القائد أصدر أمراً بسجنه انفرادياً لمدة شهر بثلاثين يوماً.

توقف الجنود عن ضربه، لكنهم أوثقوا عينيه بعصابة سوداء، ووضعوه في السيارة التي سحلته قبل قليل، ثم تحركت السيارة عند الغروب، وعادل يجلس في المقعد الخلفي، وعلى جانبيه اثنان من الجنود. وحين عبرت السيارة الجسر الذي يفصل بين معسكر القوة البحرية ومركز المدينة، شمّ عادل رائحة الماء الممزوج بالعشب، وعرف أنهم يعبرون جسراً، فقال بصوت خفيض: (إحنه هسه على الجسر)، وهنا سأل الضابط المترجم الذي يجلس بجانب عادل عما قاله، فلما أجابه، ضحك الضابط، وضرب عادل بيده على رأسه برفق.

8

توقفت السيارة التي أقلّتْ عادل في وسط المدينة، وقاده الجنديان إلى داخل بناية مركز شرط بندر أنزلي، ثم ألقياه في غرفة صغيرة، وخرجا وهما يسمحان له أن يزيل العصابة السوداء من على عينيه.

وجد نفسه في غرفة مربعة الشكل بطول ثلاثة أمتار. كانت الجدران مطلية باللون الأصفر الباهت، وكانت إحدى غرفتين، يتوسطهما حمّام ومرافق، تحجزهما بوابة حديدية عن إدارة مركز الشرطة، وكان لكل غرفة باب خشبي يمكن غلقه وفتحه من قبل السجين.

عرف عادل فيما بعد أنه في مركز شرطة بندر أنزلي، وأن الإيرانيين لم يكونوا متهيئين لهذا النوع من الاحتجاز في معسكر بندر أنزلي؛ لذلك سجنوه في هذا المكان. كان عادل يتوقع أن يُسجن في مكان أسوء من هذا بكثير؛ لأن هذا المكان أفضل بكثير من المكان الذي ينام فيه في السرية الخامسة.

بعد أقل من عشر دقائق، شعر عادل أمين بتعب شديد؛ فنام على الأرض؛ لعدم وجود فراش أو غطاء أو وسادة، وصحا بعد أن أيقظه أحد أفراد الشرطة، فوجد مائدة فيها صحن كبير من الرز عليه نصف دجاجة مشوية، ونوع لا يعرفه من المقبلات، ورغيف خبز مستطيل الشكل. نظر عادل إلى الطعام، لكنه لم يمدَّ يده إليه؛ إذ شعر أن المشاعر القذرة تتسرب إلى الطعام؛ فيغدو مشوباً بالقذارة، ثم إنه مازال مضرباً عن الطعام؛ لأن الاتفاق مع القائد قد ألغي من جانبه؛ لذلك أدار رأسه إلى الجهة الثانية، وعاد إلى النوم وهو يضع يده على بطنه لكي يتخلص من ألم الجوع الذي يشعر به.

كان الألم ينتقل من مكان إلى آخر في بطنه، جعله ينسى آلام التعذيب الذي تعرض له قبل قليل، وينسى ألم كعب قدمه اليمنى، وكانت شدة الألم تزداد حين يصل موضع الألم إلى فم المعدة؛ ، إذ كان الألم في هذا الموضع يجعل عادلاً ينهض من الأرض، ويضع كلتا يديه على بطنه، ويزيد من ضغطهما على موضع الألم. وحين يشعر بأن الألم قد سكن قليلاً؛ بسبب ضغط يديه، يشعر بآلام أخرى في كل مكان من جسده؛ بسبب ما تعرض له من تعذيب على أيدي الجنود قبل قليل.

بعد مدة، ربما كانت نصف ساعة، دخل عليه الشرطي الذي قدم له الطعام، وأخذ الصينية بهدوء وخرج، وفجأة دخل عليه شابان،

وهاجماه بأيديهما. كان الشابان يمارسان لعبة الكراتيه على عادل، وقد آذياه كثيراً؛ إذ ضربوه على كل مكان من جسده، واستمر ضربهما له خمس دقائق ثم خرجا.

عندها قال عادل في نفسه: (لعل هذه عقوبة مقررة مسبقاً، فإذا كان القرار أن يعاقبوني بعد كل وجبة طعام أرفضها لمدة خمس دقائق فهذا شيء لا بأس فيه، على أن أصون كرامتي).

استمرت هذه العملية لمدة ثلاثة أيام أخرى؛ إذ ضُرب فيها عادل تسع مرات بعد كل وجبة طعام يرفضها، لكنه في المرة العاشرة، قرر أن يرد الضربات، فجرب أن يضرب أحد الجنود؛ فوجدهم لا يغضبون، ولا يزيدون العقوبة، إنما يكتفون بالحذر.

وفي المرة التالية، بدأ عادل والشابين يتقاتلون وكأنهم في مسابقة، لكن عادل لم يتمكن منهم بسبب ضعف جسده، فهو لم يتناول الطعام منذ أيام. بعد ذلك كان الشابان يحذران حينما يدخلان عليه؛ لأنهم يجدانه يقف في إحدى زوايا الغرفة؛ ليحمي نصف جسده، من قفزاتهم، فقد كان أحدهما يقفز وكأنه يطير، ويضرب بأقصى ما لديه من قوة، وكان عادل يتجنب هذا النوع من الضربات.

كانت أحذية الشابين تترك آثاراً واضحة على حائط الزنزانة الأصفر، وكان عادل يشعر بالانتصار والفخر بسبب تفاديه تلك الضربات القاتلة.

في الليل، كان عادل يسمع قرقرات بطنه، يرافقها ألم كان يزعجه في البداية، لكنه تحول إلى ألم لذيذ، وقد بدأ يشتاق إليه عندما يغادره. لاحظ أن التعذيب الذي يتعرض له من قبل الشرطيين يهيمن على ألم الجوع، وأن ألم الجوع يخفف من أثر اللكمات على جسده، لكن الغريب، أن الألم قد تحول إلى متعة، كان يشعر بالألم وهو لا يرجو أن يغادره. في ذلك الوقت فهمَ عادل ما يقصده الشنفرى في لوحة الجوع، ففكر في أن يكتب البيت الأول من هذه اللوحة على جدار الزنزانة بمسمار، ففعل، وكان كلما نظر إلى بيت الشنفرى:

أديمُ مطالَ الجـــــوعِ حتى أميتَه وأضربُ عنه الذكرَ صفحا فأُذهل

يجد نفسه أكثر تحدّياً للجوع وأن طبيعته الإنسانية تتغير.

جلس عارف خليل على فراشه واضعاً كلتا يده على رأسه، يتفكر في ما فعله، محاولاً إيجاد تبريرات منطقية لرأيه، وكان عبد النبي يؤنبه، ويخبره بأنه هو السبب فيما تعرض إليه عادل؛ إذ كان

ينبغي أن يكون هو من يتعرض إلى ما تعرض إليه عادل، وكان رأي عبد النبي يثير في نفس عارف ألماً يحاول التخلص منه بطريقة ما.

شعرَ عارف أنه قد أذنب بحق صديقه؛ إذ كان ينبغي أن يقوم هو ويحدث القائد الإيراني بدلاً عن عادل؛ لأنه هو الذي اقترح فكرة الإضراب، وأنه لم يتمكن من مقاومة الجوع، إذ أنهيَ الإضراب بموافقته في اليوم الثاني.

مضت خمسة أيام على عارف وهو يفكر في طريقة تُلحقه بصديقه عادل، فكان، خلال هذه المدة، يتحرش بالجنود الإيرانيين؛ لكي يلحق بعادل، لكن الإيرانيين كانوا يكتفون بتوبيخه فقط؛ لذلك قرر أن يفاقم الوضع مع الجنود، ففي التعداد الصباحي، خرج عارف من الصف، وانهال ضرباً على أحد الجنود؛ وهو الأمر الذي دعا الجنود الآخرين لأنْ يعاقبوا عارفاً بالضرب، فتدخل اثنان من الأسرى، وبدأت معركة ضرب بالأيادي والأرجل، ولكي يتفادى الجنود اشتراك عدد كبير من الأسرى، خرجوا من السرية الخامسة مهرولين. وبعد مضي دقائق، وصلتْ مجموعة من قوات مكافحة الشغب، ووقفوا حول السور الشائك، وفي تلك اللحظة خرج عارف إلى بوابة السرية، وسلم نفسه لمسؤول هذه القوة.

وصل عارف إلى عادل، فتعانقا قليلاً وبكيا كثيراً، وكان عارف يعتذر لعادل عمّا أصابه بسببه، وأخبره بما فعل لكي يصل إليه، ويتحمل جزءاً من معاناته. وعلى الرغم من أن عادلاً قد تفاجأ بأنّ الأسرى قد تراجعوا عن إضرابهم في اليوم الثاني، إلا أنه شعر بشيء من الإرتياح، فألم الجوع والتعذيب المستمرين لخمسة أيام جعلاه يفقد إنسانيته.

كان عارف يتكلم كثيراً عما حصل في السرية بغياب عادل، في حين اكتفى عادل بالاستماع، ولم يذكر لعارف ما حصل له خلال هذه الأيام الخمسة.

بعد الساعة الثانية عشرة ظهراً، جاء الشرطي المسؤول عن الطعام، ووضع الصينية التي تضم الرز والدجاج والمقبلات لفردين، فحاول عادل تناول الطعام؛ إذ اقتنع بأنه سينهي الإضرب، لكنه لم يتمكن من تناوله، فأكل ملعقتين من الرز وقطعة لحم دجاج صغيرة، وكان يمضغ اللقمة وهو ينظر إلى بيت الشنفرى ويعتذر منه، ثم غير شكل الطعام؛ ليوحي بأنه تناول كثيراً منه، في حين كان عارف مشغولاً بتناول غداءه وهو يتأمل ما يفعله عادل، لكنه توقف عن تناول الطعام فجأة، وعانق صديقه وهو يبكي، إذ عرف أنّ عادلاً لم يذق الطعام منذ خمسة أيام، وظل الصديقان يبكيان لمدة، بعدها حاول

عارف إطعام عادل بيده لقمة أو لقمتين، فقبلهما عادل مجاملة لصديقه وهو يبكي.

بعد ربع ساعة، دخل الشرطي مبتسماً ببراءة وأخذ الصينية، وبعد مرور دقيقة، دخل الشرطيان اللذان يلعبان الكراتيه مع عادل، فنهض عادل من فوره، ووقف في الزاوية، لكنهما بدآ يضحكان، ويتحدثان بالفارسية بهدوء، واقترب أحدهما منه بحذر وصافحه، فعرف أنه يعتذر عمّا فعله، وكذلك فعل الآخر، وخرجا وهما يلوّحان بأيديهما. استغرب عارف من هذا المشهد، فأخبره عادل عما كانا يفعلان، ثم جاء شرطي يحمل فراشين وبطانيتين ووسادتين ونعالين.

في إحدى ليالي الزنزانة، سمع عادل عارفاً وهو يتحدث مع شرطي بهمس، ثم جاء وفي يده موس حلاقة، وبكرة خيط أبيض، فاستغرب عادل للأمر؛ إذ كيف تمكن من إقناع الشرطي بأن يسرب له هذه المواد الممنوعة، فأشار بسبابته إلى رأسه وقال: (دا مخ، مش فردة جزمة). فضحك عادل ضحكة أوجعت فكّه. كان عارف سريع النكتة، ويحفظ طرائف كثيرة خففت عن عادل الأجواء القاسية التي كان يعيشها، وقد روى له طرفة جعلته يقع من الضحك؛ وهو الأمر الذي أدى إلى أن يهددهما ضابط الشرطة بأنه سيعاقبهما إذا ما علتْ أصواتهما بالضحك في الليل.

اقترح عارف أن يصنع سروالين من قماشة الفراش، فقام عادل بتفصيل بجامتين بواسطة موس الحلاقة، وتشاركا بخياطتهما، ولبساهما بعد ساعتين، وحينما رآهم الضابط ابتسم، واستبدل اسفنج الفراشين بفراشين مغلفين بقماش بنفسجي، وحذرهما من أن يعبثا بالفراشين بعد ذلك؛ إذ كان ضابط المركز ودوداً مع عادل، وهو الأمر الذي جعل عادلاً يظن أن الضابط معارض للنظام الإسلامي؛ ولذلك هو يحترم موقف الأسرى عندما أضربوا عن الطعام، لكنه كان يؤدي الحد الأدنى من واجبه.

فكر عادل أن يطرز شكل لعبة الطاولي على قماشة الفراش، وحين أكملها، فكر الصديقان بطريقة لصناعة نردين؛ لكي يمارسا هذه اللعبة الممنوعة، ففتشا في الزنزانة عن مادة يصنعان منها نردين، فلم يجدا سوى (تربة صلاة)، كانت موضوعة في نافذة الزنزانة الصغيرة العالية، فعجنها عادل، وحوّل شكلها إلى مكعبين، وثقّبهما، ووضع في الثقوب قليلاً من الصابون الجاف، فأصبح لدى الصديقين نردان كبيران، اهتم عادل بتساوي أضلاعهما، ولما جف النردان، اقترح عارف أن يحصلا على تربتي صلاة لجعلهما نروداً احتياطية.

كان الصديقان يسهران ليلياً وهما يلعبان لعبة الطاولي التي يمكن إخفاؤها بسهولة، أي بمجرد وضع البطانية على الفراش، وإذا كان التفتيش دقيقاً فهما يقلبان الفراش فقط.

في إحدى الصباحات، أدخل أحد أفراد الشرطة سجينا إلى الغرفة الثانية المقابلة لغرفة عادل وعارف، وقد ظل عارف لساعات يتأمل السجين الجديد بين حين وآخر، وعندما حل الليل، قرر عارف أن يتسلل الى الغرفة الثانية، فحذّره عادل، لكنه أصرّ على معرفة السجين الجديد، فخرج في البداية إلى الحمام الذي يتوسط الغرفتين، ويقابل البوابة الحديدية الرئيسة، وبعد أن خرج من الحمام استدار إلى الغرفة الثانية، وفاجأ السجين بقدومه، فقام السجين من فوره مذهولاً، لكنه أدرك بعد لحظة، أن الزائر هو سجين الغرفة الثانية؛ لذلك أشار إلى عارف أن يجلس، فعرف عارف أنه إيراني فارسيّ، وعرف السجين الإيراني أنّ عارفاً أسير حرب.

قدم السجين لعارف سيجارة، فقطعها عارف إلى نصفين، وضع نصفاً في جيبه ودخن نصفاً، فاستغرب السجين الإيراني ما رآه؛ لذلك أعطاها علبته ومعها علبة كبريت، فحاول عارف عدم أخذهما، لكن السجين أصر على ذلك، بعدها أعطاه علبة عصير، وأعطاه علبة ثانية لعادل، وبينما هما صامتان، رأى عارف جهاز راديو موضوعاً

على مقربة من السجين، وانتبه السجين إلى عارف وهو ينظر إلى الراديو، وانتبه عارف إلى السجين وهو ينظر إليه، فمد السجين يده إلى الراديو وهو يزم شفتيه، وقدمه لعارف، فنهض عارف من فوره، وعاد إلى غرفته وهو يشير للسجين بيديه بأنه سيعيد الراديو في الصباح، بطريقة لا يعرف عارف هل فهمها السجين أم لا، لكن السجين كان مبتسماً ببراءة.

كان عادل وعارف يعرفان جيداً أن التدخين ممنوع في الزنزانة، وأن الراديو من أشد الممنوعات في الأسر، والحصول عليه يكلف أثماناً بالغة، ويؤدي إلى عقوبة بالغة أيضاً، وقد سمعا ذات يوم أن اسيراً في السرية الخامسة حصل على راديو صغير من جندي عربستاني بثمن خيالي، وهو أربع حلقات من الذهب، وساعتين يدويتين؛ إذ كانت حلقة الذهب والساعة اليدوية هما الشيئين الوحيدين اللذين سمح ببقائهما الإيرانيون مع الأسرى حينما استولوا على مستمسكاتهم الشخصية، ونقودهم في بداية الأسر.

دخل عارف على عادل وهو يلوّح بجهاز الراديو، ففتح عادل عينيه إلى أقصى ما يمكن وهو يردد بهمس: (راديو، راديو)! فابتسم عارف مفتخراً، فجلس على فراش عادل وأخرج نصف السيجارة الذي

في جيبه ووضعه في العلبة، ثم أخرج سيجارة كاملة ودخنها، في حين كان عادل يحاول تشتيت الدخان بيديه.

بعد أن دخن عارف سيجارته تظاهر الصديقان أنهما نائمان ووضعا جهاز الراديو بينهما، وظلا يستمعان للأخبار العربية لغاية صباح اليوم التالي، لكنهما صُدما صدمة كبيرة عند سماعهما الأخبار؛ إذ لم يسمعا أي خبر من أية دولة، بما فيها العراق، يذكر الأسرى، فقد تعود الصديقان أن يسمعا أخباراً حول تبادل الأسرى، فالأمم المتحدة تطالب بعودة الأسرى، والعراق يعرض على الإيرانيين عشرة أسرى مقابل كل أسير عراقي، وأن الرئيس العراقي قال: (إن الأسرى إخواني). فهل من المعقول أن يسهرا حتى الصباح يقلبان المحطات، ولا يوجد أي خبر عن الأسرى، عندها عرفا أن تلك الأخبار محض إشاعات كاذبة، وربما مغرضة، فبدأ الصديقان يتحاوران حول مصدر تلك الإشاعات، أكانت من قبل الجانب الإيراني؟ أم من قبل الأسرى العراقيين؟ وعلى الرغم من أن حوارهما لم يؤد إلى نتيجة، لكنما استمرا بالحوار حول الإشاعات وأثرها في اليوم التالي أيضاً.

كان أغلب الأسرى في معسكر بندر أنزلي يهتمون بالإشاعات، وينمونها، وكان على رأس تلك الإشاعات إشاعة العودة إلى العراق، فلا يمر يوم، إلا وهناك إشاعة تقول إن الحرب انتهت،

وإن تبادل الأسرى قد تم بالفعل، ولم يكتف مؤلفو الإشاعات بإشاعة أخبار عودة الأسرى، بل يؤكدون أنّ الحكومة العراقية قد وهبت لكل أسير بيتاً فخماً، وسيارة من أحدث الموديلات، وكان الأسرى يتحدثون فيما بينهم عن استثمارهم للأموال التي سيحصلون عليها عند عودتهم، وكان عارف يعمل على تطوير معمله الذي أنشأه والده في حي جميلة، في حين اشترى عبد النبي مزرعة كبيرة وبنى فيها مسبحاً كبيراً وحقول دواجن، وقرر عادل أن يبيع البيت ويشتري شاحنة كبيرة ينقل بواسطتها البضائع إلى لبنان أو تركيا أو سوريا، وأنه سيجعل تلك الشاحنة بيته الدائم.

كانت تلك الإشاعات تنمو بشكل سريع، ففي اليوم الثاني للإشاعة يتم تبادل 3000 أسير، ثم يزيد العدد في اليوم الثالث، فتتفاقم الإشاعة إلى أنَّ تصل ذروتها، وهي أن أسرى بندر أنزلي سيعودون إلى العراق في اليوم التالي، وفي ذروة الإشاعة هذه يفاجئ الإيرانيون الأسرى في الإعلان عن هجوم على الجبهات من قبلهم، أو من قبل الجيش العراقي؛ فينتهي حلم الأسرى بالعودة، ويُمسون أكثر تشاؤماً من الأيام التي مرت قبل الإشاعة.

لقد تكرر هذا النوع من الإشاعات لمرات عدة في الأشهر الأولى من الأسر، وكان عارف يستمتع بالإشاعات، ويدعي أن

الاستمتاع بالرحلة أفضل من الوصول إلى هدفها، وأن تسلق الجبل أكثر إمتاعاً من الوصول إلى القمة، في حين ترتسم على محيا عادل نصف ابتسامة ساخرة وهو يستمع لعارف، وغالباً ما كان يقول لعارف أنه يجب أن لا يفكر إلا بيومه الذي يعيشه، في حين يردد عبد النبي مقطعاً شعرياً بعد كل حوار من هذا النوع: (يا صديقي، نعشق الأسماء، سمينا التشظي في دروب العمر رِحلة).

في صبيحة اليوم التالي، استيقظ عارف مبكراً على أنغام أغنية (ورقو الأصفر) بصوت فيلمون وهبي، فسارع إلى خفض صوت الراديو، ثم أعاده لزميله السجين الإيراني الذي خرج في اليوم نفسه، لكنه عاد زائراً بعد ساعتين، وأهداهما علبتي سجائر و(ساهون) وكعك، وهو يردد من خلف البوابة المشبكة (تو صديك).

كان عارف كثيراً ما يفكر بالهرب من الزنزانة، ويدعي أنّ وجودهما هنا فرصة كبيرة للهرب، فهما في وسط المدينة، ويمكنهما أن يختبئا بباخرة روسية بعد أن يعلما الروس بأنهما أسيران، ولأن علاقة روسيا مع العراق قوية جداً؛ فإنهم لن يسلموهما إلى الإيرانيين؛ لذلك كان يحاول الحصول على قطعة، ولو صغيرة، من منشار حديدي؛ ليقطع بها قضبان نافذة الزنزانة، لكنّ عادلاً لم يكن يؤيد فكرته لشعوره باستحالتها.

في مساء السادس من أيلول طلب ضابط المركز حضور عادل إلى مكتبه، وأجلسه على كرسي مقابل جهاز التلفزيون، وسمح له أن يشاهد وقائع جلسات القمة العربية الإستثنائية الثانية في فاس، تحديداً اللقطة التي يدخل فيها الرئيس العراقي إلى قاعة الإجتماع، وقيام الرؤساء العرب له.

شعر عادل أن الضابط يفخر أكثر منه بهذه اللقطة، وكأنّ صدام حسين رئيسه هو، وهو الأمر الذي عزز رأيه بأن هذا الضابط معارض للنظام الإسلامي، ويؤيد العراق بالدعوة لوقف إطلاق النار بين البلدين المتحاربين منذ سنتين.

كان عادل يترقب البيان الختامي للقمة أكثر من اهتمامه بالصور المعروضة على التلفزيون، لكن البيان كان مخيباً لآماله؛ إذ تمحور حول الصراع العربي الإسرائيلي، والصراع الصومالي الأثيوبي، مع دعوة لطرفيّ الحرب العراقية الإيرانية للإلتزام بقرارات مجلس الأمن، فلم يكن هناك حديث عن الأسرى، وهنا تأكد لعادل كذب الإشاعات التي تداولها الأسرى قبل الإضراب في أن هذه القمة ستتمحور حول تبادل الأسرى.

في الخامس عشر من أيلول استقبل الأسرى في السرية الخامسة عادلاً وعارفاً بإحتفالية لم يكن يتوقعها عادل، وعدّه كثير من الأسرى المحتفلين بخروجه من الإحتجاز بطلاً، وبدأ عبد النبي يروي ما حدث له من وجهة نظره، ثم روى له الموقف الذي مر به في أثناء غيبوبته، وكيف سقط سرواله عندما كان الإيرانيون يسحلونه بالسيارة وهو في حالة غيبوبة، وظل عبد النبي ليومين وهو يروي حكاية الإضراب، وما حصل لعادل، حتى أن بعض الروايات بدت مبالغاً فيها؛ إذ أنه سَجّل هذا الإضراب باسم عادل.

بعد يومين جاء عبد النبي بخبر مفاده أن الإيرانيين ينوون تعيين عادل آمراً عراقياً للسرية الخامسة، وقد فرح عبد النبي بهذا الخبر، لكن عارفاً رفض الفكرة، وقال عنها إنها خطوة باتجاه الإنهيار. وفي اليوم الثالث صدر أمر من الإيرانيين أن يكون عادل مسؤولاً عن توزيع الطعام، فقد طلب منه ذلك ضابط إيراني، وقد كلفه بهذه المهمة بوصفها أحد مطالب الأسرى في الإضراب، فوافق عادل على ذلك على الرغم من رفض عارف لهذه المهمة.

قبل أن يقوم عادل بتوزيع الطعام، طلب من الفصائل أن تأتي تباعاً، وكلف عبد النبي بمراقبة سير طابور الأسرى، وطلب من عارف ذلك فوافق على مضض، وكان على كل أسير أن يدخل إلى

القاعة بعد أن يستلم حصته، بعد ذلك قام بتوزيع وجبة الغداء من دون أن يترك أسيراً بلا طعام، علماً أن كمية الرز الكليّة كانت نفسها، وحصة الفرد نفسها، فتساءل عادل مع نفسه: (لماذا كانت هذه الكمية لا تكفينا؟ وأين كان يذهب ربع طعامنا)؟ لكن الأمر قد اتضح لعادل، وهو أن هناك مئة أسير يستلمون حصتين في كل وجبة طعام، علماً أن هذا لا يعني أن حصة الأسير كانت كافية، فهي مازالت مغرفة رز حاف لا تزيد على ست ملاعق.

لم يستمر عمل عادل بتوزيع الطعام سوى يومين، إذ سُجنَ في زنزانة جماعية مع مجموعة من الأسرى، اختارها الإيرانيون من كل السرايا الخمس، وكان عارف وعبد النبي من المختارين أيضاً. إذ قام الإيرانيون بحجز قاعة مربعة الشكل في السرية الرابعة، لا يزيد طول ضلعها على ثمانية أمتار، ثم أغلقوا شبابيكها كلياً، وبنوا في الممر المجاور للقاعة حماماً ومرافقاً، وألحقوهما بالقاعة، ووضعوا فيها السجناء. كانت الأسرّة من طابقين، وكان المسجونون بحدود ستين أسيراً، كلهم شاركوا في الإضراب أو دعموه، وأبلغ الإيرانيون السجناء أنهم سيخرجونهم في كل يوم جمعة ليتمشوا لمدة ساعة في الشمس، ثم يعيدونهم إلى الزنزانة الجماعية، وأن احتجازهم سيستمر إلى وقت غير معلوم.

حين جاء دور عادل أمين للدخول إلى الزنزانة الجماعية، شعر أنه في نزهة بالمقارنة مع الزنزانة التي كان فيها في مركز شرطة بندر أنزلي، وكذلك شعر عارف، أما عبد النبي فكان يعد هذا الاحتجاز تجربة قاسية، لكنه تمكن من استيعاب قسوتها بسبب وجود رفيقيه معه، فضلاً عن أنه أفاد من السجناء الآخرين؛ إذ كان جلّ السجناء من المثقفين والمتعلمين، ففيهم المدرس والمحامي وإمام الجماعة والرياضي والمثقف الأممي والراديكالي.

بعد أيام، زار الزنزانة الجماعية رجل معمم، فألقى على المحتجزين محاضرة دينية، حثهم فيها على الهدوء، وترك مشاكسة الدولة الإسلامية، فسأله عارف أسئلة ساخرة حول الصلاة على القمر، أو في كوكب آخر، والصيام في القطب الشمالي، فأخبره المعمم أنه سيجيب على أسئلته في المحاضرة القادمة، فقال له عارف: (وهل هناك محاضرة قادمة)؟ وهنا ابتسم رجل الدين ابتسامة صفراء، ووصف عادل بالمشاكس، ثم سأله: (ماذا تريد وتترك شيطنتك هذه)؟ فأجاب عارف ساخراً : (آني مو شيطان، آني أسأل فقط)، وعندما جاء في المحاضرة الثانية جلب معه قصصاً لبنت الهدى، وأحمد علي باكثير، وأهداها لعارف فرفضها، فتدخل عادل، وطلب القصص من

المعمم، وطلب منه كتاب شرح قطر الندى لابن هشام، فجاء به في المحاضرة الثالثة، لكنه طلب من عادل إعادة هذه الكتب لاحقاً.

كان عادل يصوم عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بين حين وآخر، إلى أن قرأ القصص كلها، وكان عارف غالباً ما يحاول جعل عادل يتكلم بتوجيه أسئلة مفاجئة له. وعلى الرغم من ذلك كان عادل يصمد أمام تلك الأسئلة ولا يتكلم إلا بعد انقضاء الأيام الثلاثة.

بمرور الوقت بدأ عبد النبي يصوم عن الكلام لمدة ثلاثة أيام أيضاً، ثم تبعه عارف، وكانا يستثمران مدة الصيام عن الكلام للقراءة.

وجد عادل أن الصوم عن الكلام أكثر صعوبة من الصوم عن الطعام؛ لأنه يشعر بحاجة إلى الكلام في ظروف ينبغي أن يتكلم فيها، لكنه وجد أيضاً أن ترك الكلام أفضل منه، فأحياناً يكون الصمت أبلغ من العبارة، وكان عادل يستثمر الصوم عن الكلام للتفكير بحاله، وذات تفكير، وجد أنه يتعرض لأزمات، ويُلقى في سجون انفرادية عادة؛ وأنه يفقد التواصل مع الخارج؛ لذلك فكر في ابتداع لغة سرية يتواصل من خلالها مع عارف وعبد النبي، فعمل على صناعة لغة جديدة مستوحاة من رسم الحروف العربية، وهي أن يتلاعب بنقاط الحروف العربية، فعلى سبيل المثال: يلفظ الحرف المنقوط بلا نقاط والعكس صحيح، مثل

لفظ الباء نونا والنون باء وكذلك لفظ السين شينا والشين سينا. أما الأحرف التي ليس لها شبيه كتابي، فإنه يبادلها بأقرب شبيه لها، مثل أن يلفظ اللام كافاً والميم هاءً، وقد صنع دائرة لأحرف العلة؛ ليبادلها ببعضها، فيلفظ الألف واواً، والواو ياءً، والياء ألفاً؛ ليحافظ على نغمة الكلمة، وجعل الحاء ثاءً، وترك الهمزة كما هي. ولكي يتعود على هذه اللغة؛ بدأ باستعمالها كلعبة، أو أنه يتسابق مع عارف وعبد النبي حول أيهم يترجم الجملة المطروحة أولاً.

بمرور الوقت، أصبحت هذه اللغة شائعة بين الأسرى المحتجزين في الزنزانة الجماعية، فكانوا غالباً ما يقولون: (ضَنوث وَكّجاز) ويقصدون (صباح الخير).

على الرغم من أن الاحتجاز كان يصيب عادلاً أحياناً بالكآبة، إلا أنه غالباً ما يحاول تجاوز ذلك بالقراءة، أو بابتداع أشياء تخلصه من الشعور بالعزلة المكانية، وكانت تجربة عادل وعارف في زنزانة مركز شرطة بندر أنزلي قد جعلت الزنزانة الجماعية أخف وطأة عليهما، إلا أن ذلك الشعور قد ازداد عند عبد النبي، وهو الأمر الذي جعل عادلاً يطلب من عارف أن يحاول التخفيف عن عبد النبي؛ فكانا يجلسان على فراشه بوصفهما ضيفين ويبدآن بالتدرب على استعمال لغتهم الجديدة، أو أنهما يرويان له طرائف وأحجيات وقصصاً قصيرة،

محاولين التخفيف عنه؛ ليتجاوز ألم الاحتجاز، وبمرور الوقت بدأ عبد النبي يروي القصص التي يسمعها.

في إحدى الليالي شعر عادل بملل، وأحس بأنه سيختنق، فقال في نفسه: (ما هذا؟ هل بدأت أضعف أم ماذا؟ فنزل من سريره وتوجه نحو الحمام، وفتح الماء على رأسه وبدأ يدلكه بقوة، ثم خرج من الحمام وجلس القرفصاء في الممر الفاصل بين الزنزانة والحمام، ثم جلس على الأرض واتكأ على الجدار ومد رجليه. شعر أن الجلوس في الممر المؤدي إلى الحمام يجعله أقل كئابة؛ لأن الإضاءة في هذا المكان كانت أقوى بكثير من الإضاءة المعتمة في قاعة النوم؛ وأن مفرغات الهواء في الحمامات تجعل الهواء يمر من ثقوب النوافذ الصغيرة، وهو الأمر الذي يجعل الهواء منعشاً.

بعد دقائق تفقد عبد النبي صديقه، فخرج إلى الممر، ووجد عادلاً متكئاً على الجدار ومادّاً رجليه، وعيناه مغمضتان، وهنا توقع عبد النبي أن صديقه مغمى عليه، فوضع كفه على جبين عادل ليجس حرارته، ففتح عادل عينيه، وقال: (ماكو شي، بس ضجت شويه).

بعد ذلك كان كثير من المحتجزين يخرجون إلى الممر؛ ليتحدثوا بأمور شتى، وفي أحد الأيام كانوا يتذاكرون مسرحية (شاهد مَ

شافش حاجة)، فكانوا يضحكون بطريقة طفولية عند رواية أحدهم لأحدى جمل عادل إمام، وكان صوت عارف يعلو كثيراً عندما يضحك، وهو يدغدع عبد النبي؛ لكي يضحك معه، فيضحك عادل على حركة عارف، فتعلو أصواتهم كثيراً، وهو الأمر الذي يجعل المحتجزين الآخرين يتوافدون إلى الممر.

في يوم ما، وبينما كانت الأصوات تعلو بالضحك، فُتح باب الزنزانة فجأة، ودخل الجنود، فتوقف المحتجزون عن الكلام، فقال لهم المترجم العربستاني بصوت مرتفع يشوبه بعض الغضب: (انتو چنتو تسبون الإمام وتضحكون)، عند ذلك، أخذهم إلى مكتب الضابط الإيراني، فعاقبهم الضابط بأن يزحفوا على العشب خارج الزنزانة.

لم يتضجر عادل من الزحف على العشب، وكذلك عارف؛ إذ هما يزحفان على العشب تحت ضوء الشمس، في حين كان عبد النبي يزحف بصمت وهو يتذمر ويردد: (الضحك ما يلوك النه). حاول عادل إقناع عبد النبي أنهم قد حصلوا على نزهة خارج الزنزانة، وقد بدا على عبد النبي أنه اقتنع بإمكانية تسمية العقوبة نزهة.

وبعد أن انتهت مدة العقوبة، آمرهم الضابط أن يدخلوا الزنزانة، فترجاه عارف أن يتركه يزحف مدعياً أنه لم يتأدب لحد الآن.

فضحك الضابط وسأل عادل عن سبب ضحكه في ممر الزنزانة، فتمكن من إقناعه بأنهم كانوا يتذاكرون مسرحية لممثل كوميدي عربي يتفق اسم أبيه مع لقب القائد الإيراني.

عندما عاد الأسرى المعاقبون إلى الزنزانة، شعروا باختناق من شدة الرائحة الكريهة في قاعة نومهم، فخرجوا إلى الممر؛ ليتنفسوا هواءً أقل رائحة، وقد وضع عارف أنفه قرب أحد الثقوب الصغيرة في النافذة المطلة على ساحة السرية الرابعة؛ ليتنفس هواءً طبيعياً، وهو الأمر الذي شجع الآخرين على البحث عن ثقوب أكثر اتساعا.

في الأيام الأخيرة من شهر كانون الأول عام 1982، جاء الجنود الإيرانيون ومعهم قائمة تضمّ عشرة أسماء، منهم الأصدقاء الثلاثة، وأخذوهم موثوقين إلى قاعات خالية من الأسرّة في السرية الخامسة، فوضعوا عادلاً وعارفاً وعبد النبي في قاعة خالية من الأسرة والفراش. كان كل واحد منهم في زاوية من زوايا القاعة بلا فراش، ويده موثوقة من الأمام، وقد كمم الجنود أفواههم بلاصق، وأمروهم أن يجلسوا ووجوههم إلى زوايا القاعة.

في وقت الغداء دخل أحد الجنود ورفع اللاصق عن أفواههم، ثم دفع لكل واحد منهم صحناً من الألمنيوم فيه مغرفة رز، وأخبرهم أنه سيكممهم بعد خمس دقائق، ثم جلس عند الباب ينتظر إكمالهم غداءهم.

وبينما هم يتناولون غداءهم بايديهم، أخبرهم الجندي: أن محكمة إيرانية أصدرت أمراً بعقابهم، وعندما سأله عبد النبي عن نوع العقوبة، قام الجندي وأخذ صحون الرز، وكمم أفواههم، وأمرهم أن يستديروا باتجاه زوايا القاعة، ثم خرج وأغلق الباب.

في الساعة الثامنة ليلاً، عصب الجنود أعينهم، وأطفؤوا مصابيح القاعة، وأمروهم أن يناموا ووجوههم إلى الجدران.

ظل عادل لساعتين يرتجف في نومه من البرد القارص، فكأن أرضية القاعة قطعة من الجليد، وكان ارتجافه يتناغم مع ارتجاف صديقيه، ففكر باكتشاف الطريقة الأمثل للتخلص من البرد، وهي أن يرتجف بقوة، ويطلق صوتاً مكتوماً.

عند منتصف الليل، تمكن عادل من تحرير فمه من اللاصق، ثم أنزل عصابة عينه قليلاً، لكنه لم ير شيئاً؛ إذ كانت نوافذ القاعة مطلية باللون الأسود.

تحسس عادل جدار القاعة، واستعان به للوصول إلى عارف بهدوء تام، وحين وصله، نكزه بطرف سبابته وهو يردد بهمس: (عارف عارف)، فجاءت نكزته على رأس عارف، ففزّ عارف وبدأ يتمتم: (هم. هم)، فأخبره عادل بهمس: (آني عادل.. آني عادل)، عند ذلك انتبه عارف إلى أنه يستطيع رفع الكمامة عن فمه، ففعل ذلك بحذر؛ خشية أن يجرح فمه وهو يرتجف.

مسك عادل كفي عارف بكلتا يديه، ووضع جبينه على جبينه، وساله عن نوع العقوبة التي يتوقعها، فأجاب عارف بهمس: (يعني العقوبة أكثر من الي إحنا فيه هَسّه)؟ فتمنى عادل أن يكون كلام صديقه صائباً.

اتفق الصديقان أن يتوجها معا إلى عبد النبي، فذهبا وهما يلمسان الجدار إلى الزاولة التي ينام عندها عادل؛ ليتوجها منها إلى الزاوية التي ينام فيها عبد النبي. لكنهما تفاجآ حينما وجدا عبد النبي في الزاوية التي ينام فيها عادل، وذلك حينما ارتطم رأس عادل برأسه.

قبل أن يُحدث عبد النبي أية ضجة، طلب منه عادل أن يرفع كمامته، ففعل ذلك بهدوء، وما إن رفعها حتى أخبرهما أنه كان يسمع همسهما، وحاول الاقتراب منهما.

جلس الأصدقاء الثلاثة قبالة بعض متشابكي الكفوف، ومتلامسي الرؤوس، لساعات وهم يتهامسون، ويقترحون أنواعاً من العقوبات التي سيواجهونها، وعندما لاح الفجر، عاد كل منهما إلى مكانه، وعصبوا أعينهم، وكمموا أفواههم، وادعوا أنهم نائمون.

في اليوم التالي، أحضر الجنود سريراً حديدياً بلا فراش؛ ليجلدوهم عليه، فربطوا عبد النبي على السرير، وجلدوه خمسين جلدة، ثم طلبوا منه أن يقول: (دخيل الإمام)؛ ليفرجوا عنه، فقال ذلك بلا تردد، في حين لم يقل عارف ذلك، إلا بعد أن أتموا تسعين جلدة، وعندما جاء دور عادل، ربطوه بحبال من أربع جهات، ووجهه إلى الأسفل، ثم قرأ جندي عربستاني حكماً بجلده مئة جلدة. كان يقف حول السرير أربعة من الجنود يحملون أسواطاً سميكة، وكانوا يضربونه معاً، ويعدّون كل أربع جلدات جلدة واحدة، والجندي العربساني يعد الجلدات، وهم يتضاحكون، ولما وصل إلى الرقم 50، كانوا قد ضربوه مئتي جلدة، فتوقفوا قليلاً ثم طلبوا منه أن يترجى القائد الإيراني لكي يتركوه، لكنه لم يفعل؛ فضربوه عشر جلدات جماعية، وطلبوا منه أن يترجى أحد الأئمة المعصومين، فلم يفعل، ثم بعد عشرات من الجلدات، طلبوا منه أن يترجى صدام حسين، لكنه لم يستجب لطلبهم.

لم يعد عادل يشعر بالجلد، ولم يعد يسمع أصوات الجنود. كان ينظر إلى الجنود وكأنهم يتحدثون خلف زجاجة عازلة للصوت، ويرى أيديهم وهي تتشابك على ظهره، وأفواههم مفتوحة من الضحك.

حين أكملوا أربعمئة جلدة، فكوا وثاقه، وطلبوا منه أن يخرج؛ فقام من السرير بصعوبة، لا يعرف إلى أين يتوجه، ولما وصل باب القاعة، وجد صفين من الجنود على جانبي الممر، يحملون هراوات، فركض بينهم وهم يضربونه بالهراوات، كان يحاول الركض بخط مستقيم، لكنه شعر أنه يفقد توازنه، فسقط في منتصف الطريق، فانهال عليه الجنود بالضرب، عند ذلك نهض بصعوبه، وبدأ يزحف على يديه ورجليه، إلى أن وصل إلى السلم الذي يؤدي إلى الطابق الأرضي، فنزل السلم زحفاً، إلى أن وصل الطابق الإرضي، وهناك أخذه جنديان وأعاداه إلى الزنزانة الجماعية.

كانت آثار السياط الأربع مئة محفورة في أغلب مناطق جسمه، بعضها سطحي وبعضها عميق، وأكثر ما كان يؤلمه، هو السياط التي سقطت على أماكن الشظايا التي تغطي جزءاً من ظهره.

مرت أثار السياط على جسد عادل بمراحل: مرحلة اللون الأحمر المؤلم، ومرحلة اللون البنفسجي الأكثر إيلاماً ولا سيما في

الليل، ومرحلة اللون الأسود الذي ينحت الأثر بوضوح. جعلته مرحلة اللون البنفسجي يعيد تحليل قصيدة البنفسج لمظفر النواب، فادعى معرفة قصد الشاعر في قوله: (يا طَعَمْ، يَ لِيله من لِيل البنفسجْ)؛ فعلى الرغم من الألم، إلا أنَّ هناك لذة ترافقه، هي لذة الصمود.

في الأول من كانون الثاني سنة 1983، حضر الرجل المعمم إلى الزنزانة الجماعية وهو متبسم؛ فاستبشر الأسرى خيراً، فسلم وجلس على كرسي هيأه له أحد الجنود في باب الزنزانة الداخلي، ثم تنحنح، وبسمل، وقرأ: (اقتربت الساعة وانشق القمر)، ثم حمدل ودعا لأمة الإسلام بخير، ثم خصّ أهل البيت بالدعاء. بعد ذلك قال وهو يرتب عباءته بإزاحتها على كتفه وهو مبتسم: (هاي آخر مرة أشوفكم بيها هنا)، فسأله عارف عن سبب ذلك؛ وهل سينتقل إلى معسكر آخر للأسرى، فرد عليه المعمم وهو متبسم: (لا، وانت الصادق، أنتم الي راح تنتقلون لمعسكر ثاني). وما هي إلا دقائق حتى أحضر الجنود قرابة ثلاثين أسيراً من خارج الزنزانة، بينهم عماد سركيس، وأدخلوهم الزنزانة، ليصبح عدد المحتجزين قرابة المئة. وبعد قليل أوثقوا كل اثنين من المحتجزين بوثاق حديدي واحد، وأمروهم أن يخرجوا من القاعة تباعاً، وبينما كان الأسرى مذهولين، طلب رجل الدين من عادل أن يعيد إليه كتبه، فأشار عادل إلى سريره؛ إذ ترك الكتب عليه.

أجلسوا المحتجزين على العشب خارج الزنزانة؛ ليُلقي عليهم رجل الدين محاضرة، يخبرهم بها عن المكان الذي سيذهبون إليه، لكنه اكتفى بعبارات موجزة: (راح تروحون لمكان، تشوفون بيه رغيف الخبز من ورا السور الشائك يتمشى، تگلوله استريح، يگللكم شكراً عندي شغل)، ثم قال: (گبل ما تروحون راح ننطيكم مگصّات زغار؛ لأن هناك الجو ثلج، وواحدكم من يبول تجمد بولته؛ حتى يگصه بالمگص من يخلّصْ). كان يتحدث وهو يتشفى بهم؛ بسبب ما تعرّض له من سخرية عندما كان يلقي محاضراته عليهم، ولاسيما المحاضرة الأخيرة التي قرأ فيها (سورة الطارق)، فقال له عادل: (ما معنى الطارق)؟ فأجابه أنّه سيذكر له الإجابة في المحاضرة القادمة، فأخبره عادل، أنه لو أكمل الأية التي تلي هذه الأية لعرف معنى الطارق، فضحك المحتجزون كلهم؛ وخرج المعمم غاضباً.

وضع الجنود الإيرانيون الأسرى المحتجزين في باصات كبيرة، وكان كل أسيرين موثوقين مع بعض يجلسان معاً، وتوجهت بهم الباصات جنوباً.

(وين رايحين؟): كان هذا السؤال يتردد كثيراً على ألسنة الأسرى الموثوقين في الباص، وقد اختلفوا في الإجابة، فمنهم من رأى أنهم ذاهبون إلى معسكر آخر يجمعون فيه الأسرى المشاكسين، ومنهم

من قال إن الإيرانيين سيعدمونهم، وقال بعض آخر أنهم سيعودون إلى العراق، في حين كان عادل يرى أن الأمر لا يدعو إلى خير، وهم سيذهبون إلى مكان أسوء من بندر أنزلي، وأسوأ حتى من الزنزانة الجماعية. وما إن أكمل كلامه حتى توقفت الباصات بعد ساعتين من الطريق في مكان يبدو مثل صحراء، فأنزلهم الجنود؛ ليتبولوا وهم موثوقون اثنين اثنين، وبينما كان عادل يتبول وظهره إلى عارف الذي أوثق معه، أخبره عارف أن الجنود سيطلقون عليهم الرصاص الآن، فقال له: (المهم أخلّص بولتي، وشيسوون خل يسوون)، فقال عارف وهو مبتسم: (متگلي إنت شنو من بشر)، فأخبره: أن أي يوم إضافي بعد ما حدث له في جبهة القتال هو زيادة على العمر.

10

في عصر الأول من كانون الثاني، وصلت الباصات إلى مقتربات معسكر سمنان (طريق القدس 5) الذي يقع في الضواحي الجبلية لمحافظة (سمنان)، في شمال شرق طهران، وعندما رأى عادل خيام المعسكر من بعيد، تذكر قول مظفر النواب: (...كقبور ركبن على بعض)؛ إذ كان المخيم مقاماً على سفح جبل، وكانت الخيام تبدو فوق بعض، وهي بالكاد تُرى؛ إذ غطاها الجليد، وحينما وصلت الباصات إلى بوابة المعسكر، شاهد عادل حنفية ماء، تخرج منها قطعٌ من الثلج بطول إصبع، ويتناوب الماء والثلج على الخروج في منظر يبدو تحدياً لإرادته في أن يكون حراً من الداخل.

كان معسكر سمنان مكوناً من مخيمين، تفصل بينهما بنايات إدارة المعسكر. يحتوي المخيم الغربي الكبيرعلى ثلاثة آلاف من الأسرى المشاكسين المختارين من معسكرات الأسر التي تزيد على عشرين، ويحتوي المخيم الشرقي الصغير على ألف وخمس مئة أسير. يحيط المخيم سوران شائكان، السور الأول مكوّن من سورين، تفصل بينهما مسافة مترين، ووضع الإيرانيون فيها أسلاكاً شائكة على شكل

اسطوانة، ويبعد السور الثاني الخارجي مسافة مئة متر، وهو يطوّق المعسكر بأكمله.

ظل المحتجزون عند البوابة الرئيسة للمخيمَين قرابة ساعة، وهم يرتجفون من البرد، وكانوا يتكورون على بعضهم ليتدفأ أحدهم بالآخر، إلى أن تحولوا إلى ما يشبه الكرة.

كان الأسرى في حافة الكرة، يحاولون الولوج إلى داخلها ليخرج من هو في وسطها، في حين وقف عادل وعماد سركيس على يسار الكرة ينظران إلى لوحة كبيرة موضوعة بجانب بوابة المعسكر، كتب عليها باللغة الفارسية: (ورود أفراد متفرقة أكيداً ممنوع است) ويتابعان وجوه الأسرى الكالحة في الداخل. كانت ثياب الأسرى في الداخل عسكرية عراقية، أي أنهم لم يحصلوا على ثياب منذ ثمانية أشهر تقريباً.

بعد مرور ساعة على وقوفهم عند البوابة، وزع الإيرانيون الأسرى على مجموعتين، مجموعة كبيرة تضم قرابة 90 أسيراً، أدخلوها إلى المخيم الكبير، فاندهش عادل لما يحدث لعماد سركيس، إذ كان عماد ضمن المجموعة التي أدخلها الإيرانيون إلى المخيم الصغير.

كان الإيرانيون قد أعدوا للأسرى تسع خيام بحجم 180 باونداً، لا يتجاوز طول الخيمة أربعة أمتار، ويضيق عرضها عن ثلاثة أمتار.

دخل عادل وعارف وعبد النبي إلى إحدى الخيام متأخرين؛ فوجدوا أن الأسرى السبعة الذين دخلوا قبلهم قد احتلوا الأماكن التي يعدونها مريحة، وهي الأماكن التي تقع قرب باب الخيمة المغلق؛ لذلك جلس عادل عند باب الخيمة المفتوح وبجانبه عارف، وجلس عبد النبي قبالتهما عند مدخل الخيمة أيضاً.

بعد قليل، وزع الإيرانيون بطانيات عسكرية خفيفة بواقع بطانيتين لكل أسير، واحدة تستعمل فراشاً، والثانية غطاء.

لم يكن فرش البطانيات على الأرض سهلاً، فالمساحة التي يمكن أن يحتلها كل أسير لا تتجاوز ثلاثة أرباع المتر من حيث العرض، ومتراً ونصف المتر طولاً؛ لذلك كان نومهم في اليوم الأول صعباً جداً؛ إذ كانت رجل أي أسير تصل إلى صدر من ينام قبالته، وقد تعود عادل أن يتلقى ركلات في صدره وظهره، لاسيما بعد منتصف الليل عندما يبدأ وقت الكوابيس، ولم يكن يتمكن من أن ينقلب في نومه إلا بعد أن يجلس، ثم يستدير، ليعود مرة أخرى إلى النوم.

لا أحد من الأسرى يستطيع الوقوف في الخيمة، إلا في وسطها، في الخط الرابط بين أعمدتها الحديدية الثلاثة.

كان في الخيمة خيط رفيع مفتول بإحكام يتدلى من منتصف العمود الوسطاني، يستعمل لقطع السجائر؛ إذ كانت حصة الأسرى من السجائر لا تكفي، فهي ثلاث سجائر في اليوم؛ لذلك كانوا يدخنون نصف سيجارة بعد كل وجبة طعام، ونصف سيجارة بين الوجبات؛ لذلك اخترع الأسرى طريقة لقطع السيجارة نصفين من دون أن يضحوا بأوراق التبغ التي تسقط من جهتي القطع، وذلك بأن يلفوا على وسطها خيطاً مربوطاً على عمود الخيمة، مستخلص من جواريب نايلون، ثم يقطعون السيجارة بواسطة ذلك الخيط، فيكون طرفا السيجارة من جهتي القطع مغلقين بإحكام.

كان الهدف من إنشاء معسكر سمنان هو السيطرة على فعّالية الأسرى المشاكسين؛ لذلك اختاروا مجموعة من الأسرى الموالين لإيران، ونصّبوهم مسؤولين على المعسكر، ثم بدؤوا ينقلون مجاميع الإسرى المشاكسين من المعسكرات الأخرى، فكان الأسرى العراقيون الموالون لإيران مسؤولين عن المخيم، وهم مجموعة لا يتجاوز عددهم مئة أسير في معسكر سمنان، وهم آمر المخيم العراقي الموالي الذي يسميه الإيرانيون: (أرشدْ كلْ)، وأمراء لاثني عشر فصيلاً،

ومساعدوهم، وموزعو الطعام، وناقلو أخبار الأسرى إلى الإيرانيين، وكان يتجول في المخيم حرّاس من الجنود الإيرانيين ليلاً ونهاراً، لا يتجاوز عددهم أربعة حراس.

كان الإيرانيون يُجرون تعدادين للأسرى: تعداد قبل الفطور الصباحي، وتعداد قبل العشاء، إذ كان الأسرى يخرجون إلى ساحة كبيرة قرب بوابة المخيم المطلة على بنايات إدارة المعسكر، ويقفون كلاً بحسب فصيله عشرة عشرة، ثم يدخل الجنود لتفتيش بعض الخيام بحسب المعلومات التي تصلهم من الموالين، ثم بعد ذلك يجرون التعداد.

بما أن الإيرانيين قد اختاروا المشاكسين من معسكرات سابقة، فقد كان الأسرى يسمّون بعضهم بحسب معسكراتهم الأولى، ومن هذه المجموعات مجموعة بندر أنزلي التي ينتمي إليها الأصدقاء الثلاثة، وكانت هذه المجموعة مشاكسة جداً، فلم يمض عليهم في المعسكر سوى أقل من شهرين حتى اشتبكوا مع الموالين لإيران في أثناء التعداد المسائي؛ إذ كانوا يضايقونهم كثيراً، فضلاً عن أنهم يستولون على كمية كبيرة من الطعام، يغرون بها بعض الأسرى الذين يجوعون بسرعة، ثم يدعونهم إلى التوبة! وهذه دعوة لا يرفضها أحد بسبب الطبيعة الإسلامية التي يتصف بها أغلب الأسرى، لكن التوبة في

الأسر لها شروط غير شروط الله، أولها: نقل المعلومات عن أية حركة داخل المخيم، وثانيها: كره العراق، والقول بأنه هو من اعتدى على إيران، ثم شتم الرئيس العراقي، وهكذا تتفاقم الشروط بمرور الزمن إلى أن تصل إلى تعذيب الأسرى أو قتلهم.

(ماذا لو كنا أسرى في إسرائيل)؟ سأل عارف صديقه عادل ولم ينتظر إجابة على سؤاله؛ إذ يرى عارف أن سبب مأساة الأسرى هو أنّ البلدين المتحاربين بلدان مسلمان، وكان يظن أن اختلاف الدين بين البلدان المتحاربة يخفف من مأساة الأسرى. أما عادل، فكان يرى أن البُلدان التي تكون سلطاتها بيد حزب واحد أو رجل واحد متشابهة حتى لو اختلفت دياناتها، وضرب لعارف مثالاً على ذلك بذكر محرقة الهولوكوست، ومعاناة الأسرى الألمان في الاتحاد السوفياتي، ثم أن اختلاف الدين قد يسبب مأساة أكثر للأسرى، فالأسرى الفلسطينيون، ربما يعانون في إسرائيل أكثر من معاناة الأسرى العراقيين في إيران.

بعد منتصف شباط 1983، قرر عارف أن يخوض حرباً مع الموالين لإيران، وعلى الرغم من محاولات عادل لجعله يكف عن ذلك، إلا أن عارفاً تواصل مع مجموعة بندر أنزلي وحصل على موافقة أغلبهم، في حين كان عبد النبي يثقف بالضد من طروحات عارف، وكان يدعو جماعة بندر أنزلي إلى عدم الإنجرار وراء أفكار

عارف وسلوكاته، ويذكرهم بما آل إليه إضراب السرية الخامسة في بندر أنزلي، وكيف أدى ذلك إلى التعذيب والسجن الجماعي.

حاول عادل التوفيق بين صديقيه بأن يقترح تأجيل الاصطدام بالموالين لإيران لحين ما تشترك المجموعات الأخرى مع مجموعة بندر أنزلي، لكن عارفاً كان مصراً على رأيه؛ إذ يرى أن مشاركة المجموعات الأخرى ستكون تحصيل حاصل، فما إن يبدأ هو ومن أيده المعركة، فإن المجموعات الأخرى ستشارك مباشرة، لأن المجموعات كلها تعاني من الموالين لإيران، ويرغبون بطردهم، فهم ليسوا أقل وطنية وإخلاصاً من مجموعة بند أنزلي، لكن النار تحتاج إلى شرارة أولى.

كانت مجموعة بندر أنزلي أكثر من مئة أسير متركزين في الفصيل السابع، وفي أثناء التعداد الصباحي، خلق عارف ضوضاء جعلت الموالين لإيران يقتربون من الفصيل السابع، وما إن أحاطوا بالفصيل حتى هاجمهم عارف ومن معه، ثم هاجمهم أغلب أسرى المخيم، فهرب الموالون لإيران باتجاه بوابة المخيم مستنجدين باصدقائهم الإيرانيين، فتوجه الأسرى الغاضبون إلى خيام الموالين القريبة من ساحة التعداد، وأخرجوا أشياءهم، ورموها إلى ما وراء السور الشائك إعلاناً عن عدم قبولهم في المخيم، ولما رأى الإيرانيون

غضب الأسرى وإصرارهم، نقلوا الموالين لهم إلى معسكر آخر، وتسلّم الأسرى المشاكسون قيادة المخيم، وبذلك تخلص الأسرى منهم، وتمت قيادة المخيم من الداخل بواسطة الأسرى الموالين للعراق، فقاموا بتعيين مسؤول على المعسكر، وآمراء فصائل، وموزعي طعام، وقاموا أيضاً بإلغاء المرافق الصحية التي خصصها الموالون للمسيحيين، وتخلصوا من اليافطة التي كتب عليها: (للنصارى فقط).

بعد يومين على طرد الموالين، حضر الضابط الإيراني المسؤول عن المعسكر ومعه مجموعة من الضباط والجنود، وألقى كلمة على الأسرى قال فيها: (أنا ضابط عسكري ملتزم بأوامر قيادتي، وواجبي يحتّم علي أن يكون المعسكر هادئاً، تجري فيه الحياة بلا مشاكل، وأقصى ما أبغيه هو الإلتزام بالنظام، ولا يعنيني أي شيء آخر سوى النظام).

كانت كلمات الضابط الإيراني هذه تصريحاً منه بقبول الوضع الجديد؛ وهو الأمر الذي جعل الأسرى يهتمون بأمور أخرى، منها التعليمية والترفيهية والرياضية، ففي مايس من العام نفسه، حصل الأسرى على كرة قدم من الضابط الإيراني وأهداف كرة قدم حديدية، وما إن نصب الأسرى الأهداف ورتبوا ساحة التعداد بوصفها ملعباً، حتى ابتدأ لدى الأسرى دوري كرة قدم متكون من أربعة فرق، وأصبح

متكوناً من ستة فرق في الدورة الثانية، ثم استمر نشاط كرة القدم ينمو، فبرز لدى الأسرى لاعبون ماهرون وحكام عادلون، وكان الأسرى يتحلقون حول الملعب في كل مباراة، حتى إن الإيرانيين شكلوا فريقاً، وطلبوا اللعب مع منتخب الأسرى. وفي تلك الأيام، تبين للأسرى أن الإيرانيين يمكن أن يتعاملوا معهم بسلام.

بعد أشهر من انتهاء الصراع مع الموالين لإيران، بدأت تطفو على السطح انتماءات فكرية يعلنها بعض الأسرى، وصار واضحاً أن الصراع الايديولوجي الجديد سيحل محل الصراع بين الأسرى الموالين للعراق، والموالين لإيران، ثم بدأت دائرة الإنتماءات تتسع شيئاً فشيئاً، فبالإضافة إلى أن المعسكر قد خلا ممن يدعون أنهم موالون لإيران، أعني الذين اكتشفوا أنهم كانوا مذنبين عندما قاتلوا إيران؛ لذلك توجب عليهم أن يتوبوا عن فعلتهم؛ هناك البعثيون الذين يعتقدون فعلاً بأفكار حزب البعث، ويتبعهم في ذلك مجموعة غير قليلة ممن يخافون حزب البعث إذا ما عادوا إلى العراق، وهناك مجموعة قليلة من الشيوعيين الذين يعانون رفضاً من الطرفين السابقين، وهناك من هو ميال إلى الإلحاد، فضلاً عن السعداء الذين يرون أنهم محظوظون لأنهم لم يموتوا في الحرب، وهناك الملتزمون الذين لا يخالفون النظام.

كان الصراع في البداية بين الموالين لإيران من جانب، والأسرى المتبقين من جانب آخر، وبعد أنْ أبعِد موالي إيران من المخيم بمدة وجيزة، أخذ البعثيون يظهرون إلى العيان؛ إذ أعادوا تنظيم أنفسهم، وأصبح لهم مسؤول، هو أسير كان بدرجة عضو فرع في حزب البعث، مع أربعة من قيادات الشُعب، يليهم كثير من قيادات الفرق، ثم بدؤوا يفتشون عن أي فكر معارض لهم، ولاسيما الشيوعيون؛ إذ يدعي تنظيم حزب البعث أن في المخيم تنظيماً شيوعياً يسعى لكسب عقول الأسرى، كما يدعون أن هذا التنظيم أخطر من الفكر الإسلامي عند الموالين لإيران، وقد برروا ذلك بادعائهم أن الحزب الشيوعي محظور في العراق؛ لذلك يجب أن يحظروه في الأسر. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان أحد مسؤولي المخيم العراقي الذي يسميه الإيرانيون: (أرشد كل) ممن يُتهمون بالماركسية. كان رجلاً حكيماً، تمكن من أن يدير المخيم ويوصله إلى بر الأمان، لكن القيادات البعثية لم يرق لها ذلك؛ فعملت على النيل منه وتصيّد أقواله وأفعاله، فمرة، على سبيل المثال، تلكأ في كلامه عندما كان يتحدث إلى الأسرى، فقال أحد أعضاء الشعب لصاحبه واصفاً المسؤول: (شَدْ روسي من يحمى يگوم يعتعت). وقد صارت هذه المقولة طريفة في المخيم، يُنعت بها الشيوعيون للسخرية منهم، وإتهامهم بالتبعية للإتحاد السوفياتي، ولم يكن (أرشد كل) الوحيد التي يتعرض لهجومات

البعثيين، فلم يسلم أغلب المثقفين من هذا الهجوم، حتى صارت كلمة مثقف تعني شيوعياً أو ملحداً.

استيقظ عادل من نومه؛ لشعوره بجسم ثقيل يضغط على رأسه الملفوف بالبطانية المتهرّئة، فلم يتمكن من رفع رأسه إلا بصعوبة؛ ليكتشف أن قماشة الخيمة تكاد تنهار عليه وعلى حضيرته، فأيقظهم ليروا أن الثلج قد تكدس على الجانب الشمالي من الخيمة، وهو الجانب الذي ينام فيه عادل وعارف، ورأى أن الثلج يكاد يُسقط الخيمة، فنهض أفراد الحضيرة وهم يرتجفون من البرد؛ لإزاحة الثلج بأيديهم. لم يظن عادل أنهم يتمكنون من إبقاء الخيمة صامدة، إذ كانت الريح قوية وباردة، وكانت الخيمة ترتجف معهم، فعمل أربعة من أفراد الحضيرة على شد أركان الخيمة بقوة؛ ليحافظوا على ثباتها، وقام اثنان من الستة المتبقين بدفع الخيمة من الداخل؛ للمساعدة في إزاحة الثلج المتراكم عليها، في حين كان عادل وعارف يُزيحون الثلج بأيديهما، أما عبد النبي، فقد حمل صخرة كبيرة كانت تغلق باب الخيمة، وبدأ يضرب بها على أوتاد الخيمة لتثبيتها؛ إذ رأى أن بعض الأوتاد الشمالية بدأت تنفلت عن الأرض. شعر عارف أن كفيّه لا تعينانه، إذ صار لونهما أزرق، في حين كان عادل ينادي بأعلى صوته: (ما ظل شي..

خلصنه)، كان يصرخ وهو يلتفت بين حين وآخر إلى الخيام المنهارة على الأسرى.

كان عادل يعمل بجد، ويقترح أن ينتهي أفراد الحضيرة من هذا العمل في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، لأن نفط المدفأة سينفد في الساعة الرابعة، ولابد من أن يتدفؤوا لساعة، وإلا فهم لن ينجوا من هذا البرد.

حين انتهوا من إزاحة الثلج، جلس أفراد الحضيرة حول المدفأة النفطية وهم يضعون البطانيات على أكتافهم ويحاولون لفها بقوة على أجسادهم، كان عارف لا يستقر على وضع، إذ يشعر أن الهواء البارد يدخل إليه من خلال مسامات البطانية؛ لذلك كان يكور جسده باتجاهات مختلفة، فيأخذ وضع السجود أحياناً، وأحياناً يحاول أن يُدخل رأسه بين ركبتيه، لكنه لا يتمكن من ذلك، وأحياناً يرخي البطانية ليحافظ على تماسك خيوط سداها المتباعدة.

فكر عادل بإلغاء الإغتسال لهذا اليوم، ولما وافق أفراد الحضيرة على اقتراحه، قام من فوره، ووضع قليلاً من الماء في نصف الصفيحة التي يستعملونها لجلب طعام الحضيرة، ووضع نصف الصفيحة على المدفأة النفطية، ثم أخرج من تحت وسادته كسرة خبز

بحجم علبة سجائر، فبدأ الماء يغلي وعاد يقلبه بملعقته؛ ليفتت كسرة الخبز فيه، وبعد نصف ساعة، صنع عادل ما أطلق عليه اسم (شوربة). وعندما انطفأت المدفئة في الساعة الرابعة، وضع عادل نصف صفيحة الشوربة في وسط الخيمة بدل المدفأة، وطلب من أفراد حضيرته أن يُدفئوا بطونهم بتناولها، فتحلق أفراد الحضيرة على نصف الصفيحة وهم يرتجفون، وبدؤوا يتناولون الشوربة واحداً بعد الآخر، من غير أن يخرق أحدهم النظام.

عندما انتهى افراد الحضيرة من تناول الشوربة، وجدوا أنها فكرة يمكن الإفادة منها وتطويرها، وبدؤوا يقترحون أفكاراً لتطويرها، واتفقوا، في نهاية المطاف، على أن يوزعوا حصة الحضيرة من الرز والخبز على إحدى عشرة حصة بدلاً من عشر، ويتركوا الحصة الحادية عشرة ليعملوا منها شوربة في وقت الفجر بعد وقت الإغتسال.

وما إن أكّد أفراد الحضيرة على قبول هذا المقترح، أضاف عادل عليه تعديلاً، وهو أن يوزعوا الرز والخبز على اثنتي عشرة حصة، يتركون حصة من الرز والخبز لشوربة الفجر، ويعطون الحصة الثانية عشرة إلى أحد أفراد الحضيرة بوصفها وجبة إضافية، ليتسنى لكل فرد أن يحصل على حصتين كل عشرة أيام، وبذلك يكون هذا الأسير مشدوداً لليوم العاشر بالنسبة له، ويعطون حصة الخبز لفرد

أخر من أفراد الحضيرة؛ ليحصل كل فرد من أفراد الحضيرة على وجبتين إضافيتين من الخبز كل عشرة أيام، وقد حرص عادل على أن يكون وقت استلام حصة الخبز الإضافية بعيداً قدر الإمكان عن وقت استلام حصة الرز الإضافية، ليتسنى لكل فرد أن يشعر بقليل من الشبع كل خمسة أيام.

ذات صحوة، قام الإيرانيون بتوزيع أفرشة اسفنجية على الأسرى، لكنهم أعطوا فراشاً واحداً لكل أسيرين، وقد تسبب ذلك في خلافات كثيرة في أغلب الخيام، وكان الخلاف حول من سيأخذ فراشاً، وكيفية التوزيع، هل هي بالتناوب أو بالقرعة، لكن عبد النبي وجد طريقة لتحويل الفراش الاسفنجي إلى فراشين، فقد حصل على سلك تلفون بطول ثلاثة أمتار عندما خرج إلى العمل في تنظيف المعسكر من الخارج، فقام بإزالة الغلاف المطاطي للسلك، فوجد سبعة أسلاك، ثلاثة منها من الفولاذ القوي، قرر أن يستعملها بوصفها منشاراً، إذ قام بفتل الأسلاك الصلبة، ثم وضعَ الفراش على أرض مستوية خارج الخيمة، ثم قام هو وعارف بتحريك السلك أفقياً في منتصف سمك الفراش، وما هي إلا دقائق حتى تحول الفراش إلى فراشين رقيقين، وبذلك صار لكل فرد من أفراد الخيمة فراشاً.

اعتاد الإيرانيون أن يوزعوا الوقود على الحضائر يومياً وهو لتر من النفط الأبيض لكل حضيرة مكونة من عشرة أفراد، أي لكل خيمة، وكان في كل خيمة مدفأة نفطية أنبوبية. كانت حضيرة الأصدقاء الثلاثة لاتوقد المدفأة إلا بعد منتصف الليل؛ لأن لتر النفط يكفي لعمل المدفأة لمدة أربع ساعات تقريباً؛ لذلك اقترح عادل أن توضع على المدفأة صفيحة من الماء في الساعة الثانية عشرة؛ لكي تغلي في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، وفي ذلك الوقت يكون أحد أفراد الحضيرة مستعداً للإغتسال. كانت عملية الإغتسال تجري يومياً، ويشارك فيها أغلب أفراد الحضيرة، ففي البداية يقوم أحد الأفراد بإحضار صفيحة ثانية يخلط فيها الماء الحار بالبارد ليحصلوا على صفيحتين.

استيقظ عادل في الثانية بعد منتصف الليل، فأيقظ عبد النبي لكي يتهيأ للإغتسال، فحاول عبد النبي أن يؤجل اغتساله قليلاً ولم يفلح، ثم اقترح أن يغتسل عادل محله ولم يفلح أيضاً.

نهض كل أفراد الحضيرة من نومهم لكي يساهموا في عملية الاغتسال اليومية، وسبقهم عادل في إخراج الماء إلى المساحة الفاصلة بين خيمتهم والخيمة المجاورة في المكان الذي وجدوه أقل عرضة للهواء، وقام أربعة من أفراد الحضيرة بصناعة جدران من البطانيات

حول عبد النبي الذي أخذ وضع الجنين في وسط البطانيات، وبدأ عادل بسكب الماء بطريقة شبه مستمرة ليحافظ على حرارة جسم عبد النبي؛ ليخفف من برودة الهواء المنجمد، أما عارف، فقد كان يغسل جسم عبد النبي بسرعة بالغة، في حين كان عبد النبي يرتجف وهو يطلب من عادل أن لا يتوقف عن سكب الماء. وما هي إلا خمس دقائق حتى أسقط الأسرى الأربعة البطانيات على جسم عبد النبي، وأدخلوه الخيمة وهو يرتجف حول المدفأة التي ستنطفئ بعد أقل من ساعة، وقابله عارف من الجهة الثانية وهو ينافسه بالإرتجاف من البرد، في حين أخرج عادل نصف الصفيحة الحاوية على حصتي الرز والخبز الإضافيتين المنقوعتين بلترين من الماء المنجمد منذ مساء اليوم السابق؛ لوضعهما على المدفئة لصناعة الشوربة المكونة من عشر ملاعق من الرز، وقطعة خبز صغيرة.

وبينما كان أفراد الحضيرة يتناولون الشوربة، لاحظ عارف وجود قطرات زيت تطفو على الشوربة، أكثر من أي يوم سابق، فاستغرب من ذلك، فأخبره عبد النبي أنه لم يغسل نصف الصفيحة بعد عشاء يوم أمس ليحافظ على ما التصق من الزيت في داخل الصفيحة. ولما وجد أفراد الحضيرة فائدة من عمل عبد النبي هذا، قرروا أن لا يغسل خفر الحضيرة نصف الصفيحة بعد كل وجبة عشاء، عند ذلك

تبسم عبد النبي، وزمّ شفتيه وهو يرفع كتفيه، ثم أخرج نصف سيجارة ودخنها ليكافئ نفسه على هذا الإنجاز، وبدأ عارف يردد مطلع أغنية المجرشة: وترنم بقوله: (هم هاي دنية وتنكضي، وحساب أكو تاليها.. ساعة واكسر المجرشه، وانعل أبو راعيها)، وأخذ أفراد الحضيرة يرددون ما يردده عارف إلى أن حل وقت التعداد الصباحي.

كان عارف يحب الأغاني العراقية، ويؤديها بشكل مقبول نوعاً ما على الرغم من أن صوته لا يصل إلى مستوى صوت مغنٍ، وكان محبو الأغاني العراقية يجتمعون في خيمته ويؤدون أغلبها، وإذا صادف أن اقترب الحارس الإيراني منهم وهم يغنون، بدأ عارف يلطم مدعياً أنه يتعبد، في حين يسارع عبد النبي إلى ضرب صدره بيده مدعياً أنه يؤدي شعائر اللطم، وكان عادل يُظهر مشاعر الحزن من دون أن يلطم. لم يحزن عادل لإيهام الجنود الإيرانيين، إنما يحزن على عدم وجود فرق بين القصيدة الحسينية والأغنية العراقية؛ إذ لاحظ أن الأغنية العراقية أكثر إحزاناً من القصيدة الحسينية.

وبسبب من مقدرة عارف على استعادة كثير من الأغاني العراقية، فقد عمل على تدوين ما يحفظه منها، فقام بترتيبها بحسب مطربيها، لكنه لم يتمكن من الحصول على دفتر وقلم، لذلك لجأ إلى استعمال ورق من صناديق الكارتون، فبعد أن نقّع الكارتون بالماء،

حصل على ثلاث طبقات، أهمها الطبقة الوسطى المتعرجة، فهي تتقبل الكتابة عليها بخلاف الطبقتين الأخريين، ثم إنها تصبح أكبر بعد أن يقوم بتعديل تعرجاتها، وهي كذلك أفتح لوناً، وعلى هذا الورق، دوّن عارف كثيراً من الأغاني العراقية بخطه الجميل.

لمّا وجد عادل أن خط عارف جميل جداً، فكر في تحسين خطه، فطلب من عارف أن يعلمه فن خط الكتابة، فصار ديوان الأغاني العراقية الذي ألفه عارف مصدراً لتعلم رسم خط الرقعة، وكان عادل يتدرب وهو مستمتع بقراءة وتحليل الأغاني العراقية القديمة.

لاحظ عادل أن هناك أسماء مطربات لم يسمع بها من قبل، من أمثال (جليلة أم سامي) و (بدرية أنور) و(خزنة إبراهيم)، ولاحظ أيضاً، أن أغلب أغاني منيرة الهوزوز جاءت على وزن (الدارمي)، وعندما وجد عادل أنّ عارفاً قدّم سليمة مراد على منيرة الهوزوز نبهه على ذلك، لكن عارفاً كان مصراً على أنّ سليمة مراد أقدم من منيرة الهوزوز، وعندما أخبره عادل أن منيرة أكبر من سليمة بأكثر من عشر سنوات، تفاجأ عارف بهذه المعلومة، لكنه أصر على خطأ معلومة عادل مستدلاً بشهرة سليمة مراد، وهنا تدخل عبد النبي عازياً شهرة سليمة مراد إلى كونها يهودية، فنظر إليه عادل نظرة استغراب؛

وقال: (إنت تخوط بصف الاستكان). إذ لو قال إنها مشهورة لأنها مقرّبة من الملك، لكان ذلك أخف وطأة، في حين عزا عادل شهرة سليمة مراد إلى أنها ماتت بعد منيرة بثلاثين سنة تقريباً، فهي قد عاصرت تطور أجهزة التسجيل وشيوعها. اقترب عادل من عبد النبي وهمس في أذنه: (آني اعتبر حتى الانتماء للإنسانية انتماء طائفي، وانت تگلي سليمة مراد يهودية؟!).

كانت المعلومات شحيحة جداً؛ إذ لم يكن في الأسر مصدر يمكن الاعتماد عليه سوى اتصاف حامل المعلومة بالصدق والخلق الطيب، وكثيراً ما كان يختلف الأصدقاء حول معلومات قد تبدو بسيطة جداً، لكنهم يتناقشون كثيراً حول صحتها، وأحياناً كثيرة، يؤدي نقاشهم إلى خلاف ينتهي بعد مدة وجيزة بين الأصدقاء الذين يمتلكون وعياً بالمكان والزمان اللذين يعيشون فيهما؛ إذ تصالح عادل وعارف على موقف وسط عندما رفض عارف تدوين أغنية للمطربة العراقية (جليلة)؛ لأن مطلع الأغنية باللغة الفارسية: (بيا بشن إنجا) أي (تعال إجلس هنا)؛ إذ اتهم عادل عارف بالتطرف، وأن هذه الأغنية قد غنتها جليلة قبل أن يكون هناك خلاف بين العراق وإيران، ولا يجوز أن نحاكم أحداث الماضي بمناهج الحاضر، فاقتنع عارف برأي عادل، ولكن بعد نقاشات كثيرة. وذات يوم تلصص عادل على ورقة بيد

عارف كان موضوعها: (أثر عمل النبي في التجارة على الصورة القرآنية)، فوجد أن عارفاً جمع كثيراً من الآيات التي تتعلق بالتجارة من مثل: شراء الأنفس، ومضاعفة الحسنات، وغيرها، ولما انتبه عارف إلى أن عادلاً يتلصص على ورقته ابتسم عارف وتلفلت يميناً ويساراً وهو يحمي رأسه بيده اليمنى مدعياً أنه يتفادى أية لكمة من صديقه.

بكثرة التمرين صار خط عادل مثل خط عارف تقريباً، ولأن عادل يحفظ كثيراً من الشعر العربي من مختلف العصور؛ فقد قرر أن يدوّن ما يحفظ، وهنا اقترح عليه عبد النبي أن يدوّن الشعر الفصيح في دفتر حقيقي؛ إذ تمكن عبد النبي من الحصول على دفتر حقيقي بمئة ورقة، ويحصل على قلم جاف أزرق من جندي إيراني، كان ثمن الدفتر والقلم باهضاً؛ إذ تخلى عبد النبي عن خاتمه الذهبي الذي احتفظ به لمدة تجاوزت السنة الكاملة، ولأن عادلاً بطيء بالكتابة بخط جميل، فقد تبرع عارف بمساعدته، وعلى هذا الأساس ابتدأ الأصدقاء مشروعهم، فكان عادل يستحضر القصيدة ابتداءً بالأقدم، ويدون بعضها، وعارف يساعده كثيراً بالتدوين، وعبد النبي يمول المشروع بالدفتر والأقلام، ويتابع المشروع بين حين وآخر.

بعد أقل من شهرين أتم الأصدقاء مختارات عادل الشعرية، فأطلقوا عليه اسم (مختارات شعرية). لم يكتب عادل اسمه بوصفه مؤلفاً، بل طلب من عارف أن يكتب أن هذه المختارات الشعرية من إعداد: عادل أمين وعارف خليل وعبد النبي مرهون.

كان هذا الكتاب السرّي هو الكتاب الأول الذي أنتجه الأسرى بورق حقيقي، وكان الأسرى يستعيرونه تباعاً، وقد قرأه أغلب الذين يقرؤون ويكتبون في المخيم، فنادراً ما يبيت الكتاب في خيمة الأصدقاء لليلة؛ إذ هناك كثير ممن يسجلون أسماءهم لاستعارته، وفي أحد الأيام، تأخر الكتاب كثيراً، فسأل عنه عادل، لكنه لم يتمكن من الوصول إليه، وكأنه قد اختفى، لكنه عرف أخيراً أنه عند عبد النبي، وحين سأله عادل عن سبب إخفائه الكتاب، أجابه عبد النبي بفضاضة بأنه دفتره وسيبقى عنده، فغضب عادل، لكنه أبقى على صداقته مع عبد النبي، وروى ما حدث بينهما لعارف الذي تدخل بدوره لحلحلة المشكلة، لكن عبد النبي أصر على أن يتمسك بالكتاب ولا يعيره لأحد، فلم يجد عادل وسيلة لاستعادة الكتاب وهو في غاية الإندهاش والأسف على سلوك عبد النبي.

كان عادل يتحجج بحجج كثيرة لمن يريد استعارة الكتاب من الأسرى، إذ لم يتمكن من القول إن عبد النبي قد استولى على الكتاب،

لكنه في النهاية، أخبر الأسرى أن يسجلوا أسماءهم عند عبد النبي، فهو من تولى عملية إعارة الكتاب، لكن كثيراً من الأسرى كانوا يعودون إلى عادل ويخبرونه بأن عبد النبي لا يوافق على إعارة الكتاب، وهو الأمر الذي جعل عادلاً يزيد من غضبه بسبب سلوك صديقه، وقد أدت سورة غضب عادل إلى أن يكتب قصيدة يعاتب فيها عبد النبي، إلا أن القصيدة أخذت منحى هجائياً ساخراً، ولم يتمكن عادل من إبقاء موضوعها كما كان قد قرره لها قبل الكتابة، وعندما قرأ عادل القصيدة في الخيمة بغياب عبد النبي، انزعج عارف، وطلب من عادل وهما يتمشيان قرب السور الشائك عدم قراءة القصيدة مرة أخرى، فوافقه عادل.

بعد مرور يوم أو يومين، تمشى عادل منفرداً قرب السور الشائك، فلحقه عارف ليفاجئه بأن القصيدة قد انتشرت في المخيم، وأن بعض الأسرى من هواة حفظ الشعر يرددونها وهم يعرفون أنّ عادلاً يهجو صديقه عبد النبي ويسخر منه، وقد أدى ذلك إلى انزعاج عبد النبي كثيراً، لكنه لم يعاتب عادلاً أو يؤنبه، حتى أنه لم يحدّث عارف بالموضوع، فقد التزم الصمت وكأن شيئاً لم يكن.

بعد مرور أيام انتشرت القصيدة أكثر، وبدأ الأسرى يرددونها حتى وصلت إلى أعلى الدرجات في تنظيم حزب البعث، وفي أحد

الأيام طلب أحد أعضاء الشُعب ممن كانوا يكنّون الودّ لعادل أن يذهب عادل معه إلى المسؤول البعثي الأول في المخيم، وهو عضو قيادة الفرع؛ لزيارته لأنه مريض، وعندما عادوه إلى خيمته، بدأ الموضوع يتحول شيئاً فشيئاً إلى أن طرقوا موضوع القصيدة مدعين أنها هجاء لصدام حسين، فخشي عادل من هذا الموضوع؛ لأن هجاء الرئيس ربما يؤدي إلى الموت، ولما رأى عادل أنه يتعرض لأزمة قوية، حدثهم عن قصة هذه القصيدة، وأسباب كتابتها، ثم ذكر لهم أبياتاً منها، تدلل على بطلان هذا الإدعاء؛ إذ كان في القصيدة وصف لعبد النبي، وهو يخالف تماماً وصف الرئيس، وبعد أن اقتنعوا بما قاله، بدا الحديث بينهم ودياً، فطلب منه عضو الفرع أن يقرأ شيئاً من شعره ففعل. بعد ذلك شعر عادل بأن الجلسة قد انتهت، فاستأذن وخرج، فخرج خلفه عضو الشعبة، وفي الطريق سأل عضو الشعبة عادل:

ـ ليش ما تنظم للتنظيم، وتوفر لنفسك حماية من هاي الاتهامات؟

= آني ما عندي مشكلة ويه الحزب، لكن أظن أن التنظيم في الأسر غلط.

ـ ليش غلط؟

= لأنه راح يدمر المخيم إذا انكشف.

ـ لا، لا، إنت غلطان، ما راح ينكشف، المهم أن نحقق التواصل ولو مرحلياً.

= التواصل في نظري هو إبقاء الأسير على صلة بالعراق، وأظن أن ديوان الأغاني العراقية، وكتاب مختارات شعرية وسيلة مهمة للتواصل الآمن.

شعر عبد النبي بأن القصيدة تحاصره، فحاول التخلص منها بمساعدة عارف، فطلب عارف من عادل أن يعلن أمام الأسرى أنه يسحب القصيدة ويعتذر لعبد النبي، بشرط أن يطلق عبد النبي الكتاب للاستعارة، ويُبقي اسماء المؤلفين عليه.

رفض عادل هذه الشروط، وذكّر عارفاً بأن محتوى الكتاب هو مختاراته التي حفظها في العراق، والخط خطه وخط عارف، فهل من المعقول أن يستولي صاحب الدفتر على كل هذا الجهد! فأما أن يكون الكتاب للجميع، وإلا فسوف يستمر عادل بمهاجمة عبد النبي على فعلته.

كان عادل يعرف أن عبد النبي بكالويوس في الأدب العربي، لكن لغة عبد النبي وطريقته الرديئة في أداء الشعر جعلت عادلاً يشك في أنه قد دخل كلية الآداب، وتحديداً قسم اللغة العربية؛ إذ هو لا يعرف من اللغة العربية شيئاً، فكان عادل غالباً ما يكّذب دعواه هذه، لكن عبد النبي كان يصر في كل مرة أنه خريج كلية الآداب.

حاول عادل عدم التواجد في الخيمة؛ إذ كان يقضي جل وقته يتمشى في الخارج، وعندما يشعر بالتعب يعود إلى الخيمة لينام. وفي أحد الأيام، طلب عبد النبي من عارف أن يلتقي بعادل بحضور عارف ليبوح لهما بسر، فوافق عادل على طلبه، فخرجوا يتمشون قرب السور الشائك، وعبد النبي مطأطئ رأسه ولا يتحدث، وكان عادل صامتاً لا يتوقع شيئاً مهماً، فسأل عارف عبد النبي: (ها؟ شنو السر؟ ترى قلقتني)، فقال عبد النبي بحزن شديد: (تعتقدون أني طمعان بالكتاب)؟ ومن دون أن ينتظر رد أي من صديقيه، قال: (هذا الكتاب حماية إلي)، وما إن قال عبارته هذه حتى بدأ القلق يقتحم ظنون عارف، وبدا عادل متحمساً لمعرفة السر، فأخبرهما عبد النبي أنه ليس بكالوريوس في اللغة العربية، بل أنه ترك الدراسة في السنة الرابعة في قسم اللغة الفارسية، ولأن أغلب الذين درسوا اللغة الفارسية عملوا في المخابرات في أثناء الحرب، والإيرانيون يعرفون ذلك، فقد ادعى ما ادعى ليبعد

عن نفسه إمكانية أن ينكشف، لذلك كان ديوان مختارات شعرية دليلاً على أنه خريج قسم اللغة العربية.

بعد أن أنهى عبد النبي كلامه شعر عادل أنه في تجربة قاسية؛ لأنه لا يتمكن من مقاومة هذا الطرح، وقد أصبحت خياراته محدودة، لذلك اقترح أن يبقى الديوان لدى عبد النبي، ويفعل به ما يشاء، وأنه سيشيع بين الأسرى أن القصيدة ليست هجاء لعبد النبي، فاقترح عارف أن يتمشوا كثيراً أمام الأسرى؛ ليعرفوا أنّ عادلاً وعبد النبي ليسا على خلاف.

بعد أن تنازل عادل عن كتاب مختارات شعرية، عكف على عمل تأليفي آخر، وهو أن يكتب النظرية النسبية الخاصة والعامة بخطه، في دفتر يحصل عليه هو بنفسه من جندي عربستاني؛ إذ عرف عن هذا الجندي أنه يتاجر مع الأسرى، وبعد أن اتفق مع الجندي، خرج في عصر اليوم التالي هو وعارف ليلعبا بكرة قدم ممزقة قرب السور الشائك، لكنه وضع ساعته في جوف الكرة، وركل الكرة بقوة؛ ليضعها خارج السور، طالباً من الجندي العربستاني أن يعيدها إليه، فعادت الكرة وفي جوفها دفتر بمئة ورقة، ومعه قلمان: أسود وأزرق.

فرح عادل بهذا الدفتر الذي سيدون فيه ما يحفظه ويفهمه من النظرية النسبية، وعكف على الكتابة، إلى أن تمكن من اختصار فكرة النظرية النسبية الخاصة والعامة في ثلاثين صفحة، بخط جميل وعناوين ملونة. كان عارف يتابع عن كثب ما يكتبه عادل ولاسيما فيما يتعلق بالخط وجماله، فضلاً عن أن عارفاً كان شغوفاً بمعرفة النظرية النسبية.

اقترح عارف أن يستغل الصفحات المتبقية في ترجمة ما كتبه عادل إلى اللغة الفرنسية، إذ كان عارف قد تعلم الفرنسية في الأسر وأجادها، فراقت لعادل هذه الفكرة، فباشر عارف بترجمة مسودة على ورق مقوى تمهيداً لتبييض ما يكتبه في الدفتر. في حين بدأ عادل بترجمة ما كتبه إلى اللغة الإنكليزية، وبعد أيام، أتم الصديقان عملهما المثير، وهو كتاب بثلاثة لغات، فبدأ المهتمون من الأسرى بقراءة الكتاب، فوجد عادل أن كثيراً من الأسرى يهتمون بالفيزياء الكونية، ثم شيئاً فشيئاً صار هذا الكتاب مادة لتدريس اللغة الإنكليزية والفرنسية في المخيم، إذ أقام عادل دورة تعليمية، وانضم إليها بعض المثقفين المهتمين باللغة الإنكليزية، وكذلك فعل عارف.

كان عارف يحفظ روايات كثيرة قد قرأها في العراق، وقد تحولت موهبة عارف في حفظ الروايات إلى عمل؛ إذ صار الأسرى

يدعونه إلى خيمة ما، يُدعى إليها بعض الأسرى المهتمين، مع إعلان عن اسم الرواية التي ستُروى، في مقابل علبة سجائر يقدمها المستمعون لعارف، وقد تطورت طريقة عارف في الروي مفيداً مما قرأه عن طريقة الحكواتي في تمثيل بعض المشاهد بطريقة تجعل الرواية أكثر إمتاعاً.

لما رأى عادل اهتمام عارف بالرواية واهتمام كثير من الأسرى بالاستماع إلى روايات عارف، وأنهم يروون ما يسمعون من عارف إلى اصدقائهم؛ خفقت أجنحة أفكاره في إقامة مسابقة للقصة المكتوبة؛ لكي يطوّر الموضوع من مجرد تقليد إلى عمل إبداعي، والفائز في المسابقة يحصل على جائزة، وهي عمل ثلاث نسخ من القصة الفائزة، وكانت هذه الجائزة تعد كبيرة.

اقترح عادل هذه الفكرة على عارف فوافق، وطلب عبد النبي من عارف أن يشارك في إعداد المسابقة معتذراً عما فعله فيما يتعلق بكتاب (مختارات شعرية)، فوافق عارف على ذلك، طالباً من عادل أن يحتوي عبد النبي، وبعد قبول عادل لاعتذار عبد النبي شكّلوا لجنة، وباشروا بالإعلان عن المسابقة، فاشترك فيها أكثر من ثلاثين أسيراً، وبعد القراءة الدقيقة للقصص، وموازنة بعضها ببعض، تبين أن معظم القصص كانت تجارب شخصية فيها كثير من السيرة الذاتية، حاول

المؤلفون أن يسموها بطابع تخيلي، وكانت لغة كثير منهم متوسطة، لا ترقى إلى أن تكون أدباً، لكن لجنة المسابقة وضعت بعين الإعتبار حداثة التجربة والوضع الراهن، فأعلنت عن فوز عشر قصص، ثم بعد قراءة ثانية، أعلنت اللجنة عن فوز ثلاث قصص، وفي الإعلان الأخير، فازت قصة عارف التي حملت عنواناً هو: (P.O.W) التي تعني (سجين حرب)، إذ تحدثت هذه القصة عن حياة أربعة شباب، أسروا في إيران عام 1982، في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وتناول فيها معاناة أولئك الأسرى في الزنزانات الإنفرادية بسبب مواقفهم، وحظيت هذه القصة باهتمام بالغ من قبل المهتمين من الأسرى وهم كثيرون، وقد صارت أحد الكتب التي تُستعار بعد كتاب الأغاني العراقية، وديوان مختارات شعرية والنظرية النسبية.

أما الجائزة الثانية، فقد مُنحت لقصة بعنوان (حيوات)، كتبها شابٌ مغربي، وهو المغربيّ الوحيد في المخيم، ولم يُعرف عنه أنه مهتم بالكتابة، يروي في قصته حواراً بين توأمين وهما في رحم أمهما.

تبدأ القصة بتساؤل يثيره الأخ التوأم عن جدوى الحياة، وعن فائدة الأعضاء الزائدة في جسمه ومنها (العينان والأنف والرجلان واليدان...) فتجيبه أخته التوأم بأنهما سيستعملان رجليهما للمشي في الحياة الأخرى، وأنهما سيتنفسان هواءً بواسطة رئتيهما، وكذلك بقية

الأعضاء، وأنهما سينسيان تماماً هذه الحياة عندما ينتقلان إلى رحم آخر أكبر حجماً، وكان أخوها يسخر منها عندما تذكر الحياة الأخرى، ويرفض بإصرار وجود حياة خارج الرحم، إذ إنه لا يمتلك دليلاً مادياً على ما تدعيه أخته.

كادت هذه القصة تأخذ الجائزة الأولى لولا أن المؤلف جعل التوأمين يولدان، ويتبين أن أحدهما هو ابن رشد، وهو الأمر الذي جعل عادل يندهش من غرام المغاربة بابن رشد.

بعد الكتب التي ألفها عادل وعارف، صار لدى عادل رغبة جامحة في التأليف؛ لذلك قرر أن يكتب ما يحفظه من عروض الشعر العربي في كتاب مشفوعاً بكثير من الأمثلة، وما إن علم عارف وعبد النبي بمشروعه، حتى اقترحا عليه أن يقيم دورة لتعليم عروض الشعر، ثم يدوّن المحاضرات، وهي بدورها ستكون الكتاب المنشود، فرأى عادل أن اقترحهما مفيد؛ ليكون الكتاب أكثر دقة، وما إن مضى أسبوع، حتى بدأ عادل بتعليم علم العروض لثمانية أفراد، بضمنهم عارف وعبد النبي، وكان في الوقت نفسه يعلّم بعض المهتمين على انفراد، فتجاوز عدد الذين انضموا للدورة عشرين فرداً، وكان يدوّن المحاضرات، وبالتالي، تمكن من تدوين جميع البحور الشعرية، إلا أنه لم يبيض ما كتبه من مسودات.

كان عارف متعدد المواهب، فهو يجيد أداء ألحان الأغاني الغربية فضلاً عن الأغاني العربية والعراقية، وكان عندما يغني يحرك أصابعه وكأنه يعزف على آلة الگيتار، وغالباً ما يقول: (لو عندي گيتار جان خبلتكم).

ذات يوم قرر عارف أن يصنع گيتاراً من مواد أولية بسيطة متوفرة، فقد قسَم صفيحة ماء على نصفين؛ ليجعلها صندوقاً للگيتار، وحصل على قطعة صغيرة من الخشب المعاكس لتكون وجهاً للگيتار، وصنع الزند من خشبة بعرض سبعة سانتيمات وطول ثلاثة أرباع المتر، وحرص على أن تكون عريضة قليلاً من الأسفل، وبعدما حصل على سلك سميك قطعه إلى أجزاء صغيرة، صنع منها فواصل لأنصاف الدرجات الموسيقة على زند الگيتار، وقد كانت مهمة صناعة المفاتيح صعبة جداً؛ إذ هو يحتاج لوالب حديدية؛ ليربط عليها الأوتار التي استخرجها من سلك تلفون قديم جلبه له عبد النبي، إذ كان سلك التلفون يحتوي على سبعة أسلاك، ثلاثة منها مصنوعة من النحاس لنقل الطاقة، وأربعة منها مصنوعة من الفولاذ لجعل السلك أكثر مقاومة للتمدد، وقد استعمل عارف السلك الفولاذي، لصناعة الأوتار، فكانت الأوتار الأربعة السفلى (ري صول دو مي) مصنوعة من سلك واحد من الفولاذ لكل وتر، أما الوتران العلويّان (مي لا) فكانا

مصنوعين من سلكين مفتولين على بعضهما لكل وتر؛ ليعطيا طبقة واطئة.

كانت المهمة التي تحتاج إلى أذن موسيقية حساسة هي مهمة تقسيم زند الگيتار على أنصاف درجات؛ إذ سهر عارف لأيام ليضبط السلم الموسيقي بدقة. أخيراً تمت صناعة أول گيتار في مخيم سمنان الكبير، في ظروف كانت لا تسمح باستخدام الآلات الموسيقية على مستوى إيران، فكيف يُسمح بها في مخيم أسرى مشاكسين!

كان العزف على آلة الگيتار محفوفاً بالمخاطر، أهمها الخوف من مصادرة الآلة؛ لذلك كان يسبق العزف على الآلة استعدادات: أهمها حراسة الخيمة، ومراقبة الحراس الإيرانيين؛ لئلا يقتربوا من الخيمة ويسمعوا صوت الآلة، وكل ذلك دعا إلى أن تكون الدورة التعليمية التي انضم إليها عادل وعبد النبي نظريّة في البداية؛ إذ تلقّى عادل وعبد النبي محاضرات في قواعد الموسيقى الغربية من قبل عارف لمدة شهرين، بعد ذلك سمح لهما عارف بممارسة تمارين العزف على الآلة بواقع ساعة في اليوم، لحين ما تمكن عادل من صناعة آلته الخاصة بعد أربعة أشهر، وبدأ يعزف كثيراً من الأغاني العراقية والعربية والأجنبية التي جاءت على المقامات الغربية الأربعة: العجم والنهاوند والكرد والحجاز.

بعد مدة غير طويلة من إنجاز الگيتار، فكر عادل بصناعة آلة عود، فكانت صناعته أسهل بكثير من صناعة الگيتار؛ لعدم الحاجة إلى تقطيع الزند أو مفاتيح حديدية، وقد استعمل عادل نصف صفيحة، وزند أقصر قليلاً من زند الگيتار، ثم استعمل خيوط من النايلون حصل عليها من فك فردة واحدة من جوراب؛ لصناعة الأوتار، إذ توصل بمساعدة عارف إلى سمك الأوتار بعد تجارب كثيرة، فكان وتر (الدو) مؤلفاً من سبعة خيوط مفتلولة مع سبعة خيوط أخرى، ثم ثمانية مع ثمانية ليحصل على وتر الصول وهكذا إلى أن وصل إلى وتر الصول القرار.

بعد إتمام صناعة العود، أفاد عادل من عارف في ممارسة العزف، ثم أقام دورة في قواعد الموسيقى العربية استمرت ثلاثة أشهر، درّس فيها تلك القواعد بالتفصيل، حتى أنه عمل على تقوية رؤوس أصابع المتدربين بواسطة ضربها على الحجر، وكيها بالحجر المسخن بالنار لتصبح صلبة كفاية؛ لأن ذلك يجعل النغمة أكثر وضوحاً، فعازف العود، عليه أن يضغط على الوتر باصبعه لتقصير طوله.

أصبحت خيمة الأصدقاء الثلاثة نادياً للعزف وتعليم الموسيقى لمدة طويلة، فبعد أن صنع عبد النبي آلة عود، بدأ الأصدقاء الثلاثة

يعزفون بوصفهم فرقة موسيقية، لكن احتفالهم هذا كان محفوفاً بالمخاطر؛ لذلك كانوا يكتفون بالعزف لمدة ساعة أو أكثر قليلاً، مستمتعين ومفيدين من ملاحظات عارف حول بعض الأخطاء، ومستزيدين من حفظ نوتات أغاني أخرى.

في أحيان كثيرة يستمع أفراد الخيمة لعزف أحد الأصدقاء الثلاثة ولاسيما عادل الذي كثيراً ما يشتاق إلى العزف، فيخرج آلته ليعزف لمن يأتيه زائراً، علماً أنه لم يكن مبدعاً في العزف، فهو مجرد حافظ للألحان، وكان يشعر بالحرج عندما يطلب منه أحد الضيوف عزف أغنية لم يكن يحفظها، لكن المنقذ من هذا الموقف هو عبد النبي، إذ كان يعرف كل ما يحفظه عادل، وبمجرد ما يطلب أحدهم عزف أغنية لا يحفظها عادل، يتدخل عبد النبي ويقول: (لا، لا،)، ثم يطلب اسم أغنية يحفظها عادل وهو مبتسم.

كان حصيلة كل تفتيش يقوم به الإيرانيون هي أن يخسر أحد الأسرى آلته الموسيقية؛ لذلك فكر عادل بطريقة يحافظ فيها على آلته لأطول مدة ممكنة، وبما أن صندوق العود هو أكبر جزء من الآلة، فقد قرر عادل إلغاءه، وإبقاء واجهة الصندوق فقط، بمعنى أنه تخلى عن نصف الصفيحة، فكان ناتج إلغاء الصندوق هو ضعف الصوت الصادر عن آلة العود، فاكتشف عادل طريقة لسماع الصوت، وهي أن

يثقب خشبة الواجهة ثقبا صغيراً ويدس في الثقب أنبوبة مغذي طبي، ويضع الطرف الثاني للأنبوبة في أحدى أذنيه، فيسمع النغمة بجودة عالية، أفضل من صدورها عن الصندوق بكثير، وبعد اكتشافه هذه الطريقة، تخلى عادل عن واجهة العود، واكتفى بالزند فقط. وبهذه الطريقة، أصبح العزف متيسراً في أي وقت، فلا أحد يسمع صوت العود، لكن تلك الطريقة حرمتْ كثيرين من الاستمتاع بالمعزوفات، وفي الوقت نفسه، أصبح هناك كثير من الآلات؛ لسهولة إخفائها عند تفتيش المخيم.

بعد مدة وجيزة، اكتشف عادل طريقة لإظهار صوت العود للمستمعين بوضع إناء طعام مصنوع من الألمنيوم على الزند من الخلف عن طريق حفر أخدودين في الزند، وحشر الإناء (الطاسة) من الخلف بطريقة يمكن إزالتها بسرعة.

على الرغم من كل تلك الإحتياطات، إلا أن الإيرانيين عرفوا بأن لدى الأسرى آلات موسيقية، فتشددوا بالتفتيش، وزادوا من العقوبة، مما دفع الأصدقاء الثلاثة إلى التخلي عن صناعة الآلات التي كان الإيرانيون يستولون عليها أسبوعياً، وعلى الرغم من تذمر عارف وعبد النبي لحرمانهم من آلاتهم الموسيقية، إلا أنّ عادلاً ظل على

الدوام يشعر أن الإيرانيين لم يتمكنوا من سلب الموسيقى من داخل رأسه.

في أحد الأيام الممطرة أغلق عارف باب الخيمة وجلس على فراشه وبدأ يتصفح كتاب النظرية النسبية، وحين وصل إلى الصفحات الأخيرة، وجد عدة أوراق مازالت بيضاء، فأخرج قلم رصاص، وبدأ يرسم صورة لأنشتاين وهو محتجز بين قضبان الزمكان. ولما وجد أن صورة أنشتاين بدت قريبة من الحقيقة، فكر في أن يرسمها في ورقة أخرى بلا قضبان، فكانت قريبة من صورة أنشتاين المعروفة، فتبسم عارف عندما اكتشف أنه يمكن أن يكون رساماً، فالتفت إلى عادل فوجده مازال نائماً، حاله حال بقية أفراد الخيمة، فأيقضه ليريه ما أبدعه.

صحا عادل من نومه وهو يفرك عينيه وينظر إلى عارف بعين واحدة، فوضع عارف صورة أنشتاين أمام عيني عادل، وكأنه يسأله عن رأيه، فاندهش عادل من دقة اللوحة وجمالها، فتبسم عارف، وقلب الصفحة ليُري صديقه صورة أنشتاين وهو بين قضبان الزمكان، فنهض عادل من فراشه، وأخذ الدفتر وبدأ يحدق في اللوحة وهو في غاية الإندهاش، فقال عارف وهو يرفع كتفيه إلى الأعلى ويزم شفتيه:

ـ ها؟ شلونـي؟ أصلح رسام؟

= طبعاً تصلح رسام الرسامين.

فضحك عارف، وقام ليُحضر الفطور الصباحي بوصفه خفر الخيمة لذلك اليوم، فنهض بعده عادل ليساعده.

لمدة غير قليلة ظل عارف يرسم الصور الصغيرة جداً التي احتفظ بها بعض الأسرى لأبنائهم أو زوجاتهم على ورق مقوى، فتبدو وكأنها لوحات فنية بمقاييس مضبوطة. دفع اهتمام عارف هذا صديقيه إلى ممارسة الرسم، لكن عادلاً لم يفلح بذلك على الرغم من محاولاته الكثيرة، غير أنه توصل أخيراً إلى نوع من الرسم كان قد تعلمه في العراق، وهو الرسم الهندسي، في حين تطور رسم عارف، فبعد أن استمرت مرحلة رسم الوجوه كثيراً، ابتدأت مرحلة تقليد اللوحات العالمية الشهيرة من مثل المونوليزا، والطفل اليتيم، وجوبيتر يقتل ابنه، ثم بعد ذلك بدأت مرحلة إبداعية، تمثلت برسم عارف لوحات سوريالية تعبر عن معاناة الأسرى في مخيم سمنان، ولا سيما المعاناة المتمثلة بمحاولة الإيرانيين، مستعينين بالموالين لهم، السيطرة على عقول الإسرى، عن طريق عمليات غسل الأدمغة التي يقومون بها مفيدين من أثر التكرار، إذ انتبه عارف إلى أن أي شيء يتكرر كثيراً يرسخ في

الذهن حتى إذا كان مكروهاً، بل حتى إذا حاول الفرد مقاومته، فقد كان عبد النبي يدندن النشيد الوطني الإيراني عندما يحتاج للدندنة، ثم ينتبه لنفسه، لكنه يعاود دندنته كثيراً. والطريف في هذا الصدد أنّ عارفاً كان يطلق اسم (بلانشو) على الجندي الإيراني، علما أن كلمة (بلانشو) فعل أمر في اللغة الفارسية بمعنى (قُم)، يلفظه الجندي الإيران يومياً في التعدادين الصابحي والمسائي؛ لذلك ظن عارف في بداية الأسر أنه اسم لأي جندي إيراني، فهو يردد دائماً: (اجا البلانشو. راح البلانشو). والأكثر طرافة أنّ عادلاً قد اهتم كثيراً بالرسم الهندسي عندما عجز عن رسم اللوحات، لكن رسومات عادل كانت تحظى باهتمام الأسرى أكثر من رسومات عارف، ولاسيما عندما يرسم عادل سيارات وأجزاء السيارات بالتفصيل، حتى تبدو صامولة صغيرة مثل لوحة عالمية، ولم تكن تلك اللوحات تعبر عن شيء غير ذاتها؛ فهي تعتمد الشكل على حساب الفكرة، ولا يعرف عادل كيف تمكن من إجادة هذا النوع من الرسم بمرور الوقت. ومما هو طريف أيضاً، أن الأسرى ينسبون لوحات عارف لعادل، إذ إن أغلب الأسرى الذين يرون لوحات عارف، يمتدحون عادلاً؛ لأنه رسم هذه اللوحات الإبداعية. وعلى الرغم من أنّ عادلاً يخبرهم دائماً أن من رسم تلك اللوحات هو عارف، إلا أنهم لا يصدقونه، ويرددون غالباً: (بعد عادل أمين وعندك الحساب)، مشيدين بوفاء عادل لأصدقائه، في حين كان عارف غالباً ما يلتفت إلى عادل

ويقول: (حظوظ)، وكان كثير من الأسرى يشترون لوحات عارف بقليل من السجائر؛ إذ كان عارف يدخن كثيراً كعادة الفنانين المشهورين، وقد كان يشتري ببعض السجائر التي يحصل عليها من عادل ورقاً مقوى من الجنود الإيرانيين، ويرسم عليه لوحاته بسخام الفانوس.

لما اكتشف عارف أن الإيرانيين يتساهلون في قضية الرسم، ولا يستولون على اللوحات الفنية، شعر أنه تخلى عن مشاكسته، فتساءل: لماذا يمنعون الكتب التي يؤلفها الأسرى ويسمحون لهم بالرسم؟ فأجابه عادل بأنه هذه فلسفة يؤمن بها الإيرانيون قديماً وحديثاً، وهي أنهم يعبرون عن مشاعرهم بالرسم لا بالكلام، وهذه إحدى الفروقات بين العراق وإيران، ففي العراق يعبئون الشباب إلى محرقة الحرب بالشعارات المنطوقة والشعر الشعبي والأناشيد، في حين يركز الإيرانيون على تعبئة الشباب إلى المحرقة نفسها بالبوسترات، وهنا نبّه عادل صديقه إلى الصور التي يرسمها الإيرانيون للأئمة واللوحات التي تمثل معركة الطف، وغيرها.

بعد أن اكتشف عارف قدرته على الرسم، قرر أن يطور نفسه؛ ليحرر عقله من الأسوار الشائكة التي تحيط بالمخيم، والتي تجعله يشعر أنه سوف ينفجر في لحظة ما، فأراد أن يؤخر انفجاره قليلاً بأن

يشغل نفسه بعمل ما؛ لذا قرّر أن ينحت الحصى، مدعياً أن الأسير يجب أن ينحت الحصى ليبقى على صلته بوطنه.

اختار عارف الحصى الصلب؛ لأنه المادة الأولية الأكثر تواجداً في أرض مخيم سمنان، فقد كانت أرض المخيم ملئية بالحصى بأحجام مختلفة، وهو حصى صلب يصعب نحته؛ لذلك لم يكن النحت يسيراً، وقد اهتم عارف بنحت مداليات، وسوارات، وبعض الأشكال الصغيرة التي يمكن تعليقها كقلادة، أو شذرات لخواتم، ولأن عارفاً لم يحصل على عدة للنحت؛ فقد ابتكر طريقة يتحول عن طريقها الحصى إلى مواد حية، إذ كان في المخيم مساحة مبلطة بالإسمنت الصلب، استخدمها عارف لتغيير شكل الحصى إلى مكعبات أو متوازيات مستطيلات، فكان يضع حصوتين تحت حذاءيه، ويجلس عليهما القرفصاء، ثم يطلب من عبد النبي أن يجره من يديه على تلك المنطقة الاسمنتية، وما إن يتحول الجزء السفلي من الحصوتين إلى شكل مسطح، يقلب عارف الحصوتين، ثم يطلب من عبد النبي أن يجرّه مسافة طويلة على تلك الأرض الإسمنتية.

كانت هذه العملية تشبه إلى حد ما لعبة التزحلق، لذا كان كثير من الأسرى يتبرعون في الجلوس على الحصى، وكثير منهم يتبرعون بعملية الجرّ. وما إن تصبح الحصوة جاهزة، بعد أن يتحول شكلها إلى

شكل هندسي ما، يبدأ عارف بالكتابة عليها بطريقة صعبة جداً، فهو يستعمل مسماراً مصنوعاً من الفولاذ، ليكتب حرفاً أو كلمة، أو ينحت شكلاً صغيراً، وكان يكتب بالحرف الإنكليزي لسهولة نحته على الحصى الصلب.

كان في مخيم سمنان أكثر من ثلاث مئة خيمة، وكان طول الخيمة لا يتجاوز أربعة أمتار ولا يتجاوز عرضها ثلاثة أمتار، وهي متكونة من طبقتين، طبقة داخلية من الكتان، وطبقة خارجية من الجلد المشمع الذي يمنع مرور الماء، وكان في طبقة الكتان خمسة حبال مزدوجة من كل جانب، ترتبط بخمسة أوتاد لتثبيت الخيمة، وكذلك الطبقة الجلدية، فضلاً عن حبلين طويلين يثبتان الخيمة من الأمام والخلف. وهذا يعني أن الخيمة تحتاج اثنين وأربعين حبلاً، لا يقل طول كل واحد منها عن ثلاثة أمتار.

اكتشف عبد النبي أن الخيمة يمكن تثبيتها بواسطة اثنين وعشرين حبلاً فقط في الأجواء الإعتيادية، إذ يمكن الإفادة من الحبال الأخرى في صناعة شيء ما، فقد كان الحبل مصنوعاً من الكتان الأبيض، وقد تمكن عبد النبي من فك الحبل وتحويله الى خيوط قوية؛ للإفادة منها في صناعة شيء ما.

إن أول ما فكر فيه عبد النبي هو صناعة الأحذية، (گيوة)، وكان أول حذاء يحوكه عبد النبي لا يشبه الأحذية إطلاقاً؛ إذ كان غير متناسب الحجم، فبين فردة وأخرى اختلاف كبير، وكان متباعد النسيج، لكن عبد النبي طوّر عمله، وحسّنه لاحقاً، وبدأ يحوك الحذاء بطريقة لا تختلف عن الصناعة الموسعة، بل في كثير من الأحيان تكون صناعته أفضل. علماً أنّه كان يصنع الأحذية من دون ثمن في بدايات عمله، إذ كانت الأحذية المصنوعة تُقدم بوصفها هدايا للأصدقاء. إن الذي دفع عبد النبي إلى هذه الصناعة، والاحتيال على حبال الخيمة، هو قلة الأحذية التي يوزعها الإيرانيون على الأسرى، فكانت تمر مدة طويلة والأسرى بأحذية ممزقة، وهي تحديداً نعال من المطاط الرديء الذي يتحول إلى ما يشبه الخشب بمرور الزمن، ولاسيما عندما تُثلج، فكان الأسرى يبتكرون طرقاً للحفاظ عليه من التمزق، فهم يرقعونه مرات عدة؛ وهو الأمر الذي أدى إلى بروز أسرى اختصوا بهذا النوع من الترقيع، فهم يسخنون قطعة صغيرة من صفيحة تشبه السكين أعدتْ لهذا الغرض إلى أن تصبح حمراء، ثم يضعونها على الجزء الممزق، ويضعون فوقها قطعة من المطاط أخذت من نعال ميؤوس منه، بعد ذلك يسحبون قطعة التنك بسرعة واتزان، فتلتصق قطعة المطاط على المكان الممزق. وكان كثير من الأسرى يحتذون نعالات مرقعة بألوان مختلفة، فكثيرٌ من ألوان تلك الرقع تختلف عن لون النعال، وكان الأمر

طبيعياً، ولا يعرّض صاحبه للانتقاد، ولا يعرض من قام بالعمل للانتقاد أيضاً.

عندما انتشرت صناعة الگيوات التي ابدعها عبد النبي، بدأ الأسرى يحتفظون بخف النعل لغرض جديد، فبعدما كانوا يحتفظون به لغرض استعماله كوقود لصناعة الشاي، أو كمخفف لأثر الغاز المسيل للدموع، تمت إعادته إلى سيرته الأولى، بتحويله إلى گيوة، إذ كان عبد النبي يستثمر النعال التالف بالإفادة من الخف (الطرگة) ثم يحوك عليها، فهو يثقّب محيطها بواسطة سيخ رفيع يحميه على نار، وقودها ما يتبقى من النعال، ويترك بين ثقب وآخر مسافة سنتيمتر واحد، ثم يحوك قاعدته بخيط سميك نسبياً مصنوع من خيوط الجوراب المفتولة، بعد ذلك يستخدم سنارة حياكة صنعها بنفسه من سلك حصل عليه من السلك الشائك المحيط بالمعسكر، وهو غالباً ما يفك هذا السلك من المنطقة الفاصلة بين المخيم وإدارة المخيم، فهذه المنطقة لا تجعل الحراس يظنون أنَ الأسير يحاول الهروب، ثم إنها منطقة التعدادين الصباحي والمسائي، إذ من حق الأسرى الاقتراب منها في هذين الوقتين.

كان الإيرانيون يستغربون من وجود الگيوات بهذه الدقة، ولا يصدقون أن من يصنعها أسير، فهم يتهمون جنودهم بأنهم يشترون

أحذية للأسرى، وعندما عرفوا أن صناعتها من حبل الخيمة، منعوا استخدام هذا الحبل في هذه الصناعة، لكن عبد النبي لم يتوقف عن حياكة الگيوات، لكنه اشترط على من يريد گيوة، أن يأتي بالحبل من خيمته.

بمرور الوقت، أصبح لعبد النبي تلاميذ صاروا ماهرين في هذه الصناعة لاحقاً، ولم يقتصر استثمار حبل الخيمة من قبل عبد النبي وتلاميذه على صناعة الگيوات فقط، إنما استُعمل لصناعة كثير من الأشياء التي يحتاجها الأسرى، من مثل (الكليتة العسكرية) التي تقي الأسرى من البرد القارس، وكذلك القفازات، والجواريب السميكة، والكنزات، لكنهم صنعوا الكنزات بلا أكمام؛ لصعوبة ارتدائها بأكمام؛ لأن خيط الكتان لا يتمتع بمرونة الصوف، وكان عائدات عمله هذا تتمثل في علب سجائر، وبما أنّ عادلاً لا يدخن، وأنه يوزع حصته من السجائر على صديقيه، فقد اقترح أن يعطي حصته لعارف فقط، لأنه أحوج إليها من عبد النبي، فوافق عبد النبي على ذلك برحابة صدر.

كان عبد النبي مهتماً كثيراً بالإفادة من تغيير وظائف الأشياء، فكان كثيراً ما يبحث عن وظيفة أخرى لكل ما يتوفر في المخيم من أشياء، ولما رأى أن الإيرانيين مواظبون على توزيع معجون الأسنان والفرش بكثرة، حتى أنْ كثيراً من الأسرى كانوا يتمنون أن يتوقف

الإيرانيون عن ذلك، ويستبدلوا هذه المواد بالخبز، ولكثرة فرش الأسنان في المخيم؛ فكر عبد النبي وتلاميذه بتحويلها إلى أشكال أخرى بإذابتها، ومن ثم إعادة تدويرها، فبدأ بصناعة المسابح والمداليات بألوان مختلفة.

أهدى عبد النبي أول مسبحة صنعها لعادل، فبدأ يتفحصها؛ ليكشف عن خلل فيها، فلم يجد؛ إذ كانت لا تختلف عن الصناعة المعملية، فامتدح عادل عبد النبي على هذه الصناعة الدقيقة، لكنه لم يتقبل هذه الهدية، مدعياً أنه لا يحبّ التسبيح وإضاعة الوقت في تدوير خرزاتها طوال يومه، وطلب من عبد النبي أن يهديه شيئاً مفيداً، فصنع عبد النبي مدالية حمراء، على شكل منجل ومطرقة، فقبلها عادل، على الرغم من اتهام عبد النبي له بأنه شيوعي.

عندما شاعت صناعة المسابح في المخيم صار بعض الجنود الإيرانيين يطلبونها من عبد النبي، ولا يصدقون أنها من فرش الإسنان.

لم تكن لعبد النبي عدة سوى النار، وملعقة طعام، فهو يسخن فرشة الأسنان من مؤخرتها، ويقطع جزءاً منها بقدر خرزة مسبحة بواسطة رأس الملعقة المدبب، ثم يشكّها بسلك سميك نسبياً، ويبدأ بضربها من جوانبها بالملعقة باستمرار إلى أن يكوّر شكلها، أو يجعله

بيضوياً، ويكون مكان شكة السلك هو ثقب الخرزة، ثم يمرر الخرزة على النار عن بعد؛ ليكسبها لمعاناً، والغريب أن حجم الخرز متساو إلى حدّ كبير. ومما طلبه الجنود من عبد النبي، هو المداليات المختلفة التي تضاهي الصناعات الموسعة، فكانت هذه المداليات تُصنع بحسب الطلب، فتكون إمّا حروف أول الأسماء، أو مجسماً للعلم العراقي، أو قطعة فنية سوريالية تعبر عن معاناة الأسرى في مخيم سمنان.

على الرغم من أن عبد النبي يحاول أن يصنع أشياء مفيدة للأسرى ولا تثير الإيرانيين مثل الكيوات والمسابح وبايبات التبغ، إلا أنه أحياناً يستجيب لرغبات عادل وعارف في صناعة أشياء ممنوعة، فعندما أهدى لعارف مسبحة قال له: (ما اريد مسبحة، اريدك تسوي لي زارين أحسن).

وكان عارف يتوقع من عبد النبي أن يصنع له نردين من تربة الصلاة يشبهان النردين اللذين صنعهما في زانزنة بندر أنزلي، ولعب بهما مع عادل، لكن عبد النبي فاجأه حينما أهدى له نردين كبيرين بلون أحمر، مثقبين بلون أسود، صنعهما من فرش الأسنان، فقبلهما عارف وهو مندهش من جودة الصناعة، وشكر عبد النبي على هديته.

أفاد عبد النبي من فكرة صناعة سنارة الحياكة من السلك الشائك، وصارت لديه خبرة في صناعة السنارات، وقد طور هذه الصناعة إلى أن تمكن من صناعة إبرة خياطة، وقد مرت صناعة إبرة الخياطة بمراحل، كانت أولاها مرحلة الإبرة السميكة والطويلة، لكن بمرور الزمن تمكن عبد النبي من جعلها أدق، وأكثر ملاسة واستقامة، فكانت لا تختلف كثيراً عن الإبرة في الصناعات الموسعة، وكانت عدة صناعة الإبرة بسيطة ومتوفرة، فهي قطعة سلك صغيرة من السور الشائك، وقطع متنوعة من الحصى الذي يستعمل بوصفه مبرداً، وأيام من دلك السلك بالحصى. أما ثقب الإبرة، فقد مر بمراحل أيضاً؛ لأن صناعته صعبة، لكن أخيراً، اهتدى عبد النبي إلى طريقة، وهي أن يطرق السلك وهو سميك، ثم يعمل ثقباً كبيراً بواسطة مسمار، وفي أثناء طرْق السلك لجعله دقيقاً، يصغر معه الثقب، ويتحول عرضه إلى طول، وهكذا تمكّن من صناعة إبرة بثقب طويل لا يؤثر على جودة الخياطة.

بعد أن تمكن عبد النبي من صناعة إبرة الخياطة، شغَل نفسه لأشهر بإصلاح ثياب الأسرى وتحويرها مستعيناً بموديلات يقترحها عادل، وهي تحوير للثياب التي بدأ الإيرانيون بتوزيعها بعد سنتين من الأسر، فصاروا يمنحون كل أسير بذلة سنوياً.

كان الإيرانيون يوزعون على الأسرى بذلات رمادية تشبه البيجامة، وقد طبعوا على ظهر قميص البذلة POW وهو مختصر لعبارة prisoner of war التي تعني (سجين حرب)، كانت هذه الأحرف تختفي بسبب الغسل، في حين كان الإيرانيون يؤكدون على بقائها واضحة؛ لذلك قام عبد النبي بتحديد محيط الأحرف بحياكة إطار حولها، ثم تطور هذا التحديد إلى أن تحول إلى شكل جميل وفن راق؛ إذ يطرز محيط الأحرف بلون ما، ويعبئ الفراغ بلون آخر ينسجم معه، أو يجعل كل حرف من لون ما، حتى بدت الرموز التي يكرهها الأسرى تجذب الأعين نحوها. كان كثير من الأسرى يلفظون هذا المختصر (بَوْ)، وكانت هذه الترجمة اللفظية تنطبق تماماً على المعنى العربي للبو، لاسيما بعد أن روى عادل بيتاً شعرياً يفسر معنى هذا اللفظ، وهو قول شاعر أعرابي نقله الأصمعي في قصة طويلة:

البوُّ: سلخ قد حُشِيْ جلدُه يا إلفَ قرنين تقـــــــمْ أوْ

بعد ذلك تطور التطريز إلى علامات توضع على صدر البذلة، وبعض الأسرى يرغبون في تطريز أسمائهم على جيب القميص. كان عبد النبي يحصل على الخيوط الملونة من المناديل التي يوزعها عليهم الإيرانيون، إذ كانت تأتيهم بألوان مختلفة، وكان الخيط الذي ينسج منه المنديل صالحاً للتطريز أكثر من صلاحيته للخياطة.

عندما وجد الإيرانيون أن عبد النبي ماهر في الصناعات الحرفية، اقترحوا عليه أن يفردوا له خيمة مجاورة لخيمة المترجم، قرب بوابة المخيم؛ ليمارس فيها صناعته، هو وبعض من يساعدونه، وأنهم سيزودونه بالمواد الأولية، ويشترون منه ما يصنع. وافق عبد النبي على الرغم من معارضة عارف لهذه الفكرة. كان سبب معارضة عارف، هو التهم التي يتعرض لها مترجم المعسكر الذي يعيش في خيمة خاصة قرب بوابة المخيم، فكثير من الأسرى يتهمون المترجم أنه يسرب معلومات عن الأسرى للإيرانيين، فعندما ألقى الإيرانيون القبض على أحد الضباط الكبار في الجيش العراقي ممن كانوا يخفون رتبتهم العسكرية، ونقلوه إلى معسكر آخر، اتهم بعض الأسرى المترجم بأنه هو من أخبرهم بذلك.

حاول عبد النبي إقناع عارف بأنه مجرد حرفي يرغب بالإفادة من صناعته، وأنه سيبيع ما يصنعه للإيرانيين، فالتفت عارف إلى عادل الذي لم يبدُ عليه أنه يعارض الفكرة فقال: (آني ما اتوقع ان يكون عبد النبي في خيمة بعيدة عن خيمتنا)، لكن عبد النبي كان مصراً، مدعياً أن هذا قدره، مثلما كان الأسر قدره، وهنا غضب عارف، وأخبر عبد النبي بأنه سيقطع علاقته به؛ لأنه سيساهم في دعم الإقتصاد الإيراني، فخرج عبد النبي غاضباً أيضاً.

بعد مرور أيام، انتقل عبد النبي إلى خيمته الجديدة، وقد قطع عارف علاقته به، في حين كان عادل يلتقي عبد النبي خارج الخيمة، إذ اتفق معه أن يُبقي على علاقته به، لكنه لا يزوره في مصنعه؛ إذ كان الجنود الإيرانيون يتوافدون على خيمة عبد النبي يومياً تقريباً، يجلبون له المواد الأولية مرة، ويأخذون منه ما صنع هو ومساعدوه الثلاثة، من مسابح وأحذية ومداليات وغيرها، ثم يدفعون له الثمن، وهو علب من السجائر، أو(قند) وهو سكر على شكل مكعبات صغيرة؛ إذ كانت العملة المتداولة في المخيم هي السجائر والقند.

وبسبب كثرة السجائر والقند عند عبد النبي؛ بدأ يشتري ثياباً من الأسرى؛ إذ كان كثير من الأسرى المدخنين يبيعون ثيابهم لغير المدخنين، أو لمن لديهم سجائر مثل عبد النبي، أما الأسرى المدمنون على الشاي، فهم أيضاً يبعيون ثيابهم مقابل عشرين أو ثلاثين قطعة من القند.

غالباً ما كان عارف يشكر عادلاً؛ لأنه تبرع له بحصته من السجائر؛ لأن هذه الحصة الإضافية جعلت عارفاً يحتفظ بثيابه، إلا أنه يفكر في بيعهها أحياناً، وذلك عندما يخسر علبة سجائر في أثناء مقامرة ما؛ إذ كان عارف يحب الألعاب، ويقامر بلعبتي الورق والنرد وغيرهما.

كثيراً ما كان عادل يحاول جعله يترك المقامرة، وكان عارف يتوقف عن المقامرة استجابة لطلب صديقه، لكنه يعود مرة أخرى لألعابه.

كان عارف مغرماً بالألعاب والمقامرة، وكانت اللعبة الأولى التي مارسها عارف في مخيم سمنان، ثم شاعت في المخيم، هي لعبة (الهويشة)، وهي لعبة ريفية عراقية لا تحتاج إلى صناعة، إذ إنّ أدواتها بسيطة، ومتوفرة بكثرة، ولا يستطيع الإيرانيون مصادرتها، فهي تتكون من مجموعة حفر صغيرة في الأرض، وعدد من الحصى المتوفر كثيراً في أرض المخيم. يتم حفر ثماني حفر على خط مستقيم ويقابلها ثماني حفر أيضاً، وتكون المسافة بين الصفين مقدار قطر حفرة واحدة، ويمارس اللعبة لاعبان فقط، يجلس أحدهما قبالة الآخر، فيضعان الحصى في الحفر بواقع أربع حصوات في كل حفرة، بعد ذلك تبدأ اللعبة فيحمل أحد اللاعبين أربع حصوات من أية حفرة يختارها من الصف الذي أمامه، ثم يُسقط حصواتها في الحفر الأخرى على التوالي، بواقع حصوة في كل حفرة، وحين يُسقط اللاعب الحصوة الأخيرة في حفرة ما، يحمل ما فيها من حصى؛ ليسقطه في الحفر الأخرى على التوالي، ولا يتوقف عن هذه الحركة إلا في حالة كون حصوته الأخيرة سقطت في حفرة تحتوي على ثلاثة حصوات،

وكانت حصوته هي الرابعة، وهنا يأخذ اللاعب الحصوات الأربعة له، من كل حفرة فيها أربع حصوات، ليبدأ اللاعب الثاني بحمل حصوات ويفعل ما فعله رسيله.

على الرغم من أنها لعبة بسيطة إلا أن لها متفرجين؛ فشكل اللعبة وحجمها يسمح بمشاهدتها من قبل أكثر من عشرة متفرجين. لقد تعلم عارف هذه اللعبة من عبد النبي في معسكر بندر أنزلي، وقد مارسها كثيراً في مخيم سمنان بعد طرد الموالين لإيران، وكان ثمن أربع حصوات يعادل سيجارة واحدة، ففي نهاية اللعبة يستولي أحد اللاعبين على الحصوات، ومعنى ذلك أنه كسب السجائر المؤمنة عند أحد المتفرجين بوصفه حكما وبنكاً للسجائر والحصى.

بمرور الوقت اكتشف عارف أن لعبة الهويشة لعبة جامدة؛ إذ يمكن حساب مكان سقوط الأحجار، وتوقعُ مسار اللعبة من النقلة الأولى، لذلك تركتها واكتفى بالتفرج بين حين وآخر على لاعبين يقال إنهم محترفون في اللعبة، كما لاحظ أن محترفي اللعبة كانوا من أصول ريفية؛ لأنها تشيع في مناطقهم.

بعد أن هجر عارف لعبة (الهويشة)، قرر صناعة شطرنج من الصابون، فقد كان الإيرانيون يوزعون نوعاً من الصابون لا يفيد منه

الأسرى كثيراً، فهو كما يصفه عارف: (يحتاج الأسير إلى أن يغسل يديه بالنفط بعد أن يغتسل بهذا الصابون؛ ليزيل اللزوجة والرائحة العفنة التي يتركها ذلك النوع من الصابون)؛ لذلك كان الحصول عليه من أجل صناعة قطع شطرنج يسيراً. احتاج عارف إلى ست صابونات فقط؛ إذ كان حجم الصابونة هو 14×7×3 سم. والصابونة الواحدة تكفي لصناعة أربع قطع، أو ثمانية بيادق. استعملَ عارف ملعقة طعام، قام بسن طرفها الصغير؛ ليحولها إلى سكين حاد، ثم بدأ ينحت قطع الشطرنج بدقة متناهية خلال أسبوع مكتشفاً أنه موهوب بالنحت لو توفرت له أدوات، ثم حصل على قطعة كبيرة من الورق المقوى، ورسم عليها مربعات رقعة الشطرنج، واضعاً إحداثيات الرقعة على محوريها السيني والصادي. ولكي يلّون القطع باللونين الأسود والأبيض؛ استعمل سخام فانوس الخيمة، مع قليل من الماء، وبدأ يغمس القطعة في السخام بسرعة؛ لكي لا يتأثر الصابون، ثم استعمل معجون الأسنان لتلوين القطع الأخرى، وقد استعمل هذين اللونين لتلوين مربعات الرقعة أيضاً. وبعد أسبوع من العمل الجاد، أصبح لديه شطرنج لا يختلف عن الشطرنج العاجي، لكنه كان يتعامل معه بحذر في البداية، لكنه اكتشف أن الصابون لا يختلف كثيراً عن الحجر؛ إذ تصلب بحيث يصعب كسره.

كان عارف يعد خبيراً في الشطرنج، فقد أفاد منه عادل وعبد النبي وأغلب المهتمين بهذه اللعبة في مخيم سمنان الكبير؛ إذ كان لاعباً ماهراً لديه تدرج في الاتحاد العراقي للشطرنج، فقد كان أفراد الخيمة يقضون ليالي في حل الألغاز التي يحفظها عارف، والخطط التي يدربهم عليها، فعلى الرغم من أنّ عادلاً مارس هذه اللعبة وهو بعمر عشر سنوات، وقرأ كتباً كثيرة حول الشطرنج، واعتاد على لعب أهم الدسوت العالمية لأبطال العالم في الشطرنج؛ إلا أنه أفاد كثيراً من طريقة عارف في التدريب. ولما تمكن بعض الأسرى المهتمين باللعبة من صناعة هذه اللعبة، نظّمَ عارف مسابقة فرقية تكونت من عشر فرق، يضم كل فريق أربعة لاعبين، وكان عارف على رأس فريق يضم عادلاً وعبد النبي وأحد أفراد الخيمة.

لم تكن لعبة الشطرنج مسموحة في المخيم، فكان الإيرانيون يصادرونها في التفتيش، ويعاقبون من صنعها؛ لذلك كان محبو هذه اللعبة يجرون تمريناتهم بحذر شديد، ولكثرة ما استولى الايرانيون على قطع الشطرنج، بدأ المهتمون بصناعة قطع أقل جودة؛ لشعورهم بأنها سوف تُصادر منهم.

لم يكن اهتمام عارف بالشطرنج يشغله عن الألعاب الممنوعة الأخرى؛ إذ كان يتفنن في صناعة ورق اللعب، فذات يوم حصل على

قلمي جاف أحمر وأسود، فصنع ورق لعب من علب مسحوق الغسيل، ورسم عليه علامات ورق اللعب، وقد حرص على أن يكون ظهر الورقة متشابهاً؛ وهو الأمر الذي جعله يحتاج إلى كثير من علب مسحوق الغسيل. كان يحتاج إلى أربع وعشرين ورقة لعب فقط؛ لأن لعبته المفضلة هي (بوكر تكساس)، لكنه جعل أرقام ورق اللعب تبدأ من الرقم تسعة؛ وهو الأمر الذي جعل بوكر تكساس أكثر مقامرة.

إن لعب البوكر بهذه الطريقة يزيد من احتمالات تكوين المتشابهات والتسلسلات؛ وهو الأمر الذي يجعل اللعبة أكثر إثارة. وبعد أن أتم عارف صناعة الورق، صنع فيشاً من مادة المطاط بواسطة أنبوب ماء؛ إذ كان يسخن انبوب الماء الحديدي، ثم يضع فوّهته على صحن من المطاط، فيعلق في فتحة الأنبوب قرصاً من المطاط، وفي هذه اللحظة يُدخل في الجهة الثانية للأنبوب سيخاً ليُخرج قرص المطاط.

كان سعر الفيشة سيجارة واحدة، وكان لاعبو البوكر يثقون بعادل كثيراً، فهو الذي يستلم السجائر من مشتري الفيش وبضمنهم عارف الذي صنعها بنفسه. وبعد أن يتم اللعب لساعة أو ساعتين، يعيد لهم عادل سجائرهم، كلاً بحسب ما يمتلك من فيش.

طغت لعبة البوكر على الألعاب الأخرى، إذ كان كثير من الأسرى يمارسون هذه اللعبة في الليل، وغالباً ما ينتهون من اللعب ليخرجوا إلى التعداد الصباحي.

بعد مضي مدة طويلة على لعبة البوكر، فكر عارف باختراع لعبة ورق جديدة، وقد استعار قوانينها من الألعاب الأخرى، وأضاف إليها أفكاراً تحمل فلسفات إجتماعية وسياسية، فكانت لعبة جديدة سماها (كمك). وكانت ممارسة هذه اللعبة تستوجب خطوات يقوم بها كل لاعب بعد أن يتسلم اربع عشرة ورقة.

كانت يلعبها أربعة لاعبين مثل لعبة (الكون كان)، وبعد توزيع ثلاث عشرة ورقة لكل لاعب، يمرر اللاعب الأول ورقة يعدّها رديئة إلى اللاعب الذي يسبقه. ثم يسحب ورقة جديدة من الدستة الموضوعة على الأرض. ثم يرمي على الأرض ورقة أخرى يعدها رديئة ليبقى لديه ثلاث عشرة ورقة

كان الورق المرمي على الأرض يُرتب بانتظام، ويسمح للاعب سحب أية ورقة منه، على أن يأخذ معها الأوراق التي تقع فوقها مهما كان عددها.

وكانت اللعبة خالية من الجوكر؛ إذ إنّ الرقم (اثنين) يعد جوكراً لعلامته، أي إن ورقة (اثنين قلب) ـ على سبيل المثال ـ يمكن استعمالها بديلة عن أية ورقة تحمل علامة القلب.

كان سبب جعل الرقم اثنين جوكراً، هو الفكرة السابقة المتشكلة حول هذا الرقم، والتي تفيد بأنه رقم مهمش، يتعجل اللاعبون بالتخلص منه في لعبة (الكون كان)، فهو رقم حقير عند اللاعبين؛ لذلك أعاد عارف لهذا الكائن الضعيف كرامته في لعبة (كمك)، وأعاد للورق المرمي اعتباره أيضاً، وذلك بنقله من كونه مهمشاً إلى كونه مركزيّاً، وسمح للاعب أن يتخلص من الورقة غير المفيدة، عن طريق إعطائها للاعب الذي يسبقه؛ ليعرف اللاعب، بمرور الوقت، نوعَ الأوراق التي يمتلكها الرسيل، وهذا يتطلب نشاطاً في استعمال الذاكرة؛ لقراءة الأوراق التي يحملها اللاعبون. كان عارف يشعر أن هذه اللعبة تنسجم مع وضع الأسرى، فهي تتطلب وقتاً للتفكير، وهذا الوقت متوفر عند أغلب الأسرى، ثم أنها أعادت الإعتبار للمهمشين. والأسرى منهم.

لم يتمكن أغلب الأسرى من ممارسة لعبة (كمك)؛ إذ كانت تتطلب تأملا ووقتاً كافياً للتفكير، وهذا ما يجعل اللاعبين عرضة لأن يكتشفهم الجنود الإيرانيون؛ لذلك كان المهتمون بها يمارسونها في الليل بعد إغلاق أبواب الخيام. وهذه الصعوبة جعلت عارف يفكر في لعبة

أخرى يمكن أن يسمح الإيرانيون بممارستها؛ لذلك صنع لعبة سماها (احتلال العالم)، فكانت لعبة تنسجم مع كونهم عسكريين، وهي لا تحتاج إلى كثير من الجهد والمادة الأولية لصناعتها؛ إذ تصنع من قطعة من قماش الخيمة بقياس (متر × متر ونصف) يرسم عليها خارطة العالم، ويضع على الخارطة أهم الدول، ولاسيما الدول الساحلية، ثم يوزع كل لاعب من اللاعبين الأربعة فرقه العسكرية المتمثلة بفيش بلاستيكية ملونة، هي نفسها فيش لعبة البوكر، بعد أن يختار كل لاعب لونه، علما أن كل فرقة مكونة من أربعة ألوية. بعد ذلك يتبارز اللاعبون على كسب، أو خسارة لواء من الألوية، عن طريق رمي النرد الكبير الذي صنعه عبد النبي؛ ليطرد الفائزُ لواءَ الخاسرِ من خارطة العالم، وإذا احتل لاعب ما قارة كاملة، فمن حقه أن يضيف أربعة ألوية إلى جيشه.

ولما وجد عارف أن الإيرانيين قد اقروا اللعبة؛ إذ كان الجنود يشاهدون الأسرى وهم يلعبون من دون اعتراض، استغل عارف ظهر قماشة الخيمة ليصنع لعبة أخرى تشبه لعبة (احتلال العالم) من حيث المبدأ، وهي لعبة (المونوبولي)، فهي لعبة اقتصادية تجارية لا تحتاج إلى كثير من الجهد، إذ رسم عارف مربعات صغيرة بعناية قرب إطار القماشة من كل الجوانب، وكتب في بعض المربعات العشوائية أهم

الأماكن التي يمكن شراؤها، أو استئجارها، من مثل الفنادق، والكازينوات، وحديقة حيوان، إلى آخره. وصنع كاردات مربعة من الكارتون بوصفها صكوكاً ملكية لما يشتريه اللاعب. واستعمل النرد الكبير الذي صنعه عبد النبي، وأربع فيش مدورة، كل واحدة منها بلون مختلف. أما عن طريقة اللعب، فيمكن أن يتنافس أربعة أشخاص معاً في هذه اللعبة، وهم يرمون النرد تباعاً ليضع اللاعب فيشته التي تمثله في المربع الذي يصل إليه، فإذا كان هذا المربع مكاناً لمرفق سياحي، فمن حقه أن يشتريه، أو يمر به فقط، وإذا ما اشتراه، فإنه يأخذ ضريبة مرور من كل لاعب يقف فيه، وتختلف الضرائب من حيث المبلغ؛ إذ إن المرفق السياحي غالي الثمن، تكون ضريبته أكثر.

شعر عادل أن طول مدة الأسر قد أثرت في عبد النبي؛ إذ بدا متبايناً، لا يتمكن صديقاه من توقع سلوكه تجاه كثير من القضايا، فصار يدعي أشياء كثيرة لم يسمعها منه صديقاه في السابق، منها أنه يؤلف قصصاً كاذبة يدعي أنها حدثت له قبل الأسر، وغالباً ما تكون هذه القصص مدعاة للفخر بنفسه، وكان عارف يصر على أن ما يرويه عبد النبي محض خيال، وكان يسخر كثيراً من رواياته، في حين كان عادل يشعر أن عبد النبي يبحث عن تعويض ما، يملأ به الفراغ الذي بدأ يتجذر في شخصيته، ولاسيما تجاه القضايا الفكرية، فعلى الرغم من أنه

متميز بصناعة كثير من السلع التي يبيعها للإيرانيين والأسرى، إلا أنه يشعر بأنه بحاجة إلى تميز على مستوى الإبداع الأدبي، في حين يعزو عارف سلوكه الجديد إلى ضعف بدأ يدب في شخصيته؛ وهو الأمر الذي يدعوه إلى محاولة التميّز عن طريق الإساءة إلى نفسه.

كان عارف وعادل يتميزان برواية الروايات العالمية والعربية الشهيرة، حتى صارت قدرتهما على الرواية أشبه بمهنة، إذ تتم دعوتهما إلى الخيام الأخرى مقابل عدد يسير من السجائر يأخذها عارف؛ لذا ظن عبد النبي أنه يستطيع أن يفعل ما يفعله صديقاه، ولأنه لم يكن قد قرأ روايات عالمية وعربية كثيرة، فقد كان يروي قصصاً يدعي أنها واقعية مرّ بها في حياته الاعتيادية، وعلى الرغم من معرفة عادل وعارف بكذب عبد النبي، إلا أنهما كانا يستمتعان بما يقص عليهما. انتبه عارف أن قصص عبد النبي غالباً ما تكون مطورة عن حكايات رواها له بعض أصدقائه، فهو ما إن يسمع حكاية بسيطة، حتى يروي حكاية مرت به، يجعل فيها الحكاية البسيطة ثيمة لروايته، لكنه يُغرقها بالتفاصيل المثيرة. كان عبد النبي يختار مستهدفيه، فيقيم علاقة مع أفراد خيمة ما، ويبدأ بزيارتهم لمدة ساعة يومياً، ويروي لهم حكاياته إلى أن ينكشف أمره، فيذهب إلى خيمة أخرى.

بعد ان اشتهر عبد النبي برواية القصص المثيرة والممتعة، قرر أن لا يذهب إلى الخيام، إذ جعل من خيمته التي أفردها له الإيرانيون مكاناً لتجمع المستمعين، حتى أنّ عادلاً قد غيّر رأيه، وبدأ يحضر إلى خيمة عبد النبي يومياً؛ ليستمع إلى قصصه، في حين رفض عارف الحضور إلى خيمة عبد النبي كعادته، وبعد جهد جهيد تمكن عادل من إقناع عارف لكي يزور عبد النبي في خيمته، وكانت موافقة عارف لها أسبابها، وهي أنه يريد أن يثبت أن عبد النبي يكذب ليس إلا، ففي ذلك اليوم قرر عارف أن يوحي لعبد النبي ثيمات لقصصه، فقال لعادل: (اليوم راح اصعده بلوري للبصرة، ووراها اصعدة بباص للموصل).

ما إن أكمل عبد النبي قصته الأولى وهو في غاية السرور لحضور عارف، حتى بدأ عارف برواية قصة قصيرة حدثت له، مدعياً أنه كان يقود (لوري) إلى البصرة، وحدثت له مشكلة بسيطة في الطريق، وقد رواها بطريقة بسيطة من دون أية إثارة، وما إن انتهي عارف من روايته حتى انبرى عبد النبي برواية قصة محبوكة عن قيادته للوري كبير إلى البصرة، فكانت قصته مليئة بتفاصيل كثيرة عن حمولة اللوري واسمه وطاقته الاستيعابية، وعندما صار في الطريق

إلى البصرة حدثت له مشاكل كثيرة مثيرة، فقد انفجر اطار اللوري في الليل الدامس وسمع صوت ذئاب فأخرج بندقيته وطاردها...

وما إن انتهى عبد النبي من قصته المطورة، حتى بدأ عارف برواية حكاية بسيطة عن قيادة باص إلى الموصل من دون أية إثارة، وما إن انتهى منها حتى انبرى عبد النبي برواية قصة مثيرة، قال فيها إن أباه يمتلك أربعة عشر باصاً، وعبد النبي يقود أحدها، وهو خبير بالباصات، حتى أن المنشأة العراقية لنقل الركاب كانت تستعين بشركة أبيه عندما يكون هناك زحام في الگراجات. وكانت رحلاته مليئة بالمخاطر.

عندما خرج عارف وعادل من خيمة عبد النبي، سقطا على الأرض من الضحك، لا على حكايات عبد النبي، بل على بداهته العالية في الكذب، وهو الأمر الذي جعل عادلاً يخسر الرهان أمام عارف.

بعد زيارة عادل وعارف خيمة عبد النبي، صار عبد النبي يزورهما بين حين وآخر، ولا سيما حينما يعملان شاياً؛ إذ كان الإيرانيون لا يقدمون الشاي إلا مع الفطور الصباحي، لكنهم يزودون الأسرى بسكر مكعبات (قند) شهرياً، وكانت الحصة الشهرية متذبذبة، فعلى الرغم من أن الحصة المقررة شهرياً هي تسعون قطعة مكعبة

لكل أسير، إلا أن حجم تلك القطعة نادراً ما يأتي طبيعياً، فهي على الرغم من صغرها، إذ يبلغ حجمها أقل من سنتمتر مكعب، إلا أن حوافها متآكلة، وكأنها شاركت في ست معارك طاحنة أما الشاي غير المطبوخ، فنادراً ما يحصل عليه الأسرى، وإذا ما حصلوا عليه فإنهم يطبخونه مرات عدة.

كان عارف يحب الشاي كثيراً، وكان عبد النبي يحصل عليه من الجنود الإيرانيين، فيزود عادل بكميات قليلة منه، لكن عادلاً لا يخبر عارفاً بمصدر الشاي لئلا يرفض عارف تناوله.

دأب عارف على طبخ الشاي بصفيحة صغيرة سعة لتر، فهو يوقد تحتها خف حذاء مطاطي بين حجرين، وعادة ما يكون الشاي الذي يطبخه عارف أو الذي يوزعه الإيرانيون خفيفاً جداً، لكن عارفاً اكتشف طريقة بالصدفة مكنته من جعل لون الشاي أكثر سواداً، فذات يوم كان عارف في حالة عصبية، فبدأ يضرب على القدح المطاطي من الأعلى براحة يديه، بحيث تغلق الضربة دائرة القدح وكأنه يضغط الشاي داخله، وبعد دقائق من هذه الضربات تحول لون الشاي إلى أسود، وعندما جرب عادل هذه العملية، تحول شايه إلى أسود أيضاً، وبمرور الوقت صار ما اكتشفه عارف عادة جماعية في الخيمة، ثم جرت هذه العادة على المخيم، إذ قبل أن يتناول الأسرى الشاي

الصباحي يومياً، يبدؤون بالضرب على الأقداح وهم متحلقون حول الشاي داخل الخيام، وكأنهم يؤدون طقوساً أفريقية.

بعد منتصف كل شهر، يكاد السكر يختفي من المخيم، وكانت قلة السكر تؤثر في عارف وتجعله يثار بسرعة، فيصير الشاي شغله الشاغل، وحين يحصل أحد أفراد الخيمة على قطعة سكر واحدة، فإنه يقوم بطحنها، ويضع مطحون السكر على ورقة كارتون، ويعمل شاياً من بثل قديم، ويتحلقون حول دقيق السكر، ويمارسون الضرب على الأقداح و(الدشْلمه)، وهي أن يأخذ أحدهم رشفة شاي مُر المذاق، ثم يضع رأس سبابته على دقيق السكر؛ ليأخذ منه جزءاً من مئة تقريباً، ويمرره على لسانه فيشعر أن الشاي حلو.

ذات منتصف شهر، تمكن عارف من تجهيز مستلزمات حفلة شاي، إذ حصل على خف نعل، وقليل من بثل شاي كان قد طبخ ثلاث مرات فقط من قبل، وقطعة سكر واحدة، فقام عادل بطبخ الشاي بين خيمتين، ووضع عارف قطعة السكر على قطعة قماش صغير، وخرج ليحصل على حصوتين، إحداهما كبيرة يضعها تحت قطعة القماش التي سيلف بها مكعب السكر، والأخرى أصغر من الأولى ليضرب بها على لفة القماش، وبينما كان أفراد الخيمة ينتظرون الطحن واكتمال طبخ الشاي، جاء عبد النبي، ونبه عادل على أن دخان النار بدا عالياً، وهو

يخشى أن يراه الحارس الإيراني، فشكره عادل وهو يحاول تشتيت الدخان بتحريك يديه، ثم دعا عادل عبد النبي على حفلة الشاي، لكنه اعتذر من عدم الجلوس وهو ينظر إلى عارف، ولما كرر دعوته، اعتذر مرة ثانية، ومد يده إلى قطعة السكر فتناولها ووضعها في فمه وهو يقول: (شكراً جزيلا هاي كافي)، ثم رحل عبد النبي في حين كان عارف يحدق في عادل، وأفراد الخيمة يترقبون ردة فعل عارف بصمت.

جلس عارف قرب قطعة القماش محدقاً فيها، لعلها احتفظت بقليل من السكر لكن من دون جدوى، فاقترح عليه عادل أن يمارس ما كان يُطلق عليه (الخيال لمه)، وهو مصطلح بناه عادل على لفظ ومعنى (الدشلمة)؛ إذ يأخذ رشفة من الشاي المر، ويتخيل أنه يضع رأس سبابته على قطعة الكارتون التي كان من المفترض أن يضع عليها السكر المطحون، فبدأ عارف يفعل ذلك على غرار جلسات الأحلام؛ إذ كان عارف يدعو أفراد الخيمة على وليمة طعام وهمية يقترحها أحدهم، ثم يأكلون بشراهة، وفي النهاية يصوتون على أفضل وليمة قدمت لهم، وذات يوم دعاهم عارف على صحن مقترح سماه (3 B)، وعندما طلب منهم أن يتوقعوا نوع الطعام، لم يتمكنوا من توقعه، فأخبرهم أنه صحن يعد من ثلاث مواد غذائية هي (بطاطا وباذنجان

وبصل)، إذ إن المواد الثلاثة تبدأ بحرف الباء، لكن أفضل صحن فاز في ذلك اليوم، كان من اقتراح عادل، وصار الصحن المفضل في أحلامهم، هو صحن (العلم العراقي)، إذ أعد عادل صحنا وهمياً وضع فيه ثلاثة مستطيلات من الطعام، كان المستطيل العلوي طماطة مقلية، والوسطاني بصلاً مقلياً، والسفلي باذنجانَ مقليّاً، ورش بعض الكرفس في ثلاثة مواضع من مستطيل البصل، فكان ذلك الصحن غاية ما تمنوه، وأقسموا على تناوله في العراق عند عودتهم؛ ليكون طبقهم المفضل، وقد اقترح عادل إطاراً فلسفياً لذلك الصحن، وهو أنه صحن عشوائي جميل، ينتج انسجاماً أجمل، وهذا ما يتوافق مع فكرته عن نشوء الكون والإنسان.

تعرض عبد النبي لضغط شديد من قبل الاسرى؛ إذ اتهمه كثير منهم بالخيانة، وهو الأمر الذي جعله يترك خيمته المنفردة ويعود إلى خيمته الأولى، وقد أدى ذلك الى شعوره باليأس من الحياة؛ وهو الأمر الذي جعل سلوكه عبثياً، فصار لا يأخذ دوره في الاستحمام في الشتاء إلى أن بدا جسمه عفناً، وبدأ يزعج صديقيه وأفراد خيمته، فهو لا يغتسل إلا بالضغط المتواصل عليه.

ذات مرة رأى عادل قملة تدبُّ على أنفه، لكنه لم يشعر بدبيبها، وحين أخبره أن هناك قملة على أنفه قال ساخراً: (عوفها آني مربيها).

وقال مرة حين سأله عارف عن سبب عدم اغتساله لأشهر قال: (آني وطني ما أسبح للإيرانيين).

استمر عبد النبي هذا الحال لمدة طويلة، إلى أن أصيب بمرض غريب، وهو ظهور ثآليل سوداء في أغلب جسده، وحين عرضه عادل على أحد الأطباء الأسرى، نصحه الطبيب بالاغتسال يومياً، وقد عمل عادل وعارف على غسل جسم عبد النبي يومياً بالقوة، وكان كلما طلبا منه الاغتسال في النهار يصرخ بأعلى صوته:(أسبح بالليل، أسبح بالليييييييل). كان يصرخ وهو يحاول الهرب من الخيمة ودموعه على خديه، وعندما يطلبا منه الاغتسال في الليل يصرخ: (أسبح بالنهار، أسبح بالنهاااار). ولأن صوت الليل مسموع، أطلق كثير من الأسرى اسماً آخر على عبد النبي وهو:(أسبح بالنهار). كانت صرخاته هذه تتكرر يومياً لأشهر فصارت عبارته مشهورة، ثم أُرسلتْ مثلاً على من يمتنع عن الإغتسال، وبعد مدة تفاقم مرضه إلى أن صار يشعر بألم شديد لا يتخلص منه إلا بعد أن يرطب جسده بالماء، فكان عادل وعارف يقفان على جانبيه وهو يجلس بثيابه الداخلية في الحوض تحت ماء الحنفية البارد؛ لكي يتخلص من الألم، وكانت نتيجة مرضه أن أصيب بما يشبه الجنون.

لم يكن جنون عبد النبي غريباً على عادل، إذ كان يشعر أن الأسرى كلهم مجانين بدرجة ما وهو منهم، لكنه كان يقاوم الجنون بالكتابة والقراءة، وكان عارف يؤيد ما يذهب إليه عادل؛ إذ كانا يتحاوران حول هذا الموضوع كثيراً، ويحاولان تفادي جنونهما، ومما كانا يحاول تفاديه بقوة، هو كيفية تخفيف حدة التناقض بين الحياة في الخارج والحياة في الأسر؛ إذ كان عادل يُدرك أن الحياة في الخارج تتغير باستمرار، وأن الجنود الإيرانيين يرون أن الأسرى يقتربون من الجنون، فإذا ما عاد عادل إلى العراق، فإن هذا الجنون سيتجلى أكثر، وذات يوم قال عادل لعارف: (إذا عدتُ إلى العراق، ووجدتُ طفلاً يجلس فوق الثلاجة ليكتب درسه، فلا أظهر استغرابي؛ إذ لعل ذلك الوضع طبيعي)، فضحك عارف، وبدأ يردد: (لا أندهش عندما أرى بقرتين تلعبان الشطرنج على عمود كهرباء، وتدعيان أنهما تصنعان مصلاً لفايروس الجنون، كِش، ما مات).

كثرت خيبات عبد النبي، وزاد سوء حظه، فعلى الرغم من أنّ كثيراً من الأسرى مصابون بخيبة أمل عامة، إلا أن عبد النبي أصيب بتراكم خيبات الأمل؛ ففي الثاني من مايس عام 1983 فاجأ الإيرانيون الأسرى بنوع الغداء؛ إذ كانت وجبة كل أسير مكونة من رز ومرقة دجاج، وكانت حصة الفرد من الدجاج ربع دجاجة تقريباً. فتش عارف

في مفكرة عقله عما حدث في هذا اليوم، فلعله يوم عيد بالنسبة للإيرانيين، لكنه لم يجد مناسبة أو أي تفسير لهذا الكرم.

بعد مرور ساعة على وجبة الغداء شعر عارف بمغص شديد جعله يخرج ركضاً إلى الحمام، وما هي إلا دقيقة حتى شعر عادل بمغص شديد جعله يلتحق بعارف إلى الحمام بسرعة، وقبل أن يصل، وجد أنّ كثيراً من الأسرى يضيقون بالازدحام حول الحمامات، وبعضهم يجلس القرفصاء خارج الحمام، فجلس عادل ليقضي حاجته في العراء مثل كثير من الأسرى الذين كانوا يجلسون القرفصاء أمام بعضهم بين الخيام وفي الساحات. وبعد فحص مجموعة من الأسرى من قبل طبيب إيراني، ظهر أن هناك تسمماً في المخيم. استمر وضع الأسرى على هذه الحال إلى المساء، ثم زودهم الإيرانيون بحبوب مسهلة لغسل المعدة، فأزادت تلك الحبوب وضعهم سوءاً؛ فلم يبق أحد من الأسرى في الخيام؛ إذ كانوا منتشرين في الساحات يقضون حاجتهم في كل مكان من المخيم.

في صبيحة اليوم التالي تماثل أغلب الأسرى للشفاء من التسمم، ولم يبق مصاب سوى مجموعة قليلة، هم أغلب أمراء الفصائل، ومساعديهم، والمقربين منهم، وموزعي الطعام، وعبد النبي.

في اليوم التالي، لأول مرة في حياة المخيم، أجلّ الإيرانيون التعداد الصباحي إلى الساعة العاشرة صباحاً؛ ذلك لأن الأسرى مرضى. وفي أثناء التعداد الصباحي، حاول معاون مسؤول المعسكر الإيراني التخفيف عن الأسرى، فطلب منهم أن يرددوا نشيدا بعد أن يردده هو بنفسه، فأنشد لمرات عدة: (تزلي دوماً فوگ، منصورة يا تهران)، وبعد أن فهم الأسرى قصده صمتوا قليلاً، ففاجأهم عارف بقوله بصوت عال: (تظلي دوما فوگ، منصورة يا بغداد)، وبعد أن رددها عارف مرتين، استجاب أغلب الأسرى، ورددوا لازمة هذه الأنشودة المشهورة في العراق، فرفض نائب الضابط ما أنشدوا وهو يصرخ بهم: (بابا، تهران، تهران)، لكن الأسرى استمروا يرددون لأكثر من عشرين مرة: (منصورة يا بغداد، منصورة يا بغداد)، فشعر نائب الضابط أن الروح الوطنية تصاعدت لديهم؛ لأن بعضهم بدأ ينهض من مكانه وهو يردد لازمة الأنشودة، لذلك أشار بيديه لأن يتوقفوا، لكنهم استمروا، وهو الأمر الذي أدى إلى أن ينسحب نائب الضابط من المخيم وهو يحرك يديه أسفاً، وملامح الغضب بادية على وجهه.

في اليوم الثاني، شفي عبد النبي وأمراء الفصائل من التسمم، وعاد التعداد الصباحي إلى موعده المبكر، فجاء نائب مسؤول المعسكر ووجه يوحي بأنه تخلى عن مرحه، فطلب من الأسرى الوقوف تحية

للنشيد الوطني الإيراني؛ إذ تعوّد الإيرانيون أن يفتتحوا التعداد الصباحي بالنشيد الوطني الإيراني الذي يؤديه جنود إيرانيون بوصفهم فرقة إنشاد، فكانوا يقفون قرب سارية العلم الإيراني، ويرددون النشيد من دون موسيقى، وبينما هم يرددون نشيدهم الذي حفظه الأسرى من كثرة الترديد، أخطؤوا في الكلام واللحن معاً، فانتبه عارف للخطأ، فضحك بصوت عال، وضحك بعده كثير من الأسرى، وهو الأمر الذي جعل الجنود يتوقفون عن الإنشاد، ثم يعيدونه مرة ثانية، بعد أن أكمل الجنود واجبهم، خرجوا من المخيم بالرتل كعادتهم، وبقي نائب الضابط، معاون مسؤول المخيم، ومعه بعض الجنود الذين يقومون بعدِّ الأسرى.

بعد أن عد الجنود الأسرى، روى نائب الضابط قصة خروف، يسير في المزرعة، ويمشي خلفه سخل، وبينما كان الخروف يتقافز مرحاً، ارتفعت إليته، وظهر دبره، فسخر منه السخل، وهنا التفت الخروف للسخل وقال له: (تضحك عليّه؟ هاي الحالة تصير عندي كل سنة مرة، شوف روحك دومك مكشوف)، فابتسم عارف ابتسامة صفراء، حين عرف كيف هو مظهر الأسرى من وجهة نظر نائب الضابط الإيراني.

في الليل سهر الأصدقاء الثلاثة يلعبون بوكر تكساس المطور، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، شعر عارف أنه بحاجة حرجة إلى أن يتبول؛ وقد كان الثلج يملأ ساحات المخيم على ارتفاع نصف متر تقريباً، فوضع بطانية على رأسه، ولف بها جسده، وتوقف على بعد ثلاثة أمتار من باب خيمته، وجلس القرفصاء وهو يغطي جسده من الهواء البارد الذي يخترق عظامه، وما إن أكمل بولته حتى ارتجف ارتجافة كاد تسقطه أرضاً، وحين نهض ليعود إلى خيمته، ناداه حارسان داخليان إيرانيان كانا يقفان في الظلام، فاقتربا منه، ونظرا إلى مكان بولته، فقررا أن يعاقباه بأن يزحف على الثلج، فادعى أنه رمى فضلات الشاي ليس إلا، لكن أحد الجنود أصر على أنّ عارفاً قد بال على الثلج، ودللَ على ذلك بذوبان كثير من الثلج في المكان، فأنكر عارف فعلته بإصرار، وادعى أن فضلات الشاي كانت حارة، وهنا طلب منه الجندي أن يقسم بالله أنه رمى فضلات الشاي؛ فأقسم بالله وكل المقدسات أنه رمى بقايا الشاي، وفي النهاية قال له الجندي العربستاني: (زين گول وداعة صدام رميت چاي) فأجاب عارف: (وداعة صدام بلت)، وهنا انتفض الجندي، وبدأ يستنكر وهو يصرخ بصوت عال: (الله ، إمام علي، إمام حسين...). بعد ذلك بقي عارف يزحف على الثلج لمدة ساعة، وكان الحارسان الإيرانيان والمتجرم العربستاني يتحلقون حوله، وعبد النبي ينظر إليه من فتحة في باب

الخيمة ويضحك بصوت عال، في حين اكتفى عادل بالنظر إلى عارف وهو يشير إليهما بقبضة يده: (أوكي) وهو يرتجف، لكن الإبتسامة لم تغب عن محياه.

بعد أن عاد عارف إلى الخيمة وهو يرتجف من البرد، صاح بأفراد الخيمة: (دثروني، دثروني)، فألقى عليه عادل بطانيته وكذلك عبد النبي، لكنه بقي يرتجف، عندها بدأ صديقاه بتدليك جسده من فوق البطانيات، وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر بالدفء، ثم روى لأصدقائه في الخيمة ماحدث، فقد ادعى انه لم يقرر البول على الثلج، لكن هاتفاً من السماء طلب منه أن يفعل ما فعله، فصدقه عبد النبي، وتبسّم عادل، وطلب من صديقيه استئناف لعبة البوكر، فظلوا يلعبون لحين وقت التعداد الصباحي.

كانت ساحة التعداد مغطاة بالثلج، وكان الأسرى يتكورون على بعضهم، وقد تأخر الإيرانيون في إجراء التعداد، وبعد مرور ساعة جاءت مجموعة من الجنود ليفتشوا المخيم، وهذا يعني أن الأسرى سيبقون لساعتين أو ثلاثة في البرد من دون فطور صباحي.

بعد أن انتهوا من تفتيش المخيم وأخرجوا الممنوعات من ملاعق، ومقراضات ومقصات صغيرة، وبعض الآلات الموسيقية،

والدفاتر المكتوبة، بدؤوا بتفتيش الأسرى وهم في ساحة التعداد، وقبل أن يصل التفتيش إلى الفصيل السابع لاحظ عادل ملامح الارتباك على سلوك عارف، فسأله فيما إذا كان يحمل شيئاً ممنوعاً، فأخبره أنه يحمل في جيبه صورة لصدام حسين، ولا يستطيع تمزيقها، أو رميها؛ لأنه يعتز بها، في الوقت نفسه كان لدى عادل نصف موس حلاقة ممنوع أيضاً، وكان يعتزّ به كثيراً على الرغم من أنه حلق لحيته به أكثر من أربعين مرة؛ إذ كان يشحذه بشعر ساعده فيعود كالجديد بالنسبة له.

أخذ عادل صورة صدام من عارف، وهي قطعة من مجلة قديمة، ووضع فيها موس الحلاقة، وخبأها في فتحة سحاب بنطلونه من الأسفل، وحين جاء دور عادل في التفتيش، بحث الجندي الإيراني في كل زوايا ثيابه إلى أن وصل إلى الصورة، وحين فتحها سقط موس الحلاقة، ولم ينتبه الجندي إلى سقوطه؛ لذلك ركز في الورقة، وما إن عرف أنها صورة صدام حسين حتى بدأ يصرخ: (عكس صدام، عكس صدام)؛ فتجمع الجنود الإيرانيون حول عادل، وأخذوا ينظرون في الصورة، وحين حضر ضابطهم، عاقب عادلاً بأن يزحف على الثلج لغاية انتهاء التفتيش، فوجد عادل أن هذه العقوبة بسيطة جداً نسبة إلى ما كان يتوقع، فبدأ يزحف ذهاباً وإياباً وهو يبتسم للأسرى الذين يتعاطفون معه، في حين كان عارف مضطرباً لا يعرف ما يفعل.

كان خلف عادل جنديان إيرانيان يحثانه على الزحف عندما يبطئ حركته، وحين شعر بالتعب بسبب جرح في كوعه، ركله أحد الجنود برجله على مؤخرته، فقام عادل من فوره وضرب الجندي الإيراني عدة لكمات، فاستنجد الجندي؛ فتجمع على عادل أربعة جنود، تمكن عادل من مقاومة لكماتهم وركلاتهم وهو في غاية الهستيريا، وحين سقط أحدهم انقض عليه عادل، فقام الجنود الثلاثة الآخرون بركله على ظهره لينقذوا صاحبهم، وهنا تدخل جنود مكافحة الشغب بعصيهم الكهربائية، وأسقطوا عادلاً أرضاً، ثم أخذوه إلى زنزانة إنفرادية وهم يضربونه بالعصي على طول الطريق.

كان هناك عشرون زنزانة انفرادية في مخيم سمنان، في كل جهة عشر زنزانات، يفصلها ممر بعرض متر واحد يقف في بدايته مجموعة الحراس، وفي نهايته مرافق صحية، وكانت مساحة الزنزانة متراً وربع متر طولاً، ومتراً عرضاً، بارتفاع خمسة أمتار، وكانت أرضية الزنزانة منخفضة عن أرضية الممر بحوالي عشرة سنتمترات، وفي سقفها العالي مصباح كهربائي يتحكم به جنود الحراسة، وعلى الجدار الخلفي المقابل للباب، نافذة صغيرة ملتصقة بالسقف. كان الباب حديدياً، يُقفل من الخارج بقفل كبير، وفي أعلى الباب نافذة بحجم كف اليد تُفتح وتغلق من قبل الحراس، تستعمل لتقديم الطعام بصحن صغير.

ألقى الجنود عادلاً في زنزانة تحمل الرقم ثلاثة، وهي من الزنزانات المزعجة نظراً لقربها من مجموعة الحراس، وبعد أن دخل، أوثقوا يديه بقوة؛ إذ مرروا يده اليمنى من فوق كتفه اليمنى، ويده اليسرى من تحت إبطه الأيسر، ثم ربطوهما بحبل من المعصمين، فكانت يده اليمنى مرفوعة إلى الأعلى بالقرب من رأسه، ويده اليسرى تمر من تحت إبطه، وكلتاهما مشدودتان بقوة، فشعر عادل بألم في منطقتي الكتف والمعصم.

بعد مرور أقل من ساعة، فتح أحد الحراس الباب، وطلب من عادل الجلوس على ركبتيه ووجهه إلى الحائط الخلفي، ثم ألقى عليه صفيحة من الماء البارد، على الرغم من برودة شباط في سمنان، ثم ضربه على رقبته من الخلف بقفل الزنزانة وخرج، في حين كان عادل يرتجف من البرد، ولا يشعر بكثير من أعضائه.

كانت أرضية الزنزانة مليئة بالماء القذر على ارتفاع عشرة سنتمترات؛ إذ كان عادل يقضي حاجته فيه، وفي وقت الطعام، يأتون برغيف خبز، ويرمونه في الماء الآسن من فتحة باب الزنزانة. أبعد عادل نظره عن أرضية الزنزانة موجهاً نظره إلى جدارها الغارق بالبؤس البشري الذي جعله يشعر بالعذاب والحزن على أولئك البائسين الذين يحلمون بالانعتاق من هذا السواد.

أمضى عادل نهاره الأول يرتجف من البرد بسبب الماء البارد الذي يسكبه عليه الحراس نهاية كل ساعة، وهو ينظر إلى السماء من النافذة الصغيرة العالية، فيرى غيوماً كثيرة تحجب الرؤية، راغباً بالحديث مع الغيوم عن مأساته، لكنه كان يبتسم بسخرية لمجرد أن هذه الفكرة قد خطرت على باله.

عندما حل الليل شعر عادل بالبرد الشديد، فجلس في زاوية الزنزانة وهو يرتجف، جاعلاً ظهره يحتك بالحائط؛ لكي يقنع نفسه بأنه قد تدفأ قليلاً، عند ذلك شعر بأن الشظايا في ظهره قد تحركت، فاحتاج إلى أن يحك ظهره، وعندما شعر بلا جدوى تفكيره هذا، وقف على طول الزاوية، ووضع رجله اليمنى على اليسرى؛ ليحمي رجله المجروحة من الماء الذي تجمع في أرضية الزنزانة، لكن ما فعله لم يسعفه، وهنا فكر بأن يرتجف بقوة؛ لينفض ما علق من الماء على ثيابه، ولكي يشعر بالدفء أيضاً، ولعل ثيابه تحك له ظهره، لكن محاولاته باءت بالفشل.

فكر عادل بأن الشيء الوحيد الذي يجعله يحك ظهره وينقذه من البرد، هو أنْ يفك وثاقه، وهنا حاول أن يدخل رأسه من بين يده اليمنى؛ لكي يجعل يديه الاثنين أمامه، ثم يفك الحبل باسنانه، ولكي ينفذ هذه الخطة كان عليه أن ينتظر إلى أن يلقي عليه الحارس صفيحة

الماء، وما إن ذهب الحارس، وتأكد عادل من أنه قفل باب الزنزانة، تمكن بعد نصف ساعة من التمرين أن يدخل رأسه من بين يده اليمنى، وما إن صارت يداه أمامه، فك الوثاق بأسنانه، وخلع ثيابه، وعصرها بقوة، وحركها في هواء الزنزانة النتن، وبقي يحركها لدقائق، ثم ارتداها، وأوثق يده من الأمام، ورفع يده اليمنى إلى الأعلى، وأدخل رأسه.

مارس عادل عملية فك الوثاق وإعادة ربطه ليلة كاملة، وقد تمكن من أن يفك وثاقه ويعيد ربطه بسرعة عالية، فما إن يُلقي عليه الحارس الماء، ويضربه بالقفل، ويغلق الباب، حتى يُدخل عادل رأسه من بين يده اليمنى ثم يفك وثاقه، ثم يعصر ثيابه، ويحركها في الهواء ثم يرتديها، وكان يفعل كل تلك الحركات بأقل من دقيقة، فيشعر أنه تخلص من البرد، على الرغم من أن ثيابه مازالت مبلولة، ومازالت أرضية الزنزانة مليئة بالماء، ومازال بلا طعام. وقبل أن يأتي الحارس مرة أخرى بخمس دقائق، يوثق عادل يديه ويمرر رأسه من بين يده اليمنى؛ ليعود إلى الوضع الذي تركه عليه الحارس.

في اليوم الثاني سمع عادل أصوات الحراس وهم يجلبون الفطور الصباحي للسجناء، وهو قطعة خبز فقط، فحاول أن يضع ساعده الأيمن تحت فتحة الباب لئلا تسقط قطعة الخبز في الماء الآسن،

لكنه تفاجأ عندما سمع حركة قفل الزنزانة فعرف أن الحارس سيفتح عليه الباب، فانسحب إلى الحائط الخلفي، وأوثق نفسه، وما هي إلا ثواني حتى فتح الحارس الباب، ودفع بعارف إلى الزنزانة وهو موثوق بالطريقة نفسها التي أوثقوا بها عادل، ثم رمى قطعتين من الخبز في الماء الآسن وقفل الباب.

حاول الصديقان أن يتعانقا دون جدوى، لكنهما اكتفيا أن يلصقا جبينيهما على بعض لثواني ثم سأل عادل عارفاً:

ـ شجابك؟

= ضميري أنبني، وما تحملت، وكلت اضرب جندي حتى يسجنوني وياك.

ـ لكن هذا المكان مو مثل بندر أنزلي.

= إذا ظليت بالمخيم ما ارتاح.

كان الحارس يفعل مع عارف ما يفعله مع عادل كل ساعة، لكن الصديقين تقاسما صفيحة الماء البارد.

لاحظ عارف أنّ عادلاً يرفع رأسه عندما يلقي الحارس عليهما الماء، ويشرب قليلاً منه، وعندما ذهب الحارس قام عادل بفك وثاقه، فتعجب عارف مما فعله صديقه، وحاول تجربة عملية فك الوثاق، لكنه فشل مرات عدة.

بدأ عادل بتدريب عارف على العملية، وعلى الرغم من فشله في الساعات الأولى، إلا أنه نجح أخيراً بعد محاولات كثيرة؛ إذ وضع يديه أمامه، وفك وثاقه بأسنانه وأعاد ربطهما بعد أن عصر ثيابه، ثم أدخل رأسه بين يده اليمنى، لكنه تلكأ عند الحركة الأخيرة. وعلى الرغم من أنه نجح في ذلك ست مرات، إلا أنه في المرة السابعة لم يتمكن من إعادتها، فدخل عليهما الحارس، ووجد عارفاً يحاول إعادتها، فنادى الحارس حارساً آخر، وقاما بضربه بعنف وهو يصيح: (انتو ربطتوني هيچ)، وبينما كان عارف ساقطاً على الأرض وهو يصرخ، انتابت عادل مشاعر متباينة، بين الشعور بالحزن على صديقه، وكبته لابتسامة كانت تحاول أن تشق طريقها إلى فمه؛ لما يسمعه من كذب عارف وهو يحاول أن يخدع جنديين إيرانيين لا يعرفان العربية.

في ليل اليوم الثاني، فتح جندي باب الزنزانة من دون أن يلقي عليهما صفيحة ماء، وطلب من عادل النهوض ليفك وثاقه، بعد ذلك

سحبه الجندي من يده، وبينما هما يسيران في الممر الذي يفصل بين الزنزانات، سمع عادل أصواتاً من فتحات الزنزانات الأخرى يهنئونه على الخروج، والجندي يصرخ بهم (خاموش، خاموش) يطلب منهم أن يناموا، لأن الساعة تجاوزت العاشرة ليلاً.

وقف عادل أمام آمر المعسكر من دون أن يعرف سبب قدومه إليه، فنادى الضابط على مترجم، وبدأ يتحدث إليه والمترجم ينقل إلى عادل لغة الضابط وسلوكه معاً: (أنا ضابط عسكري، والعسكريون لا يهتمون بالإيديولوجيات بقدر ما يهتمون بالانضباط، والحفاظ على المعسكر هادئاً، بغض النظر عن انتماء الإسرى إلى أية جهة كانت، وأنا احترمك لأنك تحب بلدك ورئيسك مثلما أحب أنا بلدي ورئيسي، فأنا أحاسبك على سمعة الجيش العراقي وانضباطه؛ لذلك أحاسبك على عدم تنفيذ الأوامر).

لم يفكر عادل للحظة أن يروي له ما حدث بالفعل، وهو أن صورة صدام ليست له؛ إذ أنف أن يضع نفسه في موقف الترجي والتوسل.

بعد مدة قصيرة من الصمت، خلع الضابط خاتمه، وقلّبه بين أصابعه، ومسح شذرته، ووضعه أمامه على المنضدة، ثم نفخ على

زجاجة ساعته، وخلعها، وأخذ منديلاً صغيراً من على المنضدة، ومسح به زجاجة ساعته، ثم وضعها برفق جنب الخاتم. بعد ذلك نهض من مكانه مبتسماً، وكأنه يريد أن يصافح عادلاً، لكنه لكمه بقبضة يده اليمنى على عينه اليمنى لكمة أسقطته أرضاً، ثم اقترب منه وهمس بأذنه كلمات لم يفهمها عادل، ثم أصدر أمره للمترجم أن يعيد عادلاً إلى الزنزانة.

نهض عادل من الأرض وهو لا يعي ما حوله، ولا يرى بعينه اليمنى، وشعر بحرارة في وجهه ولاسيما عينه اليمنى التي تورّمت فوراً، وفي الطريق إلى الزنزانة طلب عادل من المترجم أن يخبره ما قاله الضابط، فتبسم المترجم وقال: (ستظهر لك علامة على عينك، تحميني من أعدائي وأعدائكم).

بعد أن رأى عارف عين عادل، شعر بتأنيب الضمير من دون أن يعبّر عن ذلك بالكلام، وشعر عادل بما يختلج في نفس صديقه، فأخبره أنه لم يكن سبباً في شيء، وأنّ عادلاً اختار أن يخبّئ الصورة، وهما جنديان وليسا ثائرين.

فك عادل وثاقه وبدأ يدلك عينه اليمنى، ثم أوثق نفسه وهو ينتظر الساعة القادمة ليغسل وجهه بالماء البارد الذي سيسكبه عليهما الحارس.

خرج عادل وعارف من الزنزانة في اليوم الرابع، عندما زار المخيم وفد من الصليب الأحمر لغرض تسجيل الأسرى لديه، فوجدا الأسرى متجمعين في ساحة التعداد، وأمامهم وفد من الصليب الأحمر.

تركهما الجندي الإيراني الذي أتى بهما إلى المخيم في آخر الصفوف، فجلسا وهما لا يعرفان ما الذي يحدث إلى أن وصلهما عبد النبي، وعانقهما بسرعة، ثم أخبرهما بأن الصليب الأحمر الدولي جاء ليسجل الأسرى لديه.

تجول أحد أعضاء لجنة الصليب الأحمر بين صفوف الأسرى إلى أن وصل إلى الصف الأخير، فأشار عادل إلى عينه وهو ينظر إلى عضو لجنة الصليب، فتلفت عضو اللجنة إلى مجموعة الضباط الإيرانيين الذين يرافقونه وهو مبتسم، ثم قال للعضو الآخر: (I know) .

فأدرك عادل أن عضو الصليب الأحمر مثل آمر المعسكر، بلا حيلة، لكنه أدرك أن المهم في زيارة الصليب الأحمر الدولي للمخيم، هو تسجيل الأسرى الذين ظلوا ينتظرون هذه اللحظة لأكثر من سنة ونصف، وأن تورّم عينه، وآلامه، لا تساوي شيئاً أمام معرفة أهله بأن أبنهم حي.

بعد أن ألقى رئيس لجنة الصليب الأحمر كلمة قصيرة حث بها الأسرى على الهدوء، قام بقية الأعضاء بتوزيع باجات، ونماذج رسائل دولية على جميع الأسرى، ومع كل رسالة قلم جاف.

تفرق الأسرى إلى خيامهم وهم في قمة السعادة؛ لحصولهم على باجات ورسائل الصليب الأحمر، وحينما دخل عادل إلى خيمته، رحب به أفراد الخيمة وبصديقه عارف واحتفلوا بهما على عجل لخروجهما من الزنزانة.

نظر عادل في الورقة التي استلمها وإذا هي نموذج رسالة مقسومة على نصفين، خُصص القسم الأعلى للمرسِل، والقسم الأسفل لرد أهل الأسير.

عندما غادر وفد الصليب الأحمر مخيم سمنان، أبلغ الإيرانيون الأسرى أن يكتبوا رسائلهم بخط كبير، ويتركوا سطراً بين كل سطرين، وأن يكتبوا عنوان المخيم، وهو : (طريق القدس 5).

أخفى الإيرانيون عن وفد الصليب الأحمر مجموعة من أسرى المخيم الكبير، يتجاوز عددهم ثلاثة مئة أسير، وبعد أن سُجِّل الأسرى في قوائم الصليب الأحمر الدولي بأيام، أعادوهم إلى المخيم، فظلوا بلا باجات تثبت أنهم أسرى، ثم إنهم بلا بيانات عند الصليب الأحمر، وقد تناقل الأسرى خبراً مفاده، أن الإيرانيين قد أخفوا أسرى على وفد الصليب الأحمر في كل المعسكرات الثلاثة والعشرين، وأن نسبة الأسرى المخفين على الصليب هي 10% من مجموع الأسرى الذي يتجاوز عددهم سبعين ألفاً.

كانت الباجات التي وزعها وفد الصليب الأحمر الدولي على الأسرى، بيضاً مكتوبة باللون الأسود، وعليها ختم الصليب الأحمر باللون الأحمر، وهو دائرة رُسم فيها صليب متساوي الأطراف باللون الأحمر ، كتب حوله باللغة الإنكليزية:

(International committee of the red cross)،

وهو اسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وقد وُضع الباج في كيس من المطاط الشفاف مفتوح من أحد أضلاعه.

حدق عادل في الباج وشعر أنه لم يأت بسهولة؛ إذ كافح الأسرى كثيراً من أجل إجبار الإيرانيين على تسجيلهم لدى الصليب الأحمر الدولي، وكان يخشى على الباج من أن يأخذه الإيرانيون منه في ظرف معين؛ لذلك قرر أن يزوّر واحداً مثله عندما تتوفر له أدواته.

بعد أيام حصل عادل على قلم جاف أحمر، وقلم رصاص، وورقة بيضاء مقواة، وظل لأيام يجرب عمل الباج على أوراق الكارتون حتى تمكن منه، ثم عمله على الورقة المقواة، فبدا طبق الأصل، وقد أخذ الغلاف المطاط من الباج الحقيقي ووضع فيه الباج المزور، وأراه لعارف فلم يتمكن من معرفة أيهما الحقيقي، عند ذلك طلب عارف من عادل أن يعمل باجات لعدد من الذين أخفاهم الإيرانيون، فأحب عادل اقتراح عارف، وابتدأ مشروعه بسهولة؛ إذ كان عارف يوفر له مستلزمات العمل وبيانات الأسرى، في حين كان عادل يعمل في الخيمة بصمت، إلى أن زوّر ستة وثلاثين باجاً.

أبلغت إدارة المخيم الإيرانية الأسرى، أن هناك ضيفاً سيزورهم في اليوم التالي؛ لذلك ينبغي على الأسرى التجمع في الساعة

العاشرة من صباح اليوم التالي لاستقبال الضيف، وقد تمكن عبد النبي من معرفة الضيف عن طريق جندي عربستاني كان يشتري منه المسابح التي يصنعها في خيمته السابقة.

في اليوم التالي لاحظ عادل أن التجمع كان قريباً من بوابة المعسكر، وأن المنصة التي سيلقي من عليها رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق خطبته، كانت قريبة جداً من البوابة، فشعر أن الإيرانيين يحذرون من سلوك الأسرى حيال هذا الضيف.

دخل المعارض العراقي: رئيس المجلس الأعلى إلى المخيم، ودخل خلفه كثير من رجال الحراسة العراقيين والإيرانيين، وما إن وصل إلى المنصة حتى وقف الحراس على جانبيه وخلفه. وما إن بسمل وحمدل وتحدث بجمل مبتسرة عن دوره في قدوم وفد الصليب الأحمر، حتى نهض عارف من مكانه غاضباً وبدأ بترديد شعارات، بدت للوهلة الأولى مقبولة من قبل رئيس المجلس الأعلى، إذ كان يستمع للشعارات ويتلفت إلى الضبّاط الإيرانيين، وكأنه يخبرهم أن الوضع على مايرام، وقد كان عارف يصرخ بالشعار ويشير بيديه؛ محفزاً الأسرى أن يرددوا وراءه، فردد الأسرى جميعهم بعد عارف:

ـ الموت لأمريكا.

= الموت لأمريكا

ـ الموت لإسرائيل.

= الموت لإسرائيل

ـ الموت لأعداء العراق.

= الموت لأعداء العراق

ـ الخاين شعبه نگص إيده ، الخاين شعبه نگص إيده.

واستمر ترديد الجملة الأخيرة لمرات عديدة، وفي الوقت نفسه كان الأسرى ينهضون ويتوجهون نحو المنصة، وهنا شعر رئيس المجلس الأعلى بالخطر وقال: (هل تظنون أن شعاراتكم هذه تربكني)؟ لكن ملامح وجهه وسلوكه تشي بأنه مرتبك جداً، وما هي إلا ثواني بعد عبارته الأخيرة، حتى ترك المنصة، وركض نحو سيارته، وحمايته تزيد من سرعته؛ لئلا يلحق به مئات من الأسرى الذين توجهوا نحوه وهم يهتفون بأعلى أصواتهم: (الخاين شعبه نگص إيده).

في مساء اليوم ذاته، شعر عادل أن قيادة حزب البعث في المخيم هي التي كلفت عارف بهذه المهمة، وكان مستغرباً من أن صديقه لم يخبره بما ينوي فعله، وحين فاتحه بالأمر، ادعى عارف أنه ارتجل ما فعل، لاسيما حينما ادعى رئيس المجلس الأعلى أنه كان سبباً في قدوم وفد الصليب الأحمر لمعسكر سمنان، لكن عادل لم يقتنع بما ادعاه صديقه، وكانت ملامح الحزن جليه على محياه، في حين كانت ملامح الارتباك تبدو واضحة على محيا عبد النبي، لاسيما بعد أن أخبره الجندي العربستاني أن يحذّر الأسرى من ردة فعل إدراة المعسكر على طردهم الضيف، وأضاف: أن الضيف قد قال لآمر المعسكر: (يجب معاملة هؤلاء معاملة الكلاب).

بعد مرور أيام، أعفى الإيرانيون آمر المعسكر من منصبه، وعينوا بدله نقيباً أشبه بهتلر من حيث شكله وسلوكه؛ إذ كانت شواربه هتلرية، وكذلك قصة شعر رأسه، وكان يتحدث بسرعة، وكل أجزاء جسمه تتحرك، فهو يرفع يديه إلى الأعلى ويضرب قدميه بالأرض، وكل أجزاء رأسه تتحرك حركات عشوائية، حتى بدا لعادل وعارف وكثير من الأسرى أنه مجنون.

كان آمر المعسكر الجديد يعاقب الأسرى بعد كل تعداد صباحي ومسائي يومياً، بأن يجعلهم يركضون في المعسكر لساعة، وكان

الأسرى يتضرعون بالدعاء للخلاص من هذا الضابط شبه المجنون، فإذا ما توقف أحد الأسرى عن الركض، حتى لو كان توقفه بسبب مرض ما، يقوم الجنود الإيرانيون بركله حتى يركض.

في نيسان عام 1984، أضرب الأسرى عن الطعام؛ بسبب معاملة آمر المعسكر السيئة، لكن إضرابهم لم يستمر سوى يومين، ثم خفف الضابط بعض العقوبات، وانتهى الإضراب بسلام، لكن تعامله الجديد لم يستمر سوى أسابيع معدودة، ثم عاد إلى سيرته الأولى، فبعد أقل من شهرين على الإضراب الذي قام به الأسرى، حاول الإيرانيون أن يفرضوا على الأسرى ترديد شعارات معادية للعراق ورئيسه، ومؤيدة لإيران وقائدها، وعلى الأسرى أن يرددوها في التعدادين الصباحي والمسائي، وكان شعار (لا إله إلا الله، صدام عدوّ الله) من أهم الشعارات التي شدد عليها الإيرانيون، وقد علقوا في أماكن كثيرة من المخيم، بوسترات، كتب عليها العدد 100، وعلى يساره صورة حمار، فلم يفهم كثير من الأسرى الفكرة من وراء هذا البوستر، لكن عبد النبي أخبرهم أن العدد مئة، يسمى في اللغة الفارسية (صد)، والحمار يسمى في لغتهم (آم)، عندها عرفوا أن الإيرانين يسخرون من صدام حسين بهذا البوستر.

في البداية رفض الأسرى الشعار الذي يصف صدام حسين بأنه عدو الله، لكن الإيرانيين أصروا عليه، وتنازلوا عن الشعارات الأخرى، وهي: شعار (لا شرقية ولا غربية، جمهورية إسلامية)، وشعار (إلهي إلهي، حتى ظهور المهدي، إحفظ لنا الخميني)، و (يا حكيم سير سير، احنا جنودك للتحرير)، وقد استمرت المفاوضات يومين، حتى أن نائب الضابط الإيراني المسؤول على المخيم، والذي كان يتفاوض مع الأسرى نيابة عن الضابط، أخبر الأسرى أنهم يستطيعون أن لا يلفظوا اسم صدام لفظاً صائباً وأنه سيقبل بالقول (الموت لصگبان)، فرفض الأسرى هذه الحيلة؛ لأن الفكرة من وراء الشعار هي إخضاع الأسرى، وقد أخبر عارف نائب الضابط أن القضية قضية كرامة، وليستْ قضية حب أو كره لصدام، فهمس عادل بأذن عارف: (أنا لا أرفض الشعار بسبب وصفه لصدام بأنه عدو الله، بل أرفضه لإني لا أريد أن أقول: لا إله إلا الله). فقطب عارف جبينه، وأخفى ابتسامة كادت ترتسم على شفتيه.

في اليوم الثالث كان الأسرى مصرّين على رفض هذا الشعار، فصدر أمر من قبل قيادة المعسكر بمنع دخول طعام الفطور الصباحي، وقد عرف الأسرى من نائب الضابط الإيراني أن قيادة المعسكر اتخذت قراراً مفاده أن الطعام مقابل الشعار، وعندما استمر رفض

الأسرى ترديد الشعار، استمر التجويع لوجبة الغداء وكذلك العشاء، وفي مساء اليوم التالي، تفاجأ الأسرى بأن الإيرانيين منعوا عنهم الماء أيضاً.

في ظهيرة اليوم الثالث، لاحظ الأسرى أن الماء يجري في الحنفيات، فتوجه كثير منهم إليها، وبعد أن شربوا، ملؤوا كل الصفائح والآنية والأكياس، تحسباً لانقطاعه مرة ثانية، لكنهم تفاجؤوا بالجنود الإيرانيين وهم يدخلون وجبة الغداء، حينها، تقدمت مجموعة من الأسرى نحو قدور الطعام، فحملوها ووضعوها خارج المخيم، في وسط دهشة الجنود الذين كانوا يتوقعون أن يشاهدوا الفرحة على وجوه الأسرى وهم يرون وجبة الغداء.

لقد انقلب الموقف رأساً على عقب؛ إذ بدأ الإيرانيون يتوسلون بالأسرى لأن يتسلموا الطعام، لكن كثيراً من الأسرى وقفوا عند بوابة المخيم؛ رافضين إدخال الطعام إلى المخيم.

في اليوم الرابع أغمي على بعض الأسرى من ضعاف البنية، وكان عبد النبي ومجموعة من الأسرى يحملون المغمى عليهم، ويضعونهم قرب بوابة المخيم، فيأخذهم الجنود الإيرانيون إلى مستشفى مدينة سمنان.

دأب عادل في الأشهر الماضية على ادخار قطعة خبز بحجم علبة كبريت يومياً، وكان يتركها لمدة حتى تجف، ثم يطحنها، ويدخرها في زجاجة، وعندما امتلأت الزجاجة دفنها قرب خيمته، وبهذه الطريقة تمكن من ادخار قرابة كيلو غرام من الدقيق؛ إذ كان عادل يتحسب للمستقبل، لا سيما بعد أن مرّ بتجربة إضراب معسكر بندر أنزلي، وإضراب مخيم سمنان السابق، في حين كان عارف يسخر من عادل، ويتهمه بالجنون بسبب ادخاره هذا، وكان عادل يستمر بطحن قطعة الخبز الجافة وهو يردد: (يجي يومها).

عندما تفاقمت حالات الإغماء، وبدا على عبد النبي أنه سينهار نفسياً، وأن عارفاً سينهار جسدياً، أخرج عادل زجاجة الدقيق، ووضع أربع ملاعق من طحين الخبز في صحن (طاسة) مليئة بالماء، وقلبها، وتركها إلى أن تختثر الدقيق، ثم وضعها في وسط الخيمة، ودعا أفراد الخيمة العشرة؛ ليأكلوا بالطابور، بواقع ملعقة لكل منهم، ثم يعودون دورة ثانية وثالثة إلى أن ينفد ما في الطاسة من طعام لذيذ جداً. وكان أحد أفراد الخيمة يردد بهمس: (لو جلّ النصيب اشراك) وكان عبد النبي يمتدح عادلاً بعد كل ملعقة يتناولها، وكذلك أفراد الخيمة، في حين ظل عارف يردد بعد كل ملعقة يتناولها: (شغل مجانين).

في صبيحة اليوم السادس للإضراب، قام الإيرانيون بقصف المخيم بقنابل مسيلة للدموع بكثافة، فبدأ الأسرى مقاومة هذا القصف بحرق الأحذية البلاستيكية، وبدأ أفراد الصنف الكيمياوي من الأسرى العراقيين بنشر تعليمات حول كيفية الوقاية من الغاز، وهي أن يمسحوا وجوههم بالنفط الأبيض، ولاسيما ما حول العينين، وحول الأنف، وفي الوقت نفسه تشكّلتْ مجموعات، بعضها تحمل صفائح مملوءة بالماء، يتلقون فيها القنبلة المسيلة للدموع مباشرة، أو يضعونها في الماء بعد أن تسقط على الأرض، وبعض الأسرى يحملون بطانيات مبللة بالماء، يغطون بها القنبلة بعد أن تسقط مباشرة، وبعض الأسرى، ومنهم عادل، صنعوا قفازات من قماش البطانيات، فكانوا يحملون القنبلة من الأرض ويقذفونها على الجنود الإيرانيين؛ وهو الأمر الذي جعل الجنود يقذفون القنابل من بعيد، وبذلك تقلّ فاعليتها؛ لأن القنبلة المسيلة للدموع من النوع الذي يقذف باليد، وهي مصنوعة من كرة بلاستيكية سوداء بقطر عشرة سانتيمات، فيها ثلاثة ثقوب، يخرج منها الغاز، وفي رأسها كتلة حديدية صغيرة.

حمل عارف صفيحة فيها قليل من الماء، ووقف قبالة أحد الجنود الذين يقذفون القنابل المسيلة للدموع، فتحرك عارف يميناً وشمالاً؛ ليتصيد اللحظة التي يقذف فيها الجندي القنبلة، وما إن قذف

الجندي قنبلته حتى تحرك عارف نحوها، وتلقفها في صفيحته، وفي الوقت نفسه تحرك عبد النبي نحو عارف ليغطي الصفيحة ببطانية مبللة بالماء؛ لمنع تسرب بقايا الغاز من الصفيحة. كان عبد النبي يرتدي قناعاً من البلاستك صنعه له عادل، وهو مصنوع من كيس بلاستيكي مربوط على رقبة عبد النبي بقطعة من فانيلة مطاطية، وكان الكيس كبيراً؛ لكي يحتفظ بنسبة كافية من الهواء النقي.

في نهاية حملة القصف، جلس عارف في الخيمة وهو يضع أمامه ثلاث قنابل مسيلة للدموع، تمكن من اصطيادها بصفيحته، فمسك إحداها في يده اليمنى، ولم يستغرب عندما وجدها قد صُنعت في إسرائيل.

لم يكن عادل مقتنعاً بوجود تجارة أسلحة بين إيران وإسرائيل؛ إذ قد تكون هذه القنابل من ذخيرة الجيش الإيراني في زمن حكم الشاه، لكن عارفاً أبطل رأي عادل هذا؛ وذلك عندما أراه تاريخ صنع القنبلة وهو عام 1981، أي بعد رحيل الشاه بعامين.

بعد أن تفاجأ الإيرانيون بهذه المقاومة، قطعوا الماء مرة ثانية، واستعملوا بنادق الرصاص المطاط؛ لقنص الأسرى الذين يحاولون إبطال القنابل، وقد أصابوا كثيراً من الأسرى، فمنهم من أصيب في

عينه، أو رأسه، أو يده أو ظهره، لكنها لم تؤد إلى الموت. وقد تمكّن الإيرانيون من الحد من فعالية مبطلي القنابل لمدة ساعتين، لكن الأسرى قاوموا بنادق الرصاص المطاط بارتداء ثياب كثيرة، ووضع عصابات سميكة على الرأس، وصناعة أقنعة من القماش، وقد أدرك كثير من الأسرى، بمرور الزمن، أنّ الوضعية الإيرانية لا تتراجع إلا مرغمة.

في اليوم السابع من الإضراب، أرسل الإيرانيون وفداً للتفاوض مع الأسرى، فكان المطلب الذي فاجأ الإيرانيين هو (نريد أن نموت)، وبعد إلحاح الإيرانيين على معرفة المطالب، قدم الأسرى مجموعة مطالب هي: زيارة وفد من الأمم المتحدة للمخيم، ومعه سفير عربي باستثناء سفيري سوريا وليبيا؛ لأن هاتين الدولتين وقفتا مع إيران، وبالضد من العراق في الحرب العراقية الإيرانية.

لم يتمكن عادل من معرفة من كان وراء الشروط التي وضعها الأسرى، لكنه ظن أنه تنظيم حزب البعث، وذلك على الرغم من عدم تواجد البعثيين المعروفين في الساحة، فقد كانت البعثيون يستعملون عبارة (كبار السن) في المفاوضات، إذ إن وفد الأسرى تكوّن من مجموعة من كبار السن، ولما سأل عادل عارفاً عن الذين يقفون وراء شروط إنهاء الإضراب، أجابه: أنهم مسؤولي المخيم الحزبيين.

استمرت المفاوضات لغاية نهاية اليوم الثامن، ونتج عنها موافقة الإيرانيين على المطالب؛ وهو الأمر الذي جعل مسؤولي المخيم الحزبيين يوافقون على إنهاء الإضراب، وانتظار الخطوات التي سيتخذها الإيرانيون في تنفيذ مطالبهم، عند ذلك حضر أطباء إيرانيون، لإجراء فحوص طبية للأسرى، ونصحوا بتناول شوربة عدس كوجبة أولى؛ لئلا يصاب الأسرى بمرض ما؛ لأن معدة الأسير خاوية منذ ثمانية أيام.

بعد أن وصلت أنباء إضراب أسرى معسكر سمنان إلى كثير من وسائل الإعلام؛ قررت الأمم المتحدة إرسال مندوب عن (خافير بيرز ديكويلار) الأمين العام للأمم المتحدة، ترافقه خبيرة اجتماعية وممثل عن الصليب الأحمر الدولي، وخبير صحي، وقد كان الأسرى قد استعدوا لزيارة الوفد على الرغم من تحذيرات الإيرانيين لهم بأن يلتزموا الصمت؛ إذ كان تهديدهم صريحاً، وهو أن الوفد سيزورهم يوماً واحداً ويرحل، وإدارة المعسكر ستبقى مسيطرة على المخيم دوماً.

ساهم عادل مع اللجان السرية التي تشكلت في المخيم؛ فكان أحد أعضاء لجنة الترجمة المتكونة من ثلاثة خطوط؛ إذ اتفقوا على أن يتقدم خط الترجمة الثاني، فيما إذا تعرض الخط الأول لخديعة ما، أو ألقي القبض عليه، في حين ساهم عارف في لجنة تسجيل أسماء

الأسرى، ورتبهم ووحداتهم العسكرية، وفضح انتهاكات حقوق الإنسان مثل انتزاع الإعتراف بالقوة، وفرض شعارات على الأسير، ومحاولة غسل الأدمغة عن طريق المحاضرات الطائفية، والمحاضرات التي تحرض على العنف، أما عبد النبي فقد كان عضواً في اللجنة التي تعرض كميات المواد الغذائية التي تُقدم للأسرى.

قبل أن يأتي موعد زيارة الوفد بأيام، جاءت شاحنات إيرانية كبيرة محملة بخيام جديدة، وأفرشة، وبطانيات، وأوانٍ، ومدفئات نفطية جديدة، وزعها الجنود على الأسرى بلا حساب، وقد عرف الأسرى لأول مرة أن قانون الصليب الأحمر الدولي يقضي بتوزيع رواتب على الأسرى، وذلك بعد أن وزع الإيرانيون رواتب الأشهر الستة الأولى، وهي مبلغ بسيط لا يتجاوز دولارين في الشهر، وكان مع لجنة الرواتب مجموعة تسجل ما يرغب الأسرى بشرائه من مدينة سمنان.

بحث عارف في ورقة الإعلان عن سلعة يشتريها بكل ما لديه من نقود، فوجد ذلك قرب اسم ما، مكتوب بالفارسي، فطلب من أحد أعضاء لجنة المشتريات أنه سيشتري هذا الاسم، فتبسم الجندي الإيراني، وسأل عارفاً عن معنى الإسم المكتوب، فلم يعرف معناه، وطلب منه أن لا يخبره حتى يأتي بطلبه، وبعد يوم جاءه بصفيحة زنة خمسة عشر كيلوغراماً لم يكن عليها أية بيانات، فأخذها عارف إلى

خيمته، وتجمهر أفراد خيمته قربه يسألونه عما فيها، فأخبرهم أنّ هذه هي لذة المقامرة، وأنه اشترى هذه الصفيحة بكل رواتب الأشهر الستة.

جلس عارف على فراشه ووضع الصفيحة أمامه وبدأ بفتحها بهدوء بواسطة سكين صنعها من ملعقة طعام وحصوة متوسطة الحجم، وما إن أحدث فيها ثقباً حتى فاحت رائحة تشبه رائحة المخللات، وحين أكمل فتح غطاء الصفيحة وجدها تحتوي على ثوم مخلل.

تأمل عارف الصفيحة جيداً وهو في غاية السعادة؛ لأنه ربح هذه الجائزة، ومباشرة بدأ بتوزيع جزءاً من الثوم المخلل على زملائه، ثم أغلقها بإحكام، وتدريجياً أصبحت صفيحته هذه قصة يتداولها كثير من أصدقاء عارف، ولاسيما عبد النبي.

في صبيحة يوم زيارة وفد الأمم المتحدة مطلع عام 1985، وقف الوفد خارج السور رافضاً الدخول؛ لأنه يخشى الأسرى؛ إذ أخبرهم الإيرانيون بأن الأسرى مشاكسون، وهم أشبه بالمجانين، ومن جانب آخر، أبلغ الإيرانيون الأسرى بأن يظلوا في الخيام، ومن يخرج منهم يتعرض لأقصى العقوبات لاحقاً، وما إن وقف أعضاء الوفد خلف السور الشائك ينظرون إلى الخيام حتى بدأ الأسرى يخرجون من خيامهم تدريجياً إلى ساحة التعداد بهدوء.

كان أعضاء الوفد مترددين بالدخول، لكن الدكتورة الخبيرة الإجتماعية طلبت من الضابط الإيراني المسؤول عن زيارة الوفد الدخول إلى المخيم، وحين حذرها الضابط من الأسرى، أخبرته بأنها ستدخل على مسؤوليتها، فأشار إليها بيده وهو ممتعض.

دخلت الدكتورة من البوابة الرئيسة وهي تحمل بيدها لوحة كَتبت عليها:

(I AM HERE TO HELP YOU)

في هذه اللحظة رفع عارف ورقة كارتون كبيرة مكتوب عليها: (WELCOME U.N)، ثم تلاه كثير من الأسرى الذين أعدوا عبارات ترحيب على أوراق صغيرة؛ فدخلت الدكتورة وهي مبتسمة، ثم بدأت تتمشى بين الأسرى من دون أن يقترب منها أحد منهم، وهو الأمر الذي شجّعها أن تدعو زملاءها إلى دخول المخيم.

بعد أن دخل الوفد بكامله، رتب الأسرى أنفسهم بشكل منتظم وكأنهم في التعداد، وقد كان ترتيبهم سريعاً وهادئاً، فوقف أعضاء الوفد أمامهم، وقدّم رئيس الوفد نفسه بأنه ممثل الأمين العام للأمم المتحدة، ثم قدّم أعضاء الوفد أنفسهم تباعاً، وأول ما تحدث به رئيس الوفد هو

أنه يعرف كل ما يدور في هذا المعسكر، وطلب من الأسرى أن لا يعرضوا أنفسهم للخطر؛ لأن شكل الخيام الجديدة يوضح أنها نصبت مؤخراً، وحتى لو كانت كل الخيام جديدة ومفروشة، فإن ذلك مخالف للقانون؛ إذ لا ينبغي أن يوضع الأسرى في خيام طوال هذه السنين.

استجابة لطلب الأسرى، طلب رئيس الوفد من الفريق الإيراني مغادرة المخيم؛ ليتجولوا مع الأسرى على انفراد، ويقفوا على أهم احتياجاتهم، وخلال الجولة، قدم لهم الأسرى قوائم بأسماء الأسرى، ونماذج من كميات الطعام اليومي الذي يتلقاه الأسير، فصور أحد أعضاء الوفد النماذج، وهي قطعة جبن بحجم 3×2×1 سنتيمتر للفطور الصباحي، ومغرفة رز للغداء، ومغرفة مرق للعشاء، وقطعة خبز 400 غرام ليوم كامل، ثم قدم بعض فنّاني المخيم من الأسرى لوحات فنية تصور معاناة الأسرى، أهمها اللوحة التي تصور جمجمة أسير وعليها قيود من حديد، تعبر عن محاولة الإيرانيين غسل الأدمغة بالقوة، وتقييد العقل.

سارت الحياة في المخيم بشكل طبيعي بعد زيارة وفد الأمم المتحدة، لكن عادلاً لم يكن مطمئناً؛ إذ كان يشعر أن الإيرانيين لم يفوتوا ما فعله الأسرى؛ لذلك كان متحسباً لأي طارئ، فبعد أن نجح الأسرى في إيصال معاناتهم إلى الأمم المتحدة، سُجِّلَ انتصار الأسرى

هذا لحساب تنظيم حزب البعث في المخيم؛ لذلك نما تنظيم حزب البعث بشكل سريع، وبدأ بتهديد غير المنتمين له، واتهامهم بشتى التهم، ولاسيما بالشيوعية، أو الولاء لإيران، وقد تعرض عادل مرتين للتحقيق بسبب تهمة الإنتماء للشيوعية؛ إذ كان البعثيون يظنون أن في المخيم تنظيماً شيوعياً، وأنهم تمكنوا من تحديد قادته، وكان عادل ممن اتهموا بالإنتماء لهذا التنظيم، حتى أن أحد البعثيين قال له وهو غاضب: (أگص إيدي إذا ما طلعت عضو لجنة محلية)، فأجابه عادل بغضب أيضاً: (راح تگصها إذا چنت شجاع وصادق). إن ما أثار غضب عادل واستغرابه، هو اتهامه بأنه عضو لجنة محلية في الحزب الشيوعي، وهو قد أسر وعمره لا يتجاوز ثلاثة وعشرين سنة؟!

في اليوم التالي استدعاه أحد قيادات الفرق إلى خيمته، وحين وصل عادل، وجد ثلاثة من الحماية، ضخام الجثث يقفون بباب الخيمة، وهناك أربعة منهم في الداخل، من ضمنهم عضو قيادة الفرقة. اتهمه هذا العضو أنه شيوعي، ثم ألقى كل أخطاء الشيوعية عليه، وكان دليله أنّ عادلاً لا يوافق على الإنتماء إلى التنظيم. كان القيادي يتحدث والثلاثة يهمّون بضرب عادل من خلال حركاتهم التي توحي له بعدم مقاطعة الرفيق، أما الحماية الذين يقفون في خارج الخيمة، فكل دقيقة

أو دقيقتين يدس أحدهم رأسه وينظر إلى عادل وهو ينتظر الدخول لضربه؛ إذ تعوّد هؤلاء على ضرب أي أسير يتم استدعاؤه للتحقيق.

عرف الإيرانيون بأن تنظيم حزب البعث في المخيم الكبير قد تشكل ونما وهيمن؛ لذلك اتخذوا قراراً بتشتيت المخيم، لكنهم لم ينفذوه إلا بعد أن قُتل مترجم المخيم.

كان المترجم شاباً وسيماً يجيد الفارسية، وقد وضع له الإيرانيون خيمة خاصة قريبة من بوابة المعسكر بالقرب من خيمة عبد النبي السابقة، فإذا ما احتاجوا إلى الحديث مع الأسرى، فإنهم يصلِون إلى المترجم بسهوله؛ لقرب خيمته من البوابة.

ظن كثير من البعثيين، وقليل من غير البعثيين أن هذا المترجم يخبر الإيرانيين عمّا يجري في المخيم، وذات صباح، سمع عادل خبر مقتل المترجم على يد ثلاثة من الأسرى، وأنهم ضربوه بالأوتاد الحديدية التي تثبّتُ بها الخيمة، فمات من فوره، وقد تفاجأ عادل عندما عرف أن المنفّذ الأول لهذه العملية هو آمر حضيرته، يشاركه اثنان من الأسرى.

كان آمر الحضيرة شاباً لا يتجاوز عمره خمساً وعشرين سنة، وكان هادئاً ومؤدباً، ولم يلاحِظ عليه عادل ملامح غضب في أصعب الظروف التي مر بها الأسرى، وقد كان كتوماً على الرغم من أنه يحب الطرائف ويضحك بصوت عال.

أصر عبد النبي أنّ عارفاً على علم بقضية مقتل المترجم، واتهمه بالتناقض، وذكّره بأنه طلب أن يكون المترجم أسيراً عراقياً في بندر أنزلي، أما في سمنان فهو كثيراً ما يُدين المترجم ويتهمه بالخيانة، فوافقه عارف على ذلك، لكنه أنكر أن يكون قد ساهم في قتله، وحاول أن يُثبت لصديقيه أنه يجهل ما حدث، ولم يبلغه أحد بالأمر؛ إذ على الرغم من أنّ عارفاً عضو في تنظيم حزب البعث في المخيم، إلا أنه لم يكن من قادة التنظيم. لم يقتنع عبد النبي بما قاله عارف، وطلب منه أن ينقد ذاته مرة واحدة، وأن يعترف أنه قد أخطأ، فادعى أن النقد الذاتي أحد ثوابت حزب البعث، لكنه نقد الماضي العربي ومحاولة جديدة لكتابة التاريخ، وعلى الرغم من وضوح الفكرة، إلا أن كثيراً من الناس ومنهم بعثيون، حوّلوا هذا النقد من المجتمع والتاريخ إلى نقد الفرد لنفسه. في الوقت الذي أسهب فيه عارف في محاضرته حول النقد الذاتي من وجهة نظر حزب البعث، كان عادل صامتاً ينتابه كثير من الحزن وقليل من القلق، متأملاً عارفاً وهو يهرب من الموضوع؛ ليفلت

من مواجهة اتهام عبد النبي له، في الوقت الذي كانت فيه عينا عبد النبي تتنقل بين صديقيه.

ما إن اكتشف الإيرانيون أمر مقتل المترجم حتى تقدم لهم المنفذون الثلاثة، وسلموا أنفسهم من دون أن يُطلب منهم ذلك؛ إذ توقع المنفذون أن تكون ردة فعل الإيرانيين انتقامية.

أدت علمية قتل المترجم إلى حادثة أخرى، إذ كان هناك شاب مخنث، بحسب ادعاء كثير من الأسرى؛ لذلك لم يقبله أحد في خيمته؛ فلجأ الإيرانيون إلى وضعه في خيمة عبد النبي التي تركها قبل مدة، وهو الأمر الذي جعل بعض الأسرى يظنون أنه خائن، وأنه ويخبر الإيرانيين عما يحدث في المخيم، وفي عصر يوم مقتل المترجم وجدوه مدمى؛ إذ ضُرب بوتد خيمة على رأسه.

كان عادل يعرف جيداً أن من قام بهذا العمل هو أحد أفراد خيمته أيضاً، وهو رجل كان نائب ضابطٍ في الجيش العراقي، وقد شعر بالإهانة لأن صديقه آمر الحضيرة لم يشركه بعملية قتل المترجم، فأراد أن يفعل شيئاً بطولياً من وجهة نظره، ولحسن حظ الشاب، أنّ ضربة نائب الضابط لم تكن قاتلة، وقد بقي ذلك الشاب في خيمته مشلولاً لحين نقله من المخيم إلى مكان آخر.

في مساء يوم مقتل المترجم، خرج عادل مساء ليتمشى مع عارف، كانا يتبادلان الحديث عن السينما والمسرح والشعر والرواية غالباً، ولما وصلوا إلى الساحة الخلفية للمخيم، وقفا قرب عمود أعد لتُوضع عليه، مع عمود آخر، شبكة كرة طائرة وعَد الإيرانيون بها الأسرى.

أخبر عادل عارفاً بأنه ما زال غير مصدق ادعاء عارف بأنه لم يعرف بنوايا التنظيم حول مقتل المترجم، فبدت ملامح الاستغراب على وجه عارف، فوضع يده على كتف عادل وقال له:

ـ مستحيل أعرف وما اخبرك. معقولة عادل؟

= لو كان المنفذ من غير حضيرتنا معقولة.

ـ ثق عادل ما أدري. شنو آني عضو شعبة؟

= ليش بس أعضاء الشعب يخططون بالمخيم.

ـ إي بس أعضاء الشعب، وآني كلي علي بعضي نصير بالتنظيم.

سكت عادل قليلاً ثم سأله فيما إذا كان يعرف بعملية ضرب الشاب المتهم بأنه مخنث وخائن، فأجاب عارف بأنه لا يؤيد ما حصل: أما عن كونه مخنثاً، فهذا شأنه هو، وهناك كثير من المخنثين في المخيم، أستطيع أن أحصي لك ثلاثين منهم على الأقل، وأما عن كونه خائناً فأنا أشك بذلك، القضية وما فيها، قضية رد اعتبار لنائب الضابط الذي شعر بأنه ليس وطنياً.

وبعد أن أكمل عارف كلامه، تحدث عادل عما ستنتجه هذه الجريمة، فهي ستدمر المخيم، وينتهي زمن قيادة المعسكر بواسطة العراقيين أنفسهم. كان يرى أن الإيرانيين لن يفوتوا ما حدث، فقاطعه عارف، ليخبره أن رأيه هذا يدلل على أن المترجم عميل للإيرانيين فعلاً، فلو لم يكن كذلك لسكت الإيرانيون عن الرد، فهو مجرد أسير قتله أسير مثله، وهو لا يعني لهم شيئاً، فقد سلّم من قاموا بهذا العمل أنفسهم، وستجري محاكمتهم على جريمة جنائية بعيدة عن الآخرين، لكنّ عادلاً كان مصراً على ردّ الإيرانيين سيكون سريعاً.

بينما كان الصديقان يتحدثان أخرج عارف علبة سجائر شبه خالية، وقدم لعادل نصف سيجارة، فأخذها منه، عند ذلك انتبه عادل إلى أنه لا يدخن، وهذه المرة الأولى التي يقدم له أحد أصدقائه نصف سيجارة ويأخذها منه. استأذن عارف ليحصل على جذوة نار من أسير

كان يدخن على مقربة منهما، ولما عاد، ناول عادلاً سيجارته ليوقد سيجارته منها، ففعل، وما إن سحب عادل نفساً حتى شعر بدوار كاد يسقطه على الأرض، لولا أنه تشبثت بالعمود القريب، وشعر بحرقة في بلعومه، فابتسم عارف وقال: (هنيالك، دخت؟) ثم شرح له أثر السيجارة الأولى.

ظل عادل يدخّن سيجارة واحدة في مساء كل يوم لمدة شهر تقريباً، قرب العمود نفسه، ثم اعتاد على هذا المكان حتى بعد أن انتحر أحد الأسرى قربه، حين رمى نفسه في النهار على السور الشائك، على الرغم من تحذيرات الحارس من خارج السور، ولما رأى الحارس أن الأسير مصر على إدعاء الهرب، قتله برصاصتين في صدره.

قد اعتاد عادل أن يتكأ على عمود ساحة الطائرة ينظر إلى المخطط الذي رسمته الشرطة بالجبس حول جثة الأسير المنتحر، وهو يتخيل نفسه نائماً في المخطط، لحين ما اختفى الأثر.

في منتصف عام 1985 لاحظ الأسرى أن الإيرانيين يضعون منذ مدة أسساً لإنشاء بنايات على الجانب الشمالي من المخيمين، وشاع بين الأسرى أن الإيرانيين ينوون تشتيت المخيم الثاني الصغير؛ بسبب

اضطرابات بين الأسرى أنفسهم عرفها أسرى المخيم الكبير عندما وصلتهم رسالة مطولة كُتبت على طائرة ورقية.

كان بعض الأسرى من المخيمين يتبادلون الرسائل عن طريق طائرات ورقية، فإذا كانت الريح باتجاه المخيم الصغير، يقوم أحد الأسرى بتطيير طائرة ورقية، ثم يقطع خيطها وهي فوق سور المخيم الصغير القريب منه، لتسقط في منتصف المخيم الصغير وهي محملة بآخر أخبار الأسرى، وكذلك يفعل بعض أسرى المخيم الصغير.

بعد منتصف الليل، جلس عادل على صفيحة مقلوبة خارج الخيمة، منتظراً أن يرى طائرة ورقية تحمل أخباراً من عماد، الذي اتفق معه في آخر رسالة أن يطير طائرته في أول رياح شرقية من كل شهر فردي، ويرد عليه عادل في أول رياح غربية من كل شهر زوجي، من دون أن يذكروا أسماءهم.

بعد مرور ساعة أو أكثر قليلاً، غمرت عادل الفرحة وهو ينظر إلى الطائرة وهي تحلق فوق إدارة المعسكر، وبعد أقل من دقيقة، قطع عماد خيط طائرته وهو يبعث وراءها قبلة في الهواء، فبدأت الطائرة تسقط وعادل يتوجه بهدوء إلى مكان سقوطها، وحين عثر عليها، كسر عيدانها، ولف ورقتها وعاد إلى الخيمة.

(أحبّائي (ع) مشتاق إليكم كثيراً، أنا بخير، وأرجو أن تكونوا كذلك.

حاولت أن لا أبعث هذه الرسالة؛ لأنها تحمل أخباراً سيئة: وهي أن أسرى مخيمنا سيتقاتلون فيما بينهم؛ بسبب اختلاف بين القيادات العسكرية والحزبية، وقد أدى الاختلاف إلى بروز قيادتين تتصارعان على قيادة المخيم؛ لأنّ الضباط الكبار، وهم كثر في مخيمنا، بدؤوا يبرزون بوصفهم قيادات تحاول التعامل مع الأسر بأسلوب عسكري، بعيداً التنظيمات الحزبية، ويرون أن التنظيمات الحزبية قد أخفقت في الحفاظ على المكاسب، وأن بقاء التنظيم كما هو سيؤثر على الأسرى سلباً، في حين كان البعثيون الكبار يرون أن التنظيم يحافظ على بقاء الأسرى مخلصين لوطنهم، ولا ينجرون لموالاة إيران.

ختاماً، تحياتي. موعدنا الرياح).

بعد أيام من رسالة عماد إلى عادل، قام الإيرانيون بحملة تنقلات بين الأسرى، فنقلوا مجموعة من أسرى المخيم الصغير إلى المخيم الكبير، وكان عماد سركيس مع المنقولين، وفي الوقت نفسه نقل الإيرانيون مجموعة من المخيم الكبير إلى معسكر (قصر فيروزة)،

البعيد عن سمنان، ثم بعد مدة نقلوا مجموعة قصر فيروزة إلى معسكر (تختي)، ثم حولوهم إلى معسكر (الداودية)، واضطروا بعد ذلك إلى إعادتهم إلى المخيم الكبير، بعد أن قسموه على قسمين، وضعوا في أحد قسميه المجموعة التي تمت إعادتها من معسكر الداوودية.

شيئاً فشيئاً بدأت البنايات التي ينشئها الإيرانيون تكمتل، فأصبحت أربع جملونات كبيرة يتسع كل جملون منها إلى 500 أسير تقريباً، لكن الإيرانيين لم ينقلوا أسرى المخيمات الثلاثة إلى تلك الجملونات، بل جاؤوا بمجموعة من الأسرى الموالين لإيران، متطوعين من معسكرات أخرى، ووضعوا في كل جملون مئة موال لإيران، ثم بدؤوا بنقل أسرى المخيم الكبير بالتدريج، فهم ينقلون خمسة أسرى، ويضعونهم مع مئة متطوع؛ للنيل من أسرى المخيمات، وهكذا يصبح هؤلاء الخمسة تحت رحمة المئة، لحين ما يخضعونهم، ثم ينقلون خمسة أسرى آخرين. والإيرانيون بذلك يكررون تجربة بداية تشكيل معسكر سمنان في نهاية عام 1982على الرغم من فشلها.

كان الأسرى يخرجون إلى بوابة المخيم الكبير بالمئات؛ ليودعوا المعتقلين، وكان عادل يشاهد عملية خروجهم وهم يشيرون بأيديهم، مودعين أصدقاءهم، لكنه توقف عن متابعة مشاهدتهم هذه، استجابة لنصيحة عارف الذي يرى أن من يتعرض إلى تعذيب شديد،

يكون على استعداد لذكر آخر وجه شاهده قبل التعذيب، وكان ذلك يفسر مسألة طالما حيّرت عادل، وهي أن المجموعة التالية التي يأخذها الإيرانيون، تكون قريبة من المجموعة السابقة، بوصفهم أصدقاء أو زملاء لهم.

ذات يوم رأى أفراد الخيمة أن يختاروا آمر حضيرة جديداً بدلاً عن الآمر الذي قتلَ المترجم، وبعد أن اتفقوا على اختيار عبد النبي آمراً للحضيرة، كتب عادل ساخراً عبارات على ورقة صغيرة قال فيها: (قرر مجلس قيادة الحضيرة في اجتماعه المنعقد في الثالث عشر من آب من عام 1985 ما يلي: إعفاء آمر الحضيرة من منصبه بسبب الغياب، وتعيين عبد النبي مرهون آمراً للحضيرة) ثم علق الورقة تحت ورقة كتبها عادل قبل أيام، تتحدث عن الشروط الدنيا التي أقرها القانون الدولي والتي تنظم احتجاز الأسرى، وتشمل المسائل المتعلقة بمكان الاحتجاز والغذاء والملبس والنظافة والرعاية الطبية).

حين حل وقت التعداد، دخل الجنود الإيرانيون لتفتيش المخيم، وعندما أكملوا التفتيش وخرجوا، استدعى الإيرانيون أفرادَ الخيمة إلى خارج المخيم، ثم ألقوهم في الزنزانات الإنفرادية من دون أن يعرفوا السبب.

كانت الزنزانات مزدحمة بالسجناء، وهو الأمر الذي استوجب أن يضع الإيرانيون كل سجينين في زنزانة، وشاءت الصدف أن يكون عادل وعارف في الزنزانة التي تحمل الرقم واحد. استغرب عارف من وضعهما في الزنزانة الأولى؛ إذ يعني هذا أنهما مقصودان، وأنهما سيتعرضان للتعذيب أكثر من غيرهما؛ إذ اعتاد الإيرانيون أن يضعوا السجين الأخطر في هذه الزنزانة القريبة من نقطة الحراسة.

كانت الزنزانة خالية من الفراش، أو الغطاء، وعلى جدرانها بقايا دماء جافة، وخربشات خطوط مختلفة، وكلمات تعبر عن آلام وأحزان السجناء السابقين.

عندما حل الليل شعر الصديقان أن سجنهما هذه المرة أقل إيلاماً مما تعرضا له عندما سجنا بسبب صورة صدام حسين؛ إذ لم يكونا مكتوفين، ولم يسكب عليهما الحراس صفائح الماء البارد، لكنهما كانا قلقين من سبب سجنهما، إذ هذه المرة الأولى التي تتعرض فيه حضيرة كاملة من ثمانية أفراد للسجن بقرار واحد.

في اليوم الثاني استدعيَ عادل من قبل ضابط التوجيه السياسي ليحقق معه، فسأله عمن كتب مضمون الورقة الصغيرة التي وجدها الجنود معلقة على باب الخيمة، فنظر عادل في الورقة التي كتبها يوم

أمس وابتسم، فاعترف للضابط أنه هو من كتبها، وأنها مجرد مزحة، لكن الضابط لم يصدق ما قاله عادل، وطالبه بالاعتراف على مجلس قيادة الحضيرة، وعلى ارتباط مجلس قيادة الحضيرة بمجلس قيادة المخيم! إذ ظنّ الضابط أن مصطلح الحضيرة يعني مجموعة منظمة، فحاول عادل جاهداً أن يقنع المترجم الفارسي بأن الحضيرة هي مجموعة أفراد الخيمة ليس إلا، وهو مصطلح استعاره الأسرى من الجيش، إلا أن الضابط أصرّ على رأيه فأعادوا عادلاً إلى الزنزانة.

أخبر عادل صديقه عارفاً عما دار بينه وبين ضابط التوجيه السياسي، فتبسم عارف، ولكنه سرعان ما بدا الحزن على ملامحه، فسكت الصديقان لمدة قصيرة، ثم حاولا أن يتخذا وضعاً مناسباً للنوم، فتوسد عارف حذائيه وكوّر جسمه إلى أن تحول إلى نصف دائرة، وكذلك فعل عادل، وغطا في نوم عميق.

كان الإيرانيون يأتون بالطعام في موعده، ويسمحون بأن يطلب الأسير زيادة في الطعام، وعلى الرغم من ذلك، كان عادل لا يكمل طعامه لشعوره بالكآبة، وأنه سببٌ في ما يحدث لأفراد خيمته، والذي زاد من حزنه، هو أنه بريء مما يظنه الإيرانيون؛ إذ هذه المرة الأولى التي يوضع فيها في زنزانة وهو بريء من أية مشاكسة.

في عصر اليوم الثاني، دخل حارسان، وكان كل واحد منهما يحمل هراوتين بيديه، فأخرجا عارفاً إلى الممر، فعرف عادل أن التعذيب سيكون قاسياً، لكنه لم يترجاهما، ولم يحاول إقناعهم ببراءته؛ لأنه يعرف جيداً أن الأمر ليس بأيديهما، فهما أداتان، يتلقيان الأوامر من ضابط التوجيه السياسي، وهذا المنصب لا يشغله إلا الضباط المؤدلجون القساة، مثله مثل ضباط التوجيه السياسي في الجيش العراقي. طلب الجنديان من عادل أن يقف في وسط الزنزانة بالضبط، فرجع عادل قليلاً إلى الخلف، فسحبه أحدهما، ووضعه في وسط الزنزانة، وعندما استقرت وقفته في الوسط، وضع أحدهما رأس عصاه الكهربائية على رقبة عادل، ثم صعقه، فارتد عادل لاإرادياً؛ وهو الأمر الذي جعل رأسه يرتطم بالجدار الخلفي، فأغميَ عليه، فسكبوا عليه قليلاً من الماء، وبدأ كلاهما يضربه على كل مكان من جسمه، ولا يسألانه شيئاً، فهو مجرد تعذيب.

عندما خرجا، شعر عادل بألم في مؤخرة رأسه، وبدأ عارف يدلكها له إلى أن شعر بالراحة، كان أكثر ما أزعجه في هذه الجولة، هو أن ثيابه تبللت، وهو الأمر الذي جعله يشعر ببرد شديد جداً، لذلك قرر أن يصمد؛ لكي لا يغمى عليه مرة ثانية ليتخلص من الماء، في حين كان أكثر ما أثار عارفاً أنهم لم يعذبوه مثل عادل.

عرف عادل لماذا سحبه الجنديان إلى وسط الزنزانة، فهما يعرفان أن رأسه سترتطم بالجدار الخلفي بقوة، وهو الأمر الذي جعله يشعر أنهما يخشيان قتله، وقد منحه هذا الشعور شيئاً من الارتياح.

تكررت هذه العملية بعد العشاء، فعندما دخل الجنديان وأخرجا عارفاً، وجدا عادلاً يقف في وسط الزنزانة، فأشار أحدهما بقبضة بيده اليمنى مستحسناً وقفته، لكنهما لم يصعقاه في رقبته، بل ضربوه مباشرة بالهراوات غير الكهربائية، وكان عادل يقف من دون أية حركة، ومن دون أن يصدر صوتاً، لكنه كان يتفادى الضربة التي يحتمل أن تكون في رأسه، وفي نهاية الجولة، وضع أحدهما العصا الكهربائية على رقبته، وجره إليه بيده اليسرى فصعقه وهو ما زال يجره، حينها شعر عادل بتيار الكهرباء يصل كل جسده وهو يردد: (واحد اثنين ثلاثه اربعه خمسه...)؛ وهو الأمر الذي جعله يقاوم الإغماء، وعندما خرجا، شعر عادل بانتصار من نوع ما، وعرف أن الإنسان يمكن أن يقاوم المفاجأة.

استمر هذا التعذيب على هذه الشاكلة لأسبوع، تعلّم فيه عادل حيلة يمارسها على العصا الكهربائية، فقد كان يستخرج قليلاً من الزيت الذي يطفو على المرق، ويمسح به رقبته؛ ليقلل من وصول الكهرباء إلى جسده، وقد نجحت الخطة، فعندما صعقوه بعد أن وضع الزيت، لم

يشعر بتسرب التيار الكهربائي كما في المرات السابقة، إذ شعر بألم خفيف جداً، لكنه ادعى أنه صُعق، وهنا شعر بأنه منتصر؛ لذلك قرر أن يجمع ما تيسر من الزيت في المرات القادمة، ويضعه في زاوية من زوايا الزنزانة، وبعد أن يتجمد الزيت، يضعه على الزاوية الحديدية التي تتوسط باب الزنزانة، ليستعمله في تعذيب الصباح.

وفي اليوم الثامن، بعد الغداء، دخل الزنزانة حارسان وهما يضحكان، وطلب أحدهما من عادل أن يفتح فمه ليصعقه في لسانه، فتوقع عادل أن الصعقة في اللسان ستؤذيه كثيراً، ثم إنه شعر بخيبة أمل، وكأن الحارسين قد علما بخطته في جمع زيت المرق، فرفض أن يفتح فمه، فبدأ كلاهما يضربانه بقوة، وقد تحول الأمر من طلب الاعتراف الذي لا يسألان عنه، إلى إخراج اللسان، فحاول أحدهما فتح فمه بقوة، لكنّ عادلاً تمكن من إبقاء فمه مغلقاً، فرأى بأنه يجب أن يستعمل يده ليفوت عليهما فرصة فتح فمه، فحاول لمرات أن يضع يديه على فمه لكن السجانين كانا يزيلانهما وهنا طلبا منه أن يخرج إلى ممر الزنزانات، فرفض الخروج؛ إذ شعر أنها مكيدة، فربما يتهمانه بمحاولة الهروب، فيحق لهما إطلاق النار عليه، فسحباه بقوة إلى ممر الزنزانات، وضرباه بأيديهما، وبالهراوات بقوة، فانتابه شعور بأن القضية أصبحت شخصية؛ فهما لا يؤديان واجبهما، وإنما يريدان

الإنتقام منه، وفي سورة غضبه، ضرب بطن أحدهما بركبته، وضرب الآخر بكوعه، فسقط على الأرض، فعاد إلى الأول وضربه بقدمه وهو يتحرك نحو الزنزانة، فدخل وأغلق عادل الباب، ووضع ثقل جسده على الباب، والسجانان يحاولان فتحه، وهنا علت هتافات من الزنزانات الأخرى، لاسيما الزنزانة الثانية والحادية عشرة والثانية عشرة، وبدأ السجناء يطرقون على الأبواب، فحدثت ضجة كبيرة استدعت حضور ضباط الصف والضباط. فأقفلوا على عادل باب الزنزانة وغادروا.

جلس عادل حزيناً في زاوية الزنزانة، وهو يحدق بالمكان الذي كان يجلس فيه عارف؛ إذ وضع الإيرانيون عارفاً في زنزانة أخرى، وتركوا عادلاً وحيداً في الزنزانة رقم واحد.

شعر عادل بأن التعذيب الحقيقي قد ابتدأ؛ إذ كان مستعداً لأن يُعذب كل ساعة شريطة أن يكون معه أحد، ليس بالضرورة أن يكون عارفاً، إنما أي أحد يتواصل معه، حتى لو كان مصاباً بالخرس أو العمى.

في الليل، دخل الزنزانة حارسان جديدان وهما يضحكان، وكأنهما يتشفيان بزميليهما؛ إذ لوّح أحدهما لعادل بيديه، مؤدياً حركة

من حركات لعبة الكراتيه، فأجابه عادل بنعم، فطلب منه أن يخرج إلى الممر بود، فخرج معهما، فأخذ أحد الحارسين وضع القتال، وطلب من عادل أن يضربه؛ ليتفادى ضربته، فشعر عادل أن الحارس لا يقصد شيئاً يضر به من وراء ذلك، وهو يريد اللعب ليس إلا؛ لذلك قرر عادل أن يمنحه نصراً؛ فضربه، فتفادى الحارس ضربة عادل وهو يضحك، لكنه ظل يطلب من عادل أن يضربه مرتين وثلاثة وأربعة، وهو لا يسمح ليدي عادل أن تصلا جسده، وهنا قرر عادل أن يصل إليه مرة واحدة، ويضربه ضربة ليست قاسية، فتقدم نحو الحارس، وأعطاه ظهره، وانحنى، ثم ضربه بكعب قدمه اليمنى على قفاه، فتفاجأ الحارس بمصدر الضربة، والمكان الذي وقعت فيه، فصمت لبرهة، فتوقع عادل أنه سينتقم، لكنه بدأ يصفق وهو يردد: (خَيلي خُوب، خيلي خوب). بعد ذلك غادر الحارسان من دون أن يصعقاه بالعصا الكهربائية، أو يضرباه بالهراوات.

في اليوم التاسع، ازداد أنين الزنزانات، وبدأت أصوات صرخات التعذيب ترتفع في جميع الزنزانات العشرين، فبدا أن أمراً جديداً قد حدث. وقبل حلول وقت الغداء، أدخلوا على عادل سجيناً، إذ دفعوه في الزنزانة، وأغلقوا الباب بسرعة، فلم يتعرف عادل على السجين الجديد للوهلة الأولى، وما إن جلس السجين قبالته وهو

مذهول، تفاجأ عادل بأن السجين هو عماد سركيس، وعندما عرفا أحدهما الآخر، تعانقا، ودموع عادل تكاد تقفز من عينيه، في حين كان عماد يبكي بصوت مرتفع وهو يذكر اسم عادل.

بعد دقائق، جلبوا لهما طعام الغداء، فامتنع (عماد سركيس) عن تناوله؛ لانسداد نفسه عن الطعام، فأخبره عادل أنه امتنع عن الطعام في اليوم الأول، ولكنه شعر لاحقاً أن ذلك كان خطأ، وحاول عادل إطعام عماد بيده، فتناول لقمة ثم ثانية، ثم بدأ يأكل بيديه والدموع مازالت على خديه. وبعد أن استقرت حالته نسبياً، قال له عادل مازحاً: (يجوز يريدوك تتعلم اللطم عل المسيح) فتبسم عماد والدمعة مازالت في عينيه وكأنه الموناليزا، فاستغل عادل ابتسامته وسأله عن تفاصيل أحول المخيم، وعن الضجة التي حدثت في أثناء قدومه إلى الزنزانة، فأخبره أن الإيرانيين كثفوا علميات النقل إلى الجملونات، وأنهم يجيئون بأسماء، ويخيّرونهم بين الذهاب إلى الجملون أو عدمه، ومن يرفض الانتقال، يأتون به إلى الزنزانات، وأخبره أنه رفض الذهاب إلى الجملون؛ وكانت النتيجة هي أن يلقوه في الزانزانة.

بعد الغداء، بدأت الضجة مرة ثانية، فدخل أكثر من عشرة من الموالين لإيران، فأخرجوا عادل أمين وعماد سركيس من الزنزانة، وقاموا بضربهما بقسوة في كل مكان من جسديهما بكيبلات كهرباء

سميكة، كانوا لا يراعون مكان وقوع الضربة، ولا يهمهم إن عاش الأسير أو مات، وكان عادل يتفادى بعض الضربات التي يظن أنها ستعوّقه، وبعد أن كفوا عن الضرب، سأل أحدهما عادل فيما إذا كان يرغب بالذهاب إلى الجملون أم لا، فأجابهم بالنفي، وكذلك فعل (عماد سركيس)، فغادروا وبعضهم يرغب بإعادة الكرة، كان بين هؤلاء العشرة اثنان يقفان على مبعدة، لا يشاركان في التعذيب، لكنهما يصدران الأوامر فقط، الأول طويل القامة سمين أصلع ذو بشرة حمراء، والثاني معتدل القامة نحيف بشعر كثيف ذو بشرة سمراء.

حاول الصديقان أن يضطجعا بعد حفلة التعذيب قليلاً، لعلهما يتمكنا من النوم، لكن طول الزنزانة لا يكفي لأن يمدا أرجلهما؛ فقد كان عادل، قبل مجيء عماد، ينام على خط قطر الزنزانة؛ ليتمكن من مد رجليه، أما وقد أصبح معه سجين آخر، فقد اضطر إلى ثني رجليه عند النوم، وكذلك فعل عماد، فناما ورأس أحدهما عند رجلي الآخر، لكي يوفرا مساحة أكثر.

بعد العشاء جاءت المجموعة نفسها، لكنهم، في هذه المرة، سألوا فيما إذا يرغب عادل في الذهاب إلى الجملون قبل أن يعذبوه، فسأل عادل الرجل السمين الأصلع:

ـ انتو عراقيين لو عربستانيين؟

= عراقيين، ليش؟

ـ مهجرين لو أسرى.

= أسرى؟

ـ تشتغلون براتب لو بأكل بطونكم؟

وما إن أكمل عادل عبارته، حتى أشار السمين الأصلع إلى من معه لتبدأ حفلة التعذيب كما يسمونها هم. في هذه المرة، قرر عادل الرد بقوة، فهم في كل الاحوال يضربون بقسوة، فلا يمكن أن يضيفوا شيئاً لتعذيبهم له، وهم لا ينفكون يضربون حتى يتعبوا، فقد رأى عادل أنهم جبناء، باعوا أنفسهم بطعام قليل؛ لذلك هم يخافون على أنفسهم أكثر منه، وعلى الرغم من ذلك آذوه كثيراً بواسطة الكيبلات. حاول في مرات عديدة أن يحصل على كيبل منهم ليضرب واحداً منهم بقوة، لكنه لم يتمكن من ذلك.

عرف عادل من الموالين أن عبد النبي وافق على الذهاب إلى الجملون في اليوم الثاني لسجنه، وعرف أيضاً من الرجل السمين

الأصلع أنّ عارفاً ذهب إلى الجملون بعد حفلة الضرب الأولى التي قام بها الموالون لإيران من الأسرى، وعرف عن طريق التجربة أن هناك وقتاً محدداً أقره الإيرانيون لتعذيب السجين على يد هؤلاء، وهو لا يتجاوز ثلاث دقائق لتعذيب كل سجين منهم؛ لذلك وضع خطته لكي تنتهي الدقائق الثلاث من دون أن يصاب إصابة تعيقه، فكان يتحايل على الوقت بسؤالهم عن الحياة داخل الجملون، وما الذي يفعله هناك، فعرف منهم أنهم مكلفون بجعل أسرى المخيم يقلدون القائد الإيراني، ويؤمنون بحق إيران في الدفاع عن نفسها، والإقرار باعتداء العراق عليها، وفي النهاية يحصلون على أمر (التفكيك)، وهو أن يتحرر الأسير من الأسر، بوضعه في معسكر تمهيدي يؤهله لأن يُطلق سراحه، على أن يبقى في إيران، لكن هذه العملية لا تتم إلا بعد أن يثبت ولاءه لإيران، وإثبات الولاء هذا يتحقق بأمرين رئيسين، أولهما: أن يعذب الأسرى المشاكسين، والثاني: القتال لمدة ثلاثة أشهر في الجبهات ضد الجيش العراقي.

تأكد لعادل بعد ما عرفه منهم أن القضية ليست قضية إيمان بقدر ما تكون قضية وجود، فهم سينالون طعاماً كثيراً، وسلطة على أقرانهم في معسكرات الأسر، ثم يحظون بزيارة من قبل أهلهم عن

طريق دولة أخرى، ثم ينالون حريتهم في النهاية بعد أن يتنازلوا عن إنسانيتهم ووطنهم.

استمر التعذيب على هذه الشاكلة لأيام، ثم تضاعف في الأيام اللاحقة؛ إذ بدا على الموالين أنهم يخسرون المعركة مع قلة قليلة من السجناء؛ إذ وافق على الذهاب الى الجملون أغلب من كانوا في الزنزانات؛ نتيجة التعذيب القاسي، وبقي عادل وعماد يتلقيان التعذيب اليومي في الزنزانات الإنفرادية لأسابيع.

في الأسبوع التاسع ازدادت مدة التعذيب وشدته؛ إذ جاء الموالون ومعهم هراوات من الخشب السميك، بالإضافة الى الكيبلات، ثم إن الوجوه تغيرت، فمن جاء بعد وجبة الغداء كان من ذوي الأبدان الطويلة والسمينة والعضلات المفتولة، وكانوا يضربون بقسوة ضربات قاتلة أحيانا، يستهدفون الرأس بشدة، وكأن الأمر قد صدر لقتل الرافضين. وبعد نهاية مدة التعذيب التي امتدت إلى أكثر من عشر دقائق هذه المرة، أغمي على عادل وعماد إلى المساء، وعندما عاد اليهما وعيهما، وجد عادل أنه لا يستطيع الحركة إلا قليلاً، وما هي إلا دقائق حتى جاء العشاء، وبينما كان عادل يتناول عشاءه، شعر بألم مفاجئ في أحدى أسنانه في الفك الأسفل؛ فترك طعامه، وبدأ يتحسس بإصبعه إحدى طواحن الفك الأسفل من جهة اليسار، فقرر أن يعود

لتناول طعامه، لكنه ما إن وضع لقمة في فمه حتى ازداد الألم، وما هي إلا دقيقة حتى بدأت مدة تعذيب ما بعد العشاء، فعندما حضروا لم يتمكن عادل من الوقوف؛ فأخرجوه سحلاً، وبدؤوا بتعذيبه وهو مضطجع على أرضية الممر. كانوا يضربون على الأماكن الحساسة: الركب والمفاصل والرقبة وغيرها، وعندما انتهت المدة أدخلوه سحلاً، وكذلك فعلوا مع عماد.

في الليل نظر عادل إلى سقف الزنزانة وهو مضطجع على ظهره، لكنه لم يتمكن من رؤية شيء؛ إذ كان سقف الزنزانة يتموج بألوان متمازجة مع بعضها، وكان أنين عماد يمتزج مع أنينه وأنين المعذبين في الزنزانات الأخرى.

أثار تموج سقف الزنزانة وتموج أنين المعذبين في عادل ذكرى إحدى المعارك على ضفتي الكارون، عندما كان قصف المدافع والطائرات شديداً من قبل الطرفين اللذين يحاولان عبور النهر، وقبل أن تنفجر مدرعته البرمائية في وسط النهر خرج عادل وألقى جسده في الماء، فتمسك بجذع نخلة عائم وهو ينظر إلى السماء المشتعلة بالقذائف، وفجأة اقترب منه جندي إيراني وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فمد عادل يده إلى الجندي وسحبه نحو جذع النخلة، وظلا معاً إلى أن

هدأ القصف، وفي تلك اللحظة عاد عادل إلى جهة العراق سباحة وترك جذع النخلة للجندي الإيراني، لأنه رأى أنه لا يجيد السباحة.

جلس عادل القرفصاء في إحدى زوايا الزنزانة، محاولاً أن يجعل ظهره يحتك بالجدار وهو يرتجف من البرد، ويئن من ألم سنه، ويكاد لا يشعر برجليه الحافيتين الزرقاوين، حاول أن يضع رجله اليسرى على اليمنى ليحميها قليلاً من برودة الأرض دون جدوى، فشعر أنه يتكور وأن نفسه بدأ يضيق، وفجأة شعر بنغزة قوية في صدره، جعلته ينهض من فوره ويتعثر بقدمه اليمنى، ويسقط على الأرض وهو يرتجف من البرد والألم، إلا أنه شعر بدفء في عينيه. وفي لحظة فارقة قال عادل لعماد: (باجر انروح للجملون)؛ فنهض عماد من فوره غير مصدق ما سمع: (صدگ تحجي)؟ فأجابه عادل بأنه قرر الذهاب إلى الجملون، فأخبره عماد أنه فكر في الأمر منذ الأسبوع الخامس لكنه صمد، فأخبره عادل أنهما فعلا ما تمكنا من فعله، وإلى هنا انتهت مقاومتهما، فاتخذا قرارهما وهما يرتجفان من البرد؛ إذ كان للبرد أثر فيهما أكثر من أثر التعذيب، لأن البرد لا يتوقف، ولو كان الجو دافئاً في الزنزانة لصمدا إلى النهاية، فأما أن يموتا وأما أن ييأس السجانون منهما.

جلس عادل القرفصاء في زاوية الزنزانة واضعاً رأسه بين ركبتيه، فقد شعر أن أغلب الأسرى سيصيرون موالين لإيران تدريجياً، أو يتظاهرون بتأييدهم؛ بسبب ما يتعرضون له من تعذيب. كيف يتوافق وجود الشر والظلم في العالم مع افتراض وجود إله طيب؟ هل من الممكن أن يوجد إله يسمع ويرى كل هذه الآلام، ولا يفعل شيئاً، لا بد أنه قد أصيب بمرض نفسي عندما استبد بالحكم، وحوّل الأنبياء من ملوك إلى رعاة. وبينما كان عادل يشعر أنه سيؤمن بما يفكر فيه عارف، شعر بنعاس استحوذ على رأسه؛ فنام وهو يجلس القرفصاء، على الرغم من أن كتفيه ترتجفان من البرد.

في اليوم التالي جاء الموالون بعد الفطور الصباحي، وما إن فتحوا باب زنزانة عادل وعماد حتى أخبرهم عادل أنه قرر الذهاب إلى الجملون، فاحتفلوا وكأنهم حصلوا على غنيمة، فأخرجوا الرفيقين من بناية الزنزانات وأجلسوهما في الشمس.

رأى عادل الرجلين: السمين والنحيف وهما يتجادلان على مبعدة في أمر ما، وكأنهما قد اختلفا على شيء، وبدت ملامح العصبية على وجهيهما، في حين كان الآخرون يقفون مبتسمين ابتسامات صفراء، وهم يدخنون سجائر كاملة، ويتحدثون بسرعة، يقاطع أحدهم الآخر.

بعد قليل من الوقت، اقتربا من عادل وهما مبتسمان، وبدأ الرجل السمين الأصلع بالحديث:

ـ احنه عدنا أربع جملونات، آني مسؤول على اثنين منهن. (قال ذلك وهو يشير إلى الجملونين الغربيين الموازيين للمخيم الكبير). وصديقي مسؤول على ذلك الجملون، (مشيراً الى الجملونين الشرقيين الموازيين للمخيم الصغير)، فإنت لياهو منهن تريد تروح.

= اروح للجملون القريب من مخيمنا.

وهنا تبسم الرجل السمين، ونظر إلى صاحبه نظرة تشفي، ووضع يده على كتف عماد ودفعه نحو صاحبه، وكأنهما يتقاسمان السبايا، فعرف عادل أنهما كانا يتحدثان حوله، وكل منهما يريده في جملونه، فعندما ذهب عادل معه، أخبر المسؤول مساعدَه أنه جاء بشاب مثقف وواعٍ وعارف بأشياء كثيرة.

سار عادل بخطوات وئيدة نحو الجملون الغربي الموازي للمخيم الكبير خافضاً رأسه الذي لا يجرؤ على رفعه، وكأنه امرأة مغتصبة تشعر بنغزة في قلبها، في حين كان الموالون الذين يقودونه إلى الجملون فرحين بنصرهم، وكأنهم فتحوا مكة.

10

(ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى...).

كان صدر البيت هذا أول صوت يسمعه عادل أمين وهو يدخل الجملون الغربي الأول، فعندما دخل هو ورفيقه عماد سركيس مع المسؤول العراقي إلى الجملون، سُمح لبعض الأسرى الذين كانوا في مخيمه أن يرحبوا به.

وبعد لحظات، جاء شاب يشبه عمر الشريف في فيلم لورانس العرب، واقترب من عادل، فإذا به عارف وقد نحف أكثر من ذي قبل، فاقترب من عادل وهمس في أذنه صدر البيت هذا، لكنه ترك تكملة عجزه؛ لعدم وجود فرصة لذلك.

عن طريق صدر البيت هذا، أطلع عارف صديقه على الموقف العام للحياة في الجملون، فعندما يكون الإنسان ملزماً بأن يصادق عدوه، فإن ذلك يدعو لتأمل الوضع بصورة دقيقة، يتأمل استقرار القطا في الريح العاصفة. وقد فهم عادل أن هناك تعذيباً شديداً ومراقبة، وأن الحياة هنا حياة استخباراتية، ولا ينبغي أن يثق بأحد.

اقتيد عادل إلى غرفة لجنة الجملون، فوجد الرجل السمين الأصلع يجلس على مكتب صغير بفخر، وأمامه مجموعة من الموالين بوجوههم المنتفخة، يتوسطهم رجل أربعيني يبدو عليه الهدوء، قدّمه السمين الأصلع على أنه (عبد الهادي)، وأنه مدرس للغة العربية في العراق، وأنه مسؤول عن عادل؛ إذ سوف يرافقه في أي مكان يذهب إليه: التعداد الصباحي، المسائي، الحمام، فضلاً عن تناول الطعام معاً، والنوم على سريرين متلاصقين، وهنا تأكد عادل من معنى صدر البيت الشعري الذي ذكره عارف.

بدا على (عبد الهادي) الوقار، وأنه لا يشبه لجنة الجملون من جهة سلوكهم العنيف، وعرف منه أن كل أسير يأتي من المخيم يجب عليه أن يرافق أحد الموالين، فهما ينامان قرب بعض على سريرين متلاصقين، ويأكلان معاً، ويتمشيان معاً؛ ليوضح الموالي للمشاكس أصول الإسلام، وتحديداً إسلام أهل البيت، ثم يُثبت له أن العراق هو من اعتدى على إيران، وفي النهاية يشرح له فكر القائد الإيرايني، ومبدأ ولاية الفقيه؛ في محاولة من الموالي للتأثير في أفكار وسلوكات المشاكس؛ لكي يتحول إلى موالٍ خلال مدة من الزمن، لكن كل ذلك لم يحصل مع عادل، إذ أوضح له عبد الهادي الفكرة لكنه لم يحدثه بالتفاصيل.

بمرور الأيام تأكد عادل أن عبد الهادي مختلف عمن يرافق عارف، إذ كان قاسياً مع عارف، ولا يتناقش معه، إذ يُلقي عليه محاضرات، ويجبره على الاستماع فقط، من دون أن يسمح له أن يسأل.

كان عادل وعبد الهادي يتحاوران في مواضيع كثيرة، منها الأدب، ولاسيما الشعر، فقد كان عبد الهادي يحفظ كثيراً من الشعر القديم، وعلى الرغم من اللكنة الكردية التي تظهر في لغته أحياناً، إلا أنه كان مجيداً للعربية.

كان عادل يُسمعه شعر السياب والبياتي وأدونيس، فضلا عن الشعر القديم، وعلى الرغم من أن عبد الهادي لم يكن يحب شعر التفعيلة، لكنه بدأ يستسيغه تدريجياً، فحين قرأ له عادل قصيدة (الجرح) لأدونيس وقصبدة (إلى ولدي) للبياتي وملحمة (انتظريني عند تخوم البحر) ليوسف الصائغ، كاد عبد الهادي يصفق، على الرغم من أن التصفيق حرام في الجملون.

كان الجملون يضم 500 سرير بثلاثة طوابق، وكان كل سريرين متلاصقين مع بعضهما، ينام عليهما اثنان: موال ومشاكس، ولم يحق للأسرى القادمين من المخيم أن يلتقوا بعضهم، إلا إذا اطمأنّ لهم مسؤولوهم، أو تحولوا إلى موالين بمرور الوقت، ونظراً لطول المدة التي تفصل بين إنشاء الجملونات وقدوم عادل وعماد إليها، فقد تحول عدد من أسرى المخيم إلى موالين، أو ادعوا أنهم كذلك؛ نتيجة للتعذيب، والضغط المستمر على عقولهم.

كان في الجملون الغربي ستة صفوف من الأسرَّة، ثلاثة منها ممتدة على طول الجملون البالغ خمسين متراً، وثلاثة منها ممتدة إلى مسافة نصف الجملون لغاية الباب، إذ تُركت المساحة المتبقية التي تُقدّر بخمسة وعشرين متراً طولاً وعشرة أمتار عرضاً بوصفها مكاناً للصلاة والمحاضرات الدينية، بالإضافة إلى حركة الأسرى في غير أوقات الصلاة والمحاضرات.

وكان في زاوية الساحة مكتبة صغيرة فيها كتب دينية مختصة بالمذهب الشيعي حصراً، عُلقتْ بجانبها عبارة مكتوبة بخط كبير وواضح:

(اتقوا فراسةَ المؤمنِ فإنّه ينظرُ بعينِ اللهِ).

شعر عادل بالخطر وهو يقرأ هذه العبارة؛ إذ ذكّرته بمقولة ضابط كبير في معسكر بندر أنزلي حين قال له: (إن الجندي الإيراني يطيع الضابط، والضابط يطيع القائد الإيراني، وهو بدوره يطيع الله، إذاً، فالجندي الإيراني يمثل الله على الأرض).

وجعلت هذه العبارة المؤمن مثل الله، فهو يعلم ما يعلمه الله، لذلك فالموالي الذي يسمي نفسه مؤمناً، يعرف كل شيء عن الأسرى، وربما يعرف أشياء لا يعرفونها عن أنفسهم.

في نهاية الجملون من جهة المخيم، بوابة صغيرة تؤدي إلى الحمامات العشرة، في باحتها مغاسل على طريقة مغاسل المساجد، أعدت للوضوء، وفي جنب الحمامات غرفة متوسطة الحجم، هي مقر للجنة الجملون المكونة من سبعة موالين يتصف أغلبهم بالقسوة والعنف، وتُستعمل هذه الغرفة غالباً للتأنيب والتهديد والتعذيب، وقربها غرفة صغيرة جداً، وهي عيادة طبيّة يديرها طبيب أسير ليس من الموالين.

في خارج الجملون ساحة كبيرة تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة الجملون، مسوّرة بأسلاك شائكة، يخرج إليها الأسرى للتعدادين الصباحي والمسائي، وكان من حق الأسرى أن يتمشّوا فيها لغاية الساعة التاسعة ليلا ثم يدخلوا، لتقفل بوابة الجملون عليهم حتى الثامنة صباحاً.

وفي جانب من جوانب الساحة الخارجية، بنى الأسرى الموالون مسجداً، يرتفع جداره إلى ربع متر، فهو مجرد تحديد لأرض مستطيلة تتسع لخمس مئة أسير يصلّون، وكانت الصلاة إجبارية.

وكان يتوجب على الأسرى أن يتهيؤوا للصلاة قبل الأذان بنصف ساعة؛ ليؤدوا صلوات أخرى، ثم يبقوا بعد الصلاة لمدة نصف ساعة؛ ليؤدوا صلوات أخرى، فكان الأسرى يقضون ساعتين لأداء أي وقت صلاة من الأوقات الثلاثة، ولم يكن الإيرانيون مهتمين بالصلاة ولا يحثون عليها.

بمرور الوقت تحولت صلاة النوافل إلى صلاة جماعة، فكان الأسرى يقضون جل وقتهم في الصلاة وقراءة الأدعية.أما إذا جاء شهر المحرم، فلا يحصلون على وقت يستريحون فيه؛ إذ كانت أيام شهر المحرم تمتد إلى شهر صفر لتصل إلى خمسين يوماً من اللطميات بأنواعها، والصلوات بأنواعها.

كان الأسرى يقضون ساعات في الزيارة عن بعد، فهم يقفون في ساحة الجملون الخارجية، ويتوجهون إلى كل الجهات؛ ليزوروا أئمة لم يسمع بهم أغلب الأسرى، حتى أن أيام قيام الثورة الإيرانية العشرة التي ينبغي أن تكون أيام احتفالات كانت أيام بكاء ولطم، تلك الأيام التي يسميها الإيرانيون (عشرة الفجر) التي تمتد من الأول من شباط الذي عاد فيه قائد إيران من فرنسا حتى الحادي عشر منه، مختصرة نضـــال شعب امتد لعامين كاملين من الثورة، وفي المقابـــل حكمَ صدام حسين العراق بعد خمسة أشهر من العام نفسه، وهو ما يوحي بأن طريقة الحكم في إيران بحاجة إلى طريقة حكم جديدة في العراق، وبعد مرور سنة تقريباً ابتدأت الحرب بين البلدين في الرابع من أيلول بحسب العراق، والثاني والعشرين منه بحسب إيران.

كانت تلك الأيام متعبة للأسرى، حتى الموالين منهم، فهي مليئة بالمحاضرات الدينية المكرورة، واللطم، وقراءة القصائد الدينية الرديئة، فضلاً عن تأسيس الموالين فرقتين فنيتين: الأولى فرقة إنشاد تؤدي قصائد دينية مذهبية، والثانية فرقة مسرحية تؤدي مسرحيات بائسة تمجد السلطة في إيران وتسخر من السلطة في العراق، حتى أن اللطم لم يتوقف في أصعب الظروف، ففي العشرة الثانية من شعبان، أو نهاية نيسان من 1986.

بينما كان الأسرى يستمعون إلى قصيدة حسينية وهم يلطمون، ظهرت في الأفق هالة زرقاء كبيرة، غطت الأفق الشمالي، وكأن كوكباً غازياً أزرق قد اقترب من الأرض على خط الأفق، ثم بدأت دائرة الهالة تتسع كثيراً، وعلى الرغم من فضول كثير من الأسرى ومحاولتهم النظر إلى ما يحدث، لكن الموالين منعوا الأسرى من التفرق، وظلوا يلطمون بشدة.

وقف عادل في مؤخرة الحشد، وهو يستمع إلى القصائد الحسينية التى يؤديها أحد الأسرى الموالين، وينظر إلى مجموعة الأسرى الذين يلطمون بقوة في ساحة الجملون، فلاحظ أن سلوك الموالين في اللطم سلوك ماشوسي عنيف جداً، وكأنهم يعذبون ذواتهم بسبب أمر ما ارتكبوه، أو بسبب سلطة أبوية كانت تعذبهم، ولعل ذلك ما جعلهم يعذبون أنفسهم أولاً، ثم تحول ذلك إلى تعذيب الأسرى الآخرين.

(إنها كرسة)، قال لنفسه وهو يتأمل كيف اختزل كثير من المسلمين الحضارة العربية بالقرآن، واختزلوا القرآن بثمانين آية تتحدث عن الشريعة والحكم، وحتى هذه الآيات سرقها المفسرون والفقهاء وغيروا معناها، واختزلوا كل ذلك بمطاردة عادل في كل مكان، ومراقبة أفكاره. كل هذا ويدعون أنهم تنويريون. (هل يوجد معمم تنويري). سأل نفسه وهو يضرب صدره بهدوء بيده اليمنى، وعبد الهادي يحثه على أن يزيد من قوة اللطمة، متجاهلاً انفجار تشرنوبيل.

لم ير عادل الجنود الإيرانيين يفعلون ما يفعل الأسرى من عبادات، فهم يعيشون حياتهم الطبيعية، ولم يكن هناك صوت لأذان في المعسكر، وكان أغلب الجنود الإيرانيين يحلقون لحاهم ويبتسمون للأسرى ويدندنون الأغاني على العكس من الموالين، وهو الأمــر الذي جعل عادلاً يظن أن الجملون من دون موالين يروق للجنود الإيرانيين أكثر، وربما يروق لقيادة المعسكر أيضاً، ففي نهاية مايس من عام 1986، قررتْ قيادة المعسكر وضع تلفزيون في الجملون لمدة شهر؛ لمشاهدة بطولة كأس العالم، علماً أن إيران لم تشارك بهذه البطولة، وهو الأمر الذي جعل الموالين يشعرون بالاكتئاب، فكيف يشاهد الأسرى مباريات العراق وهم موجودون على رأس السلطة في الجملون؟

كان الأسرى من غير الموالين يشجعون العراق بقوة، فمع أية هجمة يقوم بها المنتخب الوطني العراقي يظهرون حبهم لبلدهم، فيرفعون أصواتهم مع أية ضربة رأس يؤديها لاعب عراقي؛ ليذكروا الموالين بضربة رأس المهاجم العراقي حسين سعيد التي منحت العراق الفوز في بطولة آسيا للشباب عام 1977، والتي أقيمت في إيران. أما الطامة الكبرى التي وقعت على الموالين، وجعلت غير الموالين ينتصرون عليهم، فقد كانت بعد هدف المهاجم العراقي أحمد راضي على بلجيكا؛ إذ وقف أغلب الأسرى على أقدامهم، في حين كان الموالون جالسين وهم يبتسمون ابتسامة صفراء وكأنّ صدام حسين هو من قام بالتهديف، أو كأن الهدف قد استقر في الشباك الإيرانية.

كان تشجيع أغلب الأسرى في مباريات العراق يشبه تماماً تشجيعهم لمباريات الجزائر أو المغرب، فبعد أن جاء هدف الجزائر

على إيرلندا الشمالية، فرحوا، وكأن العراق هو من حقق الهدف، أما عن فوز المغرب على البرتغال بثلاثة أهداف لهدف، ذلك الفوز الذي مكّن المغرب من الإرتقاء إلى دور الست عشرة، فإن ذلك الحدث جعل الجملون يضج بأصوات الفرحة وكأنّ العراق قد انتصر على إيران في الحرب.

لم يفتعل عادل تشجيعه للمنتخب العراقي بالضد من الإيرانيين، لكنه يقف بالضد من الموالين الذين يكرهون العراق، ويدّعون أنهم يعارضون النظام.

بعد نهاية دورة كأس العالم في الحادي والثلاثين من حزيران عاد الوضع في الجملون على ما كان عليه، وعاد عادل إلى سيرته الأولى، يحاول أن يجيب على أسئلة كثيرة تتصارع في فضاء عقله.

كان يجلس ليستمع إلى محاضرات مجموعة من العراقيين المهجّرين، أو العراقيين الذين حصلوا على حريتهم بواسطة لجنة التفكيك وهو يتساءل عما فكّر فيه ميشيل فوكو حينما أيّد الثورة في إيران بقوة، وكتب تقارير صحفية عن عهد جديد سيعم العالم انطلاقاً من هذه الثورة التي قرر قائدها تصديرها إلى خارج إيران باتباع (طريقة حزب الله).

رأى عادل أن الفكر الاشتراكي واليسار العالمي أيّد الثورة في إيران؛ لمجرد العداء لأمريكا، فشعار (لا شرقية ولا غربية) كان في صالح الاتحاد السوفياتي بالنظر إلى كون إيران قاعدة أمريكية على

الحدود السوفياتية في زمن حكم الشاه.

كان الدين مكوناً رئيساً من مكونات الجملون، وقد تحول كثير من الأسرى إلى كائنات دينية، حتى أن الموالين قد اشترطوا على الأسرى أن يكتبوا آية قرآنية في مقدمة نموذج رسالة الصليب الأحمر، وعلى الرغم من أن أغلب الأسرى مسلمون؛ إلا أنهم وجدوا هذا العمل يسيء إليهم؛ إذ لم يتعودوا ذلك في العراق، فضلاً عن أنهم كتبوا كثيراً من الرسائل التي تخلو من مقدمة قرآنية، فماذا سيظن أهلهم إذاما لاحظوا هذا التغيّر؟

كان عارف يكتب آيات مكيّة من القرآن، مدعياً أنها قرآن المعارضة، وهي تختلف عن قرآن السلطة الذي نزل في المدينة.

فكر عادل في أن يمرر شفرة في كتابته الآيات، فمرة، قدم رسالته بآية قرآنية تدل على أنه يتعرض لضغوط وهي: {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ...}، في حين اختار عبد النبي آية أخرى توحي لأهله أنه سيعود إلى العراق قريباً فكتب: {إِن اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}، في إشارة إلى أنه يأمل أن يعود إلى العراق ويفرحوا به؛ ليثبت لهم أنه مازال وطنياً، وحين علم عارف بالآية التي اختارها عبد النبي، أخبره، وهما يقفان في التعداد: أن أهله سيردون على رسالته بآية أخرى هي: (... ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ).

حاول عادل كثيراً أن يشفر رسائله، لعل أهله ينتبهون إليها، فكتب مرة رسالة إلى أهله تبدأ أسطرها بعبارة (أنا أتعذب) وقد جعل

كل سطر من الرسالة يبدأ بحرف من هذه العبارة، لكن أهله لم ينتبهوا، فحاول أن يرسل رسالة مشفرة إلى أحد أصدقائه في العراق، لعله يتمكن من فك شفرتها، لكنه لم ينتبه للشفرة، على الرغم من أنه كان قد تحدث مع صديقه هذا عن طرائق تشفير الرسائل.

مرت شهور في الجملون من دون أن يلتقي الأصدقاء سوى في التعداد حينما يقف اثنان منهما بجانب بعض، وكانوا لا يكثرون من الوقوف معا في التعدادين؛ لئلا ينتبه إليهم مرافقوهم الذين يقفون معهم.شهور من الصلاة والدعاء والمحاضرات الدينية والمراقبة، فلم يتمكن عادل من التواصل مع عارف إلا سراً ، في حين كان عبد النبي يحظى ببعض الحرية، وهو الأمر الذي جعل الشك يدبّ في نفس عارف؛ إذ كان عبد النبي يتمشى وحده من دون مرافق أحياناً، وشيئاً فشيئاً بدأ الوضع يتكشف له، فعرف أن عبد النبي يوشك أن يكون من الموالين لإيران، في حين يرى عادل أن عبد النبي ينافق الطرفين ليحافظ على حياته.

ذات يوم استدعت لجنة الجملون عبد النبي لتوجه إليه الاتهام بأنه يحاول أن يلتقي عادلاً وعارفاً في التعداد، وكان نتيجة ذلك أنه تعرض إلى الإهانة ثم الضرب، بعد ذلك هدده رئيس اللجنة بأنه سيجلده إذا كـرر هذه المحـاولة، وقد أدى ذلك التهديد إلى أن يتحاشى

عبد النبي الوقوف مع أحد صديقيه في التعداد، ثم أن عبد النبي ادعى أنه يحب إيران، وأن العراق قد اعتدى عليها في الحرب، وكان نتيجة ذلك أن سمح له أن يتمشى وحده، وأن يحظى ببعض الحرية.

كثيراً ما كان عبد الهادي يطلب من عادل أن يتمشيا معا بود، وكان عادل لا يتوانى عن التمشي معه لساعة أو ساعتين يتناقشان فيها في أمور شتى، إذ كان عبد الهادي مثقفاً وخلوقاً، وقد قال له عادل ذات يوم، أخلاقك العالية بالقياس مع أقرانك من الموالين تشي بأن الأخلاق في الجملون فرض كفاية.

وبينما هما يتمشيان خارج الجملون، عرف عادل من عبد الهادي أن هناك خلافات بين الموالين أنفسهم، فهم ينقسمون على فرقتين، فرقة تنتمي إلى حزب الدعوة وهو منها، وفرقة تنتمي إلى رئيس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق.

كان حزب الدعوة يرفض احتلال العراق من قبل إيران، خلافاً لجماعة المجلس الأعلى التي تؤيد احتلال العراق من قبل إيران، وتؤيد تسمية الحرب بين العراق وإيران بـ (طريق القدس)، بمعنى أن إيران تعد الحرب العراقية الإيرانية مرحلة تمهيدية لتحرير فلسطين.

وقد حاجج عادل عبد الهادي بهذه المعلومة، فإذا كانت هذه هي نيّة الحكومة الإيرانية، فلماذا يُشعيون بأن العراق هو من اعتدى عليهم؟ فصمت عبد الهادي قليلاً، فاهتدى إلى رد رآه مقنعاً بأن اعتداء العراق على إيران أتى موافقاً لنوايا إيران بتحرير فلسطين عن طريق استعمال العراق كممر للوصول إلى سوريا، وهي مؤيدة لإيران في هذه الحرب، فسوريا تقف بالضد من العراق، وتساعد إيران عسكرياً بإعطائها صواريخ أرض أرض روسية الصنع، وغيرها من الأسلحة، فضلاً عن التأييد الإعلامي، وذلك على الرغم من أن الفكر الإيراني يكفر فكر حزب البعث في العراق.

قاوم عادل محاولات عبد الهادي الذي يحاول التأثير فيه وجره إلى الفكر الديني، فقال له عادل ذات يوم: من الحماقة أن تفكر بالحصول على نتائج جديدة وأنت تكرر المنظومة المعرفية نفسها؛ لذلك أراك عاجزاً عن انتاج شيء جديد. ولما أكمل عادل كلامه ابتسم عبد الهادي ابتسامة يأس، وطلب من عادل الدخول إلى الجملون؛ ليكملوا حديثهم هناك، وبينما هما في الطريق شعر عادل أن مشاعره متناقضة تجاه عبد الهادي، فهو يكرهه لأنه يقيد حريته، وفي الوقت نفسه يحبه لما يتمتع به من معرفة وأخلاق وهدوء.

وصل عادل وعبد الهادي إلى سريريهما، وما إن جلسا على السرير حتى سأل عبد الهادي عادلاً:

ألا تؤمن بالدين؟

= أنا أؤمن بكل الأديان عندما تتحدث عن الأديان الأخرى.

ألا تظن أن الاسلام أعدل من الأديان الأخرى؟

= مفهوم العدالة مرتبط بالاستبداد، وهو يختلف عن مفهوم الحرية.

زين أنت تؤمن بالله؟

قبل أن يجيبه عادل، بدأ عبد الهادي يتحدث عن نظرية الإله الكامل ونظرية الصدفة، وأنه قد اختار نظرية الإله الكامل، إذ لا يمكن أن تهب رياح عاصفة على كومة حجارة وتبني بالصدفة قصراً فخماً؛ فصمت عادل قليلاً ثم قال بحماسة:

= عشوائية الكون لا تدل على وجود حكيم. عن أية كمال تتحدث؟ هل عشت في خيمة جرداء لا تحميك من البرد لسنوات؟ هل سجنت بلا سبب في زنزانة انفرادية لأشهر من دون فراش أو غطاء؟ هل جعلت من نعليك وسادة؟ هل جُلدت في البرد القارس أكثر من 400 جلدة؟ هل جربت أن تعيش ثمانية أيام بلا طعام وبلا ماء؟ هل أكلت مرة رغيفاً عائماً في مياه آسنة على مقربة من برازك؟ هل كرهتَ نفسك مرة؛ لأنك تتذكر رائحة ذلك الرغيف كلما رأيت خبزاً؟

هل فكرت يوماً أن مبدأ العين بالعين يجعل العالم كله أعمى؟ هل جربتَ أن تمشط شعر رأس صديقك المقطوع؟ فلم لم يرد عبد الهادي على هذه التساؤلات، واكتفى بالنظر إلى عادل وهو يهز رأسه بالإيجاب.

صدر قرار من الإيرانيين بتعيين عبد الهادي مسؤولاً على الجملون الغربي الثاني المجاور، وقد ألح عبد الهادي على عادل أن يذهب معه إلى ذلك الجملون، ووعده أنه سيمنحه الحرية الكافية في الحديث مع الأسرى، ويزيل عنه أي ضغط، لكنه رفض؛ لإن وضعاً مثل هذا يجعله في دائرة الشك بأنه قد تحول إلى موال لإيران، ولما باءت محاولات عبد الهادي بالفشل، طلب من عادل أن يتصل به في حال احتاج إلى أي شيء، وقال له قبل أن يرحل: (خبرت اللجنة أن

جانبك مؤمون ولا خوف منك، فوافقوا على رفع المراقبة عنك). قال عبد الهادي ذلك وأشار بسبابته إلى وجهة عادل، واستأنف قوله بكلمة واحدة: (مؤقتاً). فودعه عادل وشكره على توصيته، وهو مبتسم.

بعد مرور شهرين زار عبد الهادي الجملون، وطلب من عادل أن يتحدثا على انفراد في قضية تخص عبد الهادي، فجلسا على سرير عادل، وقبل أن يبدأ عبد الهادي حديثه، أخبر عادلاً أنه يشتاق لهذا المكـان ولنقاشاتهمـا الكثيرة حـول مواضيع مختلفة، بعـد ذلك طلب منه

أن يكتب له قصيدة طويلة يخاطب فيها صديقاً له من المهجّرين العراقيين في إيران.

كان صديق عبد الهادي مسؤولاً كبيراً، ويستطيع إخراجه من الأسر عن طريق التفكيك؛ لذلك روى له مواقف من طفولته في النجف مع صديقه المهجر، وكيف كانا يلعبان على شاطئ الجدول ويصطادان الأسماك، ومواقف أخرى كثيرة، تمكن عادل لاحقاً من تضمينها في القصيدة من دون أن يطلب عبد الهادي شيئاً من صديقه المهجر، على أمل أن يرد عليه صديقه، ثم بعد ذلك يطلب منه ما يريد.

بعد أكثر من شهرين زار عبد الهادي الجملون مرة ثانية، وأطلع عادلاً على قصيدة لصديقه المهجر، يردّ فيها على قصيدتهما بأسلوب عاطفي، يذكره بمواقف أخرى، وهنا طلب عبد الهادي من عادل أن يكتب له قصيدة يوضح فيها معاناته في الأسر وألم الغربة.

كتب عادل قصيدة تعبر عن معاناته هو، لكنه لم يتمكن من الغوص في المعاناة؛ لأن هناك فارقاً بينهما؛ فمن وجهة نظر عادل، أن عبد الهادي لم يكن يعاني من الأسر، فهو مسؤول جملون، وتحت امرته كثير من الأسرى، وهو ينام في أفضل مكان، ويختار من الطعام ما يشاء، لكنه، على الرغم من ذلك، شعر أنه يعاني ألم الغربة، وأن كل تلك المميزات لا تمنحه الطمأنينة.

لم تمض مدة طويلة حتى جاءت قائمة بأسماء المشمولين بالتفكيك، وكان عبد الهادي أحدهم، وشاع في الجملون أن قوائم أخرى ستصل قريباً، فصار كثير من الموالين يحلمون برؤية أسمائهم في إحدى القوائم، وهو ما دفعهم إلى إثبات ولائهم لإيران عن طريق القسوة في تعذيب الأسرى، وإعلان استعدادهم للقتال مع إيران ضد العراق. وكانت أغلب القصائد التي تُقرأ في وقفات اللطميات تمجد الأسرى المفككين الذين قُتلوا في جبهة القتال وهم يقاتلون ضد العراق،

وكانت هذه القصائد تأخذ وقتاً أكثر من القصائد الحسينية في شهري المحرم وصفر، فضلاً عن شهر رمضان أيضاً، إذ يتحول رمضان إلى المحرم، فضلاً عن الصيام الإجباري، وعلى الرغم من كل ذلك، لم يكن عادل يصلي ولا يصوم وكذلك عارف.

كان عادل يراجع في أثناء الصلاة الإجبارية قصائد حفظها، لكي يثبّتها في ذاكرته، وكثيراً ما يركع الإمام وهو في صدر بيت فيتأخر قليلاً لإكمال البيت؛ إذ كان يرى أن عدم إكمال البيت يبطل الصلاة. وكان فقه القراءة في الصلاة لدى عادل، هو أن يقسم أوقات الصلاة على العصور الأدبية، فكان يقرأ في صلاة الصبح مقاطع من المعلقات، وبعض شعر دريد والشنفرى وعروة، وفي صلاة الظهر يقرأ شعر عمر بن أبي ربيعة والأخطل، وهكذا إلى أن يقرأ في الصلاة الأخيرة مقاطع للسياب والبياتي وأدونيس ويوسف الصائغ.

في رمضان، كان عارف يخبئ ست قطع مربعة من الخبز، يضع فيها ما تيسر من طعام ويغلفها بورق، كانت القطعة بحجم علبة كبريت صغيرة، يخبأها في مكان ما في ثيابه، وفي النهار يتناولها وهو في ذروة العبادة في رمضان، وحين ينام مرافقه في النهار، يضطجع عارف على سريره، ويغطي رأسه بالبطانية، ويبدأ بتناول الفطور أو الغداء، وكذلك في وقت العصر.

كان يأكل بهدوء وهو يقول في نفسه: (نوم الموالي عبادة)
وذات يوم في رمضان، كان عارف يشعر بدوار، فبقي نائماً بالفعل حتى المساء، وقبل أذان المغرب بدقائق صحا، وتناول قطعة خبز بسرعة لئلا يحسب له أنه قد صام يوماً.

بعد وصول قائمة الأسرى المفككين، بدأ عادل يحذر من التواصل السري مع زملائه الذين كانوا معه في المخيم؛ لأن نسبة غير قليلة منهم صاروا من الموالين، وعلى الرغم من أن بعضهم حاول أن يثبت لعادل عن طريق النظرات أنه مازال عراقياً، إلا أنه لم يكن يثق بأحد منهم، إذ من الممكن أن يكون مكلفاً من لجنة الجملون للإيقاع به، فيخسر الحرية التي يتمتع بها من دون مراقب، في حين كان الموالون ممن جاؤوا من معسكرات أسر أخرى يلتقون بعادل كثيراً على الرغم من انزعاجه.

إن طمع الموالين بالتفكيك، جعلهم ينشئون حوزة علمية في الجملون، وقد قسموا الأسرى على ثلاث فئات يحاضرون لهم في الفقه والفلسفة والأخلاق والعقائد وغيرها من الدروس، وقد وُضِعَ عادل في المجموعة (أ) في حين كان عارف وعبد النبي في المجوعة (ب).

كان الأسرى في المجاميع الثلاثة (أ ـ ب ـ ج) يتلقون محاضرة واحدة في اليوم حول علم من العلوم، تستمر لساعة، وبعد شهرين من المحاضرات صدر أمر من لجنة الجملون بأن يقوم عادل بإلقاء محاضرات في مادة الفلسفة، في المجموعة (ب)، فوجد ذلك يسيء لسمعته؛ إذ إن كل المحاضرين هم من الموالين، وهو الأمر الذي جعله يطلب من رئيس الحوزة أن يفكر ليومين.

وبعد مرور يومين، وافق عادل على التدريس، لكنه طلب أن يضع المادة الفلسفية التي يختارها بنفسه، فوافق مسؤول الحوزة من دون أن يسأله عن المادة.

بدأ عادل بعد أسبوع بتدريس تاريخ الفلسفة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، مع الوقوف على أهم الفلسفات القديمة، وبعد مدة توقف عادل كثيراً عند الفلسفة الماركيسية، مدعياً أنه يقرأ لهم كتاب (فلسفتنا) لمحمد باقر الصدر، واستمرت محاضراته في الفلسفة الماركسية وقتاً طويلاً.

كانت محاضرات عادل لا تخلو من مشاكسات من قبل التلاميذ، ولاسيما عارف، فأكثرهم من المخيم الذي جاء منه؛ إذ كان الموالون القادمون من المعسكرات الأخرى في المجموعة (أ)، وكانت المجموعة (ب) من المخيمين: الكبير والصغير، لكن مشاكساتهم كانت ودية؛ إذ هم يعرفون جيداً أنّ عـادلاً ليس من الموالين، ويعـرفون جيداً

أنه يحاول تمرير الفلسفة الماركسية بمدة طويلة ليتبعها بالفلسفة الرأسمالية، ثم يعقد مقارنات بين الفلسفتين، أما مسؤول لجنة الجملون، فيظن أنّ عادلاً سيصل في النهاية إلى الفلسفة الإسلامية كما جاء في كتاب فلسفتنا الذي استغرق مؤلفه ثلاثة أرباع الكتاب يشرح فيها الماركسية والرأسمالية ليزاوج بينهما في الربع الأخير مشتقاً فلسفة إسلامية.

خلال المدة التي كان فيها عادل يلقي محاضرات في الفلسفة للمرحلة (ب) كان الموالون يقيمون احتفالات بمناسابات دينية، وتتخلل تلك الاحتفالات قراءة قصائد، إذ يأتي شعراء من الجملونات الأخرى؛ ليشاركوا في الاحتفال، وكان ممن يأتون إلى الاحتفال من الشعراء شاعر ذاع صيته بين الموالين فهو يعد شاعر الجملونات، وكان عادل يعد شاعر المخيم الكبير، لكنه لم يكن يشارك في هذه الاحتفالات.

وذات احتفال طلب منه مسؤول لجنة الجملون أن يشارك بقصيدة في احتفال بمناسبة وفاة أحد الأئمة، فاعتذر مدعياً أنه لم يكن مستعداً؛ إذ لم يكتب قصيدة ولا يتمكن من كتابة قصيدة خلال اسبوع، فاقترح عليه أن يقرأ قصيدة كتبها في رثاء أمه من دون أن يغير فيها شيئاً.

شعر عادل أن مسؤول الجملون يريده أن يشارك فقط، بغض النظر عن الموضوع، فأخبره عادل بشعوره هذا، فكان رده مفاجئاً، إذ أخبر مسؤول اللجنة عادلاً، أنه يريد أن يفخر بوجود شاعر في جملونه أفضل من الشعراء الذين يأتون من الجملونات الأخرى.

انتاب عادل الشك فيما قاله مسؤول الجملون، حتى إنه لم يصدق زعمه هذا، فاستأذن ولم يلح كثيراً، وقبل أن يغادر، أخبره عادل بأنه سيشارك في الإحتفال؛ ففرح كثيراً، فغادر وهو يشير إلى عادل بقبضة كفه اليمنى رافعاً إبهامها وهو مبتسم.

شعر عادل بأنه ليس مجبراً على هذه المشاركة؛ لذلك وافق. وقد لقيتْ قصيدته في الاحتفال صدى في الجملون وخارجه، إذ علم عادل أن كثيراً من أصدقائه في المخيم قد سمعوا القصيدة عبر مكبرات الصوت، ووقفوا كثيراً عند ابياتها ليفككوا رموزها، ويحللوا شخصيته من خلالها؛ ليتأكدوا من أنه مازل كما هو ولم يتحول إلى موال.

بعد مدة من الزمن، أقام الموالون احتفالا آخر، وطلبوا من عادل أن يقرأ قصيدة في الاحتفال، فوافق وهيّأ قصيدة وضعها تحت عنوان (ما الجيّد في الحرب)؟

تتحدث القصيدة عن معاناة الأسرى، وليس فيها أي شيء يتعلق بالمناسبة الدينية، وفيها تحد كبير لإدارة الجملون، والدين والعراق وإيران، إذ لم يكتف عادل بإدانة إيران، إنما أدان الحرب بشكل عام؛ وهو الأمر الذي جعل هذه القصيدة مرفوضة من قبل الموالين والبعثيين معاً في الجملون، لكنها مقبولة من قبل الأكثرية، وقد أدت قراءته هذه القصيدة إلى إعفائه من التدريس، وعزله عزلاً تاماً، وعدم السماح له بالخروج إلى الساحة الخارجية.

حينما كان عادل مضطجعاً على سريره يقرأ كتاب (قطر الندى وبل الصدى)، شعر بصداع شديد كاد يمزق رأسه، فأخرج نصف سيجارة في غير موعدها المحدد، إذ اعتاد أن يقسم حصته من السجائر على ستة أوقات، في كل وقت نصف سجارة، لكنه شعر أن التدخين سيخفف عنه ألم الصداع.

بعد أن أكمل نصف السيجارة، لاحظ أن الصداع بدا أخف من ذي قبل، لكنه مازال يشعر بالألم؛ لـذلك نهض من سريره، وسار نحو

غرفة الطبيب وهو يضع كلتا يديه على رأسه إلى أن طرق باب الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفة اللجنة برأسه.

دخل غرفة الطبيب، وجلس على الكرسي الصغير المقابل لمكتبه، وأخبره بما يشعر، وبعدما جس الطبيب يده وقاس حرارته، ناوله ثلاث حبات للصداع، وعلبة اسطوانية كبيرة، أشّر عليها ثلاثة خطوط، وكتب بخطه الذي تصعب قراءته: (بعد الأكل)، ثم طلب من عادل أن يغادر الغرفة بسرعة، فخرج عادل وهو يقدّر حذره.

جلس عادل على سريره، وأحضر كوباً من المطاط فيه قليل من الماء، وتناول حبة، وفتح العلبة ليأخذ حبة الصداع، فتفاجأ حينما وجد في العلبة عشرين سيجارة، فأغلقها بسرعة وهو يتلفت يمنياً وشمالاً؛ لئلا تظهر عليه ملامح الابتسامة، وقبل أن تتسع ابتسامته فاجأه مسؤول لجنة الجملون بأن جلس على سريره ثم قال: (السلام عليكم)، فرد عادل عليه السلام وهو يتحايل لإبعاد علبة السجائر، ووضْعها تحت الوسادة، وفي الوقت نفسه، وضع حبتي الصداع بينه وبين رئيس اللجنة، وهو مندهش من هذه الزيارة؛ إذ إن رئيس اللجنة لا يزور أحداً مثله على سريره؛ فهو يستدعي ويأمر بالتعذيب ويصرخ و يصدر الأوامر.

بعد أن ابتسم المسؤول ابتسامة صفراء، ونظر إلى عادل نظرة طويلـة بعينيـه الجاحظتين، طلب منه أن يشـارك بقصيدة شعريـة في

احتفال مهم بعد أسبوعين؛ إذ سيزور الجملونات رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وسيكون الاحتفال في الجملون الشرقي الأول الموازي للمخيم الصغير.

كان مسؤول لجنة الجملون يتحدث بطريقة وكأنّ عادلاً قد وافق على طلبه؛ إذ كان يتحدث بأدق تفاصيل الاحتفال، ويذكر أسماء المشاركين، وأهمية هذه الزيارة للأسرى، ووعد عادل بأنه يرفع عنه الحظر، في حين كان عادل يتأمل حديثه ويناقش الفكرة مع نفسه، فتذكر مقولة قاله عماد سركيس: (إن الصمود أمام أصعب القضايا لا يتطلب سوى دقيقة حزم، تقول فيها رأيك الحقيقي ثم ينتهي الموضوع إلى ما ينتهي إليه).

بعد مدة التفكير والتذكر التي لم تستغرق غير دقيقة، أخبر عادل رئيس لجنة الجملون بأنه غير مستعد للمشاركة في احتفال مثل هذا.

بعد أن أنهى عادل كلامه بدا رئيس لجنة الجملون متفهماً لحذر عادل، فاقترح عليه أن يشارك بقصيدة لا يمتدح فيها رئيس المجلس الأعلى، فهي مجرد مشاركة بقصيدة موضوعها عام، فرفض عادل مقترحه، وأخبره أنه قد اتخذ قراره بعدم المشاركة.

فقام رئيس اللجنة من سرير عادل غاضباً وهو يردد: (بعثية ما تصير الكم چاره).

في تلك اللحظة، كان عادل مستعداً لا للتعذيب فقط، بل للقتل، على أن لا يشارك في هذه الاحتفالية، وما إن وصل رئيس لجنة الجملون إلى غرفة اللجنة، حتى أصدر أمراً بتشديد العزل على عادل، وطلب من بعض الأعضاء أن يتصيدوا أي سلوك يقوم به عادل؛ لتفسيره تفسيراً سيئاً، وبناء على ذلك استدعت لجنة الجملون عادلاً مرات عدة لغرفة التعذيب، وعذبوه على أشياء لم يفعلها، وصار العزل التام أشد قسوة، وذلك حين نقلوه إلى سرير في وسط الجملون، تحت الشباك الوسطاني المقابل لغرفة التعذيب، المكان الذي يتمكن فيه أغلب الموالين من مراقبة عادل، فهم يسيطرون بنظرهم على سريره، وكانوا يراقبون سكناته وحركاته ونظراته.

حين يلاحظ عادل أن كثيراً من الموالين يراقبونه؛ يضطجع على سريره، يتغطى ببطانيته وهو مبتسم، إذ يشعر بالانتصار عندما يحرم المراقبين من متعة المراقبة،

كان يقضي ساعات تحت البطانية، يعيد ما يحفظه من شعر، ويصنف القصائد بحسب عصورها، وفي أحيان كثيرة، يراجـع ما قرأه

من روايات، وكتب، ويحاول تذكر بنياتها وألوان أغلفتها، وقد أطلق عادل على ما يفعله اسم (النظرية الغطائية)، مدعياً أن الإنسان قد تخلى عن بدائيته البريئة عندما اكتشف الغطاء؛ فبدأ يغطي كل شيء: ابتداءً بالجسد، وانتهاءً بالتفكير.

بعد مضي أسبوع على تخفي عادل تحت البطانية، قرر تلخيص كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد بدقة، فقد كان هذا الكتاب مركوناً بأجزائه العشرين في أحد زوايا المكتبة من دون أن يمسه أحد، فنزل عادل من سريره وهو يتوقع أن يمنعوه من استعارة الكتاب، ثم اقترب من الكتاب من دون أن ينظر إلى أحد، وسحب مجلداً يضم الجزءين: الأول والثاني، ومضى إلى سريره من دون أن يعترضه أحد.

تصفح عادل فهرس الجزء الأول ليقف على بنية الكتاب، فوجد موضوعاته متعددة يصعب الربط بينها، لكنه عندما أتم قراءة الجزء الأول، قرر عمل فهرسة خاصة أهملها المحقق.

في مدة أربعين يوماً أتم عادل قراءة الكتاب والفهرسة، وبلغ ما كتبه من فهارس قرابة مئة صفحة، كانت مختصراً للكتـــاب الذي رتب

فيه الشارح خطب المؤلف بطريقة تسمح له أن يكتب تاريخ العالم منذ نشوئه لحين نهايته مستنيراً بتلك الخطب، محمِّلاً إياها علوماً كثيرة يصعب على عادل الوقوف عليها عند قراءة الخطب من دون هذه التفاصيل، ثم إنه وجده كتاباً تاريخياً أكثر من كونه بلاغياً.

بعد أن أتم عادل تلخيص كتاب شرح نهج البلاغة، أعاد قراءة كتاب (قطر الندى وبل الصدى) في مدة شهر، مع الوقوف على بعض المواضع التي كان قد أهملها في قراءته الأولى لهذا الكتاب، ودوّن بعض الملاحظات في دفتر خاص حول أهم المشكلات النحوية، والخلافات بين النحويين البصريين والكوفيين وغيرهما.

بعد إعادة قراءة (قطر الندى)، فتش عادل في المكتبة عن كتاب آخر يسترعي انتباهه، فلم يجد، لكنه وقف على كتاب (الأسس المنطقية للاستقراء) لمحمد باقر الصدر، فحدثته نفسه عن قراءته، لكنه خشي أن يكون مثل كتاب (فلسفتنا)، بمعنى أن يكون مجموعة آراء لفلاسفة قام المؤلف بنقلها من جانب واحد، فتبسم عادل قليلاً وهو ينظر إلى الكتاب؛ وذلك حين حدثته نفسه بأنه لا يمتلك وقتاً كثيراً يضيعه في قراءة أي كتاب. إذ ابتسم لأنه شعر بعدم جدوى العزل، وأنه ينتصر، وليس لديه استعداد لتضييع الوقت.

عدل عادل جلسته على سريره، وبدأ يتفحص غلاف الكتاب وصفحاته القليلة، فقرر أن يتم قراءته اليوم. بعد أن أتم عادل القراءة في الليل، وجد أن المؤلف يحاول استثمار الفلسفة التجريبية لإثبات دقة الكون، ومن ثم إثبات وجود الله، وأن هذا الموضوع مكرر كثيراً عند الإسلاموين والخلقيين بشكل عام الذين يؤمنون بأن هناك دقة في تصميم الكون، تدعو إلى وجود هدف، ومنهم من يدعي أن الأرض لو ابتعدت متراً واحداً عن الشمس لما وُجدت الحياة عليها، متناسين أو جاهلين أن الشمس لا تقع في مركز دائرة بالنسبة لدوران الأرض حولها، وأن الأرض تبتعد عن الشمس في دورانها البيضوي أكثر من أربعين مليون كيلومتر كل سنة ولا يحدث أي ضرر للأرض، وعلى الرغم من ذلك وجد عادل متعة عقلية عند قراءته هذا الكتاب.

حين انتهى عادل من الكتاب، أعاده إلى المكتبة، وعاد إلى سريره، إذ حلّ موعد النوم الإجباري، فقد بدأ أحد الأسرى الموالين ينادي: (خاموش، خاموش)، فهو يدعو الأسرى إلى النوم باللغة الفارسية من دون أي مبرر لذلك سوى إغاضة غير الموالين.

فقد كان عادل يتقزّز من استعمال اللغة الفارسية على لسان الموالين، لاسيما عندما يؤذن أحدهم ويقول: (الله أچبر).

وضع عادل رأسه على الوسادة وهو لا يشعر بنعاس، تأخذه الذكريات التي تمنع تسلسلها قرقرة بطنه من شدة الجوع، فأغمض عينيه محاولاً النوم، لكنه سمع خربشة في سقف الجملون لم يتمكن من معرفة مصدرها؛ بسبب مظلة المصباح الكبير الذي يتوسط الجملون، إذ جعلتْ هذه المظلة سقف الجملون مظلماً، فأخرج عادل مرآته الصغيرة التي لا يزيد قطرها على انجين، ووجه ضوءها المنعكس نحو موضع الخربشة، فرأى عصفوراً صغيراً قد ضل عشّه.

حاول عادل أن يشق للعصفور طريقاً إلى العش؛ بتحريك ضوء المصباح المنعكس من المرأة إلى العش مرات عديدة، لكن العصفور لم يدرك ما يريده عادل؛ إذ ظل في مكانه من دون حركة، لكن بعد دقيقة، أو دقيقتين من هذه المحاولات، رأى عادل ضوءاً آخر منعكساً من مرآة أخرى يقف قرب ضوء مرآته، ففرح كثيراً بذلك الضوء؛ لأنه وجد مساعدة في إرشاد العصفور التائه إلى عشه، وبينما هو مبتسم بحذر، رأى ضوءاً ثالثاً ورابعاً ثم آخر وآخر، إلى أن رسمتِ الأضواء طريقاً بين العصفور وعشه، وفي النهاية تمكنت الأنوار من إرشاده، بعد ذلك بدأت الأنوار تختفي واحداً تلو الآخر.

في اليوم التالي، أخرج عادل مرآته بعدما صدر أمر النوم بدقائق، ووجهها نحو السقف، وانتظر قليلاً، وما هي إلا دقيقة، حتى

ظهرت الأنوار في السقف، وبدأت تتحرك عشوائياً، ويقترب أحدها من الآخر، لترسم دائرة، ثم تبتعد وتعود لتتجمع مرة أخرى. كان هناك ضوء شارد لا يقترب من الأنوار الأخرى التي تحاول التحلّق حوله، كان الضوء على هيئة نصف دائرة؛ لأن مرآة صاحبه مكسورة، وقد كان يبتعد ليقف في زاوية من زوايا السقف، كانت الأنوار تقترب منه بهدوء لتحاصره، وكان يدعي أنه محاصر، وما إن تقترب منه الأنوار التسعة حتى يهرب إلى الزاوية المقابلة.

في اليوم الثالث ظهرت الأنوار بعد بدء النوم الإجباري مباشرة، فوقف نصف الضوء الشارد على مبعدة من الحلقة التي رسمتها الأنوار.

مضى شهران أو أكثر والأنوار تمارس هذا النوع من التواصل من دون أن يعرف أحدها الآخر، فربما عرف أحدهم غيره، لكن عادلاً لم يعرف منهم أحداً، على الرغم من محاولاته، فقد حاول عادل جاهداً أن يعرف صاحب الضوء الشارد إلا أنه فشل، فهو بالتأكيد ممن ينامون في الطبقة الثالثة من الأسرة، وقد حاول جعله يأخذ أماكن عدة في السقف لكي يحدد مصدر الضوء، فتمكن من معرفة أنه في منتصف الجملون، فكان يدّعي أنه يتقلب في نومه ليرفع رأسه وينظر حوله، فلعله يرى المرآة في يديه، لكنه لم يتمكن من معرفته.

عندما كان عارف على سريره، وقفت على أنفه ذبابة، فحاول طردها بيده، لكنها كانت تعود في كل مرة، فهي تحط أمامه على فراشه المتسخ، ثم تعود لتحط على أنفه في أول فرصة لها. وحين طردها وحطت أمامه، فسحب قطعة خشبية من تحت الوسادة كان يستعملها كمسطرة، ثم ضرب الذبابة ضربة خاطفة فقتلها، فشعر بلذة الانتصار، وما هي إلا دقيقة حتى جاءت ذبابة ثانية، فقتلها بالطريقة نفسها.

وبينما كان عارف مبتسماً بفخر؛ لأنه قتل الذبابة الثالثة؛ انقضّ على فراشه عصفور من سقف الجملون، والتقط الذبابات الثلاثة بسرعة، ووقف العصفور قبالة عارف ينتظر الصيد الرابع، فما إن يضرب عارف ذبابة ، ينقضّ العصفور على مكان الضربة من دون أن يرى الذبابة.

بعد حين خطرت لعارف فكرة لعينة، إذ رسم ذبابة على غلاف دفتره، ووضعه جانبه، ثم بعد لحظة، ضرب بالمسطرة على غلاف الدفتر، فانقضّ العصفور على الذبابة التي رسمها عارف، فوجدها وهمية. حاول العصفور التقاطها مرات عدة، ولكن دون جدوى، عند ذلك نظر العصفور إلى عارف بعين واحدة، ثم طار إلى سقف الجملون.

عند ذلك تخيّل عارف أن العصفور كان يردد: (أنت لا تحتاج شيطاناً يوسوس لك، إنما تحتاج شيطاناً يهدئك) فشعر بالذنب، وحين حطت ذبابة على أنفه، تركها تتحرك كما تشاء، وأخذ يردد مقطعاً للشاعر الدادائي (كورت):

(إجلسي يا محبوبتي، تدفئي؛ فقد بدأ موسم البرد، إلعقي الفتائت على أنفي، إلعقي حتى تشبعي، فشكراً لك؛ لأنكِ تذكرينني بالصيف).

ذات تعداد صباحي، وبينما كان عادل يجلس في صف التعداد، جلس جنبه صديقه عارف فلكزه بكوعه فرد عادل اللكزة شاعراً بأنه حقق تواصلاً ما، عند ذلك كتب عادل على الأرض بحروف مقطعة:(e4) فأجابه عارف بعد برهة: (c5)، وعندما كتب عادل:(f-N 3)، فأخبره عارف أنه سيرد على نقلته الثانية في التعداد المسائي.

هكذا، وبكل بساطة، ابتدأ الصديقان مباراة شطرنج بينهما، إذ لعب عادل افتتاح بيدق الملك، ورد عليه عارف بالدفاع الصقلي، على أمل أن يرد على نقلته الثانية في التعداد المسائي إذا حانت لهما فرصة، وإلا فيتوجب على عادل الانتظار إلى اليوم التالي.

اكمل عادل الفطور الصباحي بسرعة، وأخرج ورقة، ورسم عليها مربعات متساوية كثيرة، حدد في وسطها مربعات رقعة شطرنج؛ لتمويه شكل الرقعة، ثم وضع بالقلم الرصاص رموز القطع في محلها، وجعل بيدق الملك في المربع (e4) وحصان الملك في المربع (f3)، ووضع لرسيله بيدق فيل الوزير في المربع(c5)، في حين كان عارف أكثر حذراً؛ إذ فكر بطريقة يرسم بها رقعة شطرنج متحسباً لأي طارئ، فملأ ورقة بيضاء بمربعات، وحدد في منتصفها 64 مربعاً، وكتب في المربعات الزائدة رموز تفعيلات الشعر، ثم وضع مختصرات قطع الشطرنج على الرقعة، ووضع النقلتين الملعوبتين بالقلم الرصاص.

استمرت مباراة الشطرنج بين الصديقين لعشرين يوماً تقريباً، لكنهما مازالا في النقلة السابعة عشرة، وعندما صارت الحرب على الرقعة على أشدها؛ إذ هناك تقاطعات وتضحيات، دفعهما ذلك إلى أن ينقلا نقلتين في اليوم، وربما ثلاثة، فصار عادل يمرّ من قرب سرير عارف مدعياً أنه ذاهب إلى الحمام، فيتبعه عارف، فيجلسان على مقاعد الوضوء، فيذكر عادل نقلته، وهنا صار لهما موعد آخر للتواصل، وهو في أوقات الصلوات الثلاثة.

في أحد الأيام، وبينما كان عارف يجلس على سريره يفكر في النقلة القادمة، بدأ باب الجملون بالارتجاج، فخيل له أن أحد الأسرى يحركه بانتظام، وما هي إلا لحظات حتى بدأت الأسرة بالارتجاج، عندها أدرك عادل أن هناك هزة أرضية تضرب معسكر الأسرى، وعلى الرغم من أن كثيراً من الأسرى خرجوا إلى ساحة الجملون الخارجية وهم يتوسلون بالدعوات، إلا أنّ عارفاً بقي على سريره إلى نهاية الهزة الأرضية التي استغرقت أكثر من ثلاث دقائق، لكنها لم تخلف خسائر في المعسكر، وبعد نهاية الهزة بدقائق، جاءه اثنان من الموالين، وأخذا الورقة من بين يدي عارف، واقتاداه إلى غرفة اللجنة.

دخل عارف غرفة اللجنة بحذر وهو يقلب نظره بين الحضور الغاضبين، في حين أعطى أحد الموالين دفتر عارف إلى رئيس اللجنة، فبدأ يتصفح الدفتر، فأثارت انتباهه تلك الورقة التي رسم عليها عارف رقعة الشطرنج، فسأل عارفاً عنها، فأجابه أنها درس في الأوزان الشعرية يحاول أن يتعلمه، لكن رئيس اللجنة لم يصدق ما قاله عارف، فالتفت إلى أحد الموالين مشيراً له برأسه، فقام الموالي من فوره وصفع عارفاً على خده، فمسك عارف يد الموالي بقوة، وحاول أن يرد الصفعة، وهو الأمر الذي جعل الموالين الحاضرين يهجمون على

عارف، ويضربونه على كل أجزاء جسمه وهو يشتمهم وينعتهم بالخونة، في حين كان رئيس اللجنة يقلب الدفتر وكأنه في جلسة ودية.

عندما حل وقت صلاة المغرب، ذهب عادل إلى الحمام، لكنه لم ير عارفاً في سريره، فتوقع أن يجده في الحمام، لكنه تفاجأ باثنين من الموالين وهما يحملان عارفاً في بطانية، وهو مغمى عليه، فعاد عادل إلى سريره؛ إذ عرف أنهما انكشفا، وما إن وصل إلى سريره، حتى ألقى نظرة مركزة على الرقعة، حفظ فيها أماكن القطع المتبقية، ثم مزقها، وما إن رموا عارفاً على سريره حتى أشار أحد الموالين إلى عادل بسبابته فتأكد أنهما انكشفا.

جلس عادل في غرفة التعذيب من دون أن يكلمه أحد من الحضور الذين بدا عليهم التعب، وهم يحاولون ترتيب ثيابهم، وبعد دقائق جاء أحد الموالين ومعه أغراض عادل، فبدؤوا بتفتيشها بدقة، لكنهم لم يحصلوا على شيء ذي أهمية بالنسبة لهم، حينها أخرج مسؤول اللجنة دفتر عارف، وفتحه على رقعة الشطرنج، وسأل عادلاً: (هذا شنو)؟ أخذ عادل الدفتر وركز في الصفحة، وإذا بها تشبه ما رسمه، فقد رسم عارف مربعات على كل الصفحة، وحدد مربعات رقعة الشطرنج بخط متعرج، وملأ المربعات الأخرى برموز تفعيلات ميزان الشعر، وكتب تحتها تفعيلات بحر الوافر، حينها أجاب عادل

مسؤول اللجنة بأن هذه الرموز هي رموز أوزان الشعر، ويبدو أن صاحب الدفتر يتعلم أوزان الشعر، فغضب رئيس اللجنة ونعت عادلاً بالكذاب، وأخبره بأنّ عارفاً قد اعترف بالحقيقة، ثم طلب من عادل أن يعترف لكي يخفف عنه العقوبة.

شعر عادل أنه يتعرض لاختبار معضلة السجين، فتأمل ضحالة تفكير مسؤول اللجنة، إذ كانت هذه المعضلة مثالاً لتعاون الأفراد فيما بينهم للوصول إلى الحلول الوسط التي تخدم المجتمعات، في حين يظنّ مسؤول الجملون أنها تستعمل فعلاً مع السجناء، بعد ذلك أصرّ على أقواله، فبدأ رئيس اللجنة بذم عارف ونعته بالوقح، مدعياً أنه كتب في دفتره موضوعاً تحت عنوان (أثر المجتمع الذكوري على نموّ المثلية الجنسية)، وأدرج في الموضوع أسماء جميع الموالين في الجملون، وجعلهم اثنين اثنين؛ لذلك قاموا بتأديبه على فعلته القذرة.

خرج عادل من غرفة اللجنة وهو يشعر بالذنب والحزن معاً؛ كونه كان سبباً في ما جرى؛ لأنه هو من اقترح لعبة الشطرنج التي أدت إلى قراءة موضوع عارف.

في التعداد المسائي، جلس عادل على الأرض مهموماً يسترق النظرات، لعله يرى عارفاً يخرج إلى التعداد، لكنه لم يره؛ إذ ما زال

على فراشه لا يستطيع النهوض، وبينما هو يترقب، جلس جنبه عبد النبي، فنقل لعادل رسالة شفوية من عارف، مفادها أنه ليس نادماً إلا على شيء واحد، وهو أن دراسته لعلم العروض لم تكتمل، وأنه سيكمل هذه المحاضرة في وقت لاحق.

بعد أن انتهى التعداد المسائي، جلس عادل في ساحة الجملون على مقربة من سرير عارف، ووضع عشاءه أمامه على قطعة قماش بيضاء صغيرة وعليها مغرفة مرق في صحن مجعد من الألمنيوم، وكسرة خبز صغيرة بحجم علبة سجائر، فتناول ملعقة من المرق وهو ينظر إلى عارف، فتبعه عارف بتناول ملعقة من المرق بصعوبة، إذ كان عارف يضع يده اليسرى على فكه ليساعده ذلك في أن يبتلع اللقمة، ثم يبتسم وهو ينظر إلى الموالي الذي يرافقه ليفقده لذة الانتصار.

عندما حلّ عام 1988 ، بدأت بوادر تُشعر الأسرى بالانفراج حول قرب نهاية الحرب العراقية الإيرانية؛ بسب اقتراب موعد انتهاء السنة التي منحتها الأمم المتحدة للطرفين، إذ كان قرار 598 الذي صدر في 20 تموز عام 1987 يقضي بأن يوقف الطرفان النار في مدة لا تتجاوز سنة، وإلا فسوف يتعرض الطرف الرافض إلى حرب أممية.

رأى عادل أن الموالين مشغولون بشيء آخر غير تعذيب الأسرى ومراقبتهم، فأتيحتْ له فرصة الحديث مع عارف وعبد النبي من دون أن يستدعوه إلى غرفة التعذيب. أخبرهما عبد النبي أنّ مجموعة من الأسرى في المخيم قد حفروا نفقاً في إحدى الخيام، وتمكنوا من الخروج في منتصف شهر نيسان، لكن الإيرانيين تمكنوا من الإمساك بهم قبل أن يخرجوا من محافظة سمنان. حزن عادل كثيراً عندما سمع خبر الإمساك بهم، فجلس على الأرض، وتمنى أن يكون معهم على الرغم من أنهم اقتيدوا الى طهران لمحاكمتهم.

في 23 حزيران من عام 1988 صرح نائب القائد العام لكل القوى الإيرانية أنه استحصل موافقة قائد الثورة على قبول قرار مجلس الأمن: (598)، وقد برر النائب قبول القيادات الإيرانية العليا بأنها تريد حفظ دماء المسلمين، والحفاظ على الثورة، وأن هناك نقاطاً إيجابية في القرار، وهي الانسحاب إلى الحدود الدولية، ومنع بيع السلاح لمن يرفض القرار، في حين كان رأي عارف هو أن إيران تمر بوقت عصيب، فهي محاصرة، ولا يأتيها الدعم إلا من سوريا وليبيا، في حين يحظىٰ العراق بدعم الدول الكبرى وأغلب الدول العربية، لاسيما دول الخليج العربي، ثم إن إسقاط السفن الأمريكية في الخليج العربي لطائرة إيرباص إيرانية عليها 295 راكباً كان رسالة لدخول أمريكا الحرب

علناً. وعلى الرغم من أن أغلب القيادات الإيرانية قبلت القرار بوصف هذا القبول فتوى من المرجع الأعلى الإيراني، إلا أن بعض الشخصيات المتشددة رفضت القرار، مطالبة بتغيير تسلسل بنوده، فطالبت بتشكيل محكمة دولية لتحديد المعتدي، ثم محاكمة الرئيس العراقي، لكن مطلبها هذا لم يصمد أمام الحملة الإعلامية الكبيرة التي شنها علماء الدين وأئمة الجمعة في إيران لصالح القرار، حتى أن تلك الحملة وصلت إلى معسكرات الأسر. وكان لمرونة الفقه الشيعي أثر في جعل المتشددين يستجيبون لفتوى المرجع الأعلى في قبول القرار، ولم يمض شهر على ذلك حتى وافقت إيران على قرار 598 رسمياً في 17 تموز 1988 على أن يُحدد وقت بدء الهدنة في الثامن من آب.

لقد انتهت الحرب، وكان الأمر حاسماً، ولم تكن هذه المرّة إشاعة، وقد فرح بهذا الخبر الجنود الإيرانيون مثل فرحة الأسرى بالضبط، وقد كان من ثمار الحملة الإعلامية الكبيرة التي قام بها رجال الدين وخطباء الجمع، أن يؤيدها الجيش الإيراني، فقد نصب الإيرانيون إذاعة خاصة في الجملونات، تبث أخبار سير تنفيذ القرار، وكان الموالون في الجملون هم الوحيدون الذين شعروا بنهايتهم في نهاية المطاف، فبدؤوا يستعدون لمعركة مع الاسرى الذين كسروا العزل التام.

كانت الفرحة لا تسع عادلاً بسبب قرب العودة إلى العراق، وكان سريره لا يخلو من أحد أصدقائه، وما إن حل وقت الغداء حتى اقترب عارف وعبد النبي من سرير عادل وهما يحملان غداءهما، واقترحا على عادل أن يأكلا معاً، فرحب بهما، وفرش منديله الأبيض، ووضع طاسته عليه، فقام عارف بوضع ما في طاسته من رز في طاسة عادل، وكذلك فعل عبد النبي، ثم بدؤوا يأكلون معاً من طاسة واحدة وهم يتحدثون عن العودة القريبة إلى العراق، وبينما هم كذلك لاحظ عارف أن بعض الموالين يخلعون بعض الأنابيب التي تربط الأسرة الوسطانية بالأسرة العليا، فتوقع أن الموالين يحضّرون لمعركة، وأنهم سوف يجعلون من هذه الأنابيب أسلحة لهم في المعركة المرتقبة مع الأسرى المشاكسين. وعلى الرغم من أن الموالين يحاولون إدعاء القوة، لكن عارفاً كان يقرأ الذل في عيونهم، فكان عارف يشرب الماء ويقول بصوت عال: (شنو هذا سم)؟ في إشارة إلى مقولة القائد الإيراني في أنه تجرع كأس السم بموافقته على وقف إطلاق النار، ولم يكن الموالون يردّون عليه، إذ لاحظوا أن أعدادهم بدأت تتناقص، إذ إن كثيراً من الأسرى الموالين قد حيّدوا أنفسهم بعد وقف إطلاق النار، ولاسيما بعد سماعهم أخباراً عن أن مئات الصواريخ العراقية قد قصفت طهران للمرة الأولى في الحرب، وأن الجيش العراقي مدعوماً

بـ (مجاهدي خلق) قد دخل كثيراً من المدن الإيرانية مجَدداً؛ لذلك اضطرت إيران إلى الرضوخ إلى قرار مجلس الأمن 598.

في صبيحة الثامن من آب، وقف عادل منتشياً قرب باب الجملون، وهو يستمع إلى الراديو الموجه الذي ينقل أخبار إعلان تحديد موعد وقف إطلاق النار، وأن قوات حفظ السلام التابعة لبعثة يونيموغ قد تولّت الميدان، واستقرت على الحدود بين العراق وإيران، وأن وقف اطلاق النار الرسمي سيكون في العشرين من آب، وكان نائب رئيس لجنة الجملون يقف قرب عادل وهو يسخر من الأخبار ويردد: (أضغاث أحلام)، في حين كان عادل يحثّ عارفاً على أن يشاهد الفرح في وجوه الجنود الإيرانيين الذين يقفون عند بوابة الجملون وهم يشيرون بالتحية إلى الأسرى، لكن عارفاً لم يستجب لطلب عادل؛ إذ توجه للموالي الذي يسخر من الأخبار قائلاً: (إذا كنت عراقياً فيجب عليك أن تفرح؛ لأنك ستعود إلى بلدك، وإذا كنت إيرانياً فيتوجب عليك أن تنصاع إلى قرار الحكومة الإيرانية، وإذا كنت متديناً فيجب أن تتجرع كأس السم وتقبل القرار، أما إذا رفضت أن تكون أحد هؤلاء الثلاثة فإنت على الأحوط حيوان).

بعد أن أكمل عارف خطبته، نظر إليه الموالي نظرة غاضبة ورحل، ثم عاد بعد دقيقة ليخبر عارفاً أن أرشد الجملون يريده في

الغرفة، وقبل أن يرد عارف ضحك عادل بصوت عال وهو يردد: (يا غرفة؟ ولك انت ما تدري زمن الغرفة انتهى)؟ وعندما اقترب الموالي من عادل وهو غاضب خلع عادل نعاله البائس، وبدأ يضربه على رأسه، ثم سحبه مترين أو ثلاثة نحو البوابة الرئيسة للسور الشائك، فتجمهر مجموعة من الموالين على عادل، في حين كان عارف في وسط مجموعة أخرى يدافع بيديه، لكن الموالين لم يقتربوا منه، إذ اكتفوا بالتجمهر، أما عادل، فقد لجأ إلى بوابة المعسكر الرئيسة، ووقف بين الجنود الإيرانين طالباً الحماية من الموالين الذين اقتربوا منه كثيراً وهم يحملون الأنابيب الحديدية، ولما رأى الجنود أنّ عادلاً أعزل، سحبوه إلى غرفة الحراسة، ثم بعد ذلك أخذوه إلى ضابط المعسكر بناءً على طلبه.

حين وقف عادل أمام آمر المعسكر، طلب منه الضابط أن يجلس على كرسي قبالته، فجلس عادل صامتاً، في حين كان الضابط ينتظر شيئا ما؛ إذ كان يطلب من أحد الجنود أن يأتيه به.

بعد قليل حضر مسؤول لجنة الجملون، ومعه نائبه الذي تعرض للضرب من قبل عادل، وحين طلب الضابط من عادل أنْ يروي له المشكلة، بدأ نائب مسؤول لجنة الجملون بالترجمة، فرفض عادل أن يكون الخصم مترجماً، فأخرجه الضابط من الغرفة، ثم سأل

عادلاً فيما إذا كان يوافق على أن يكون رئيس لجنة الجملون مترجماً، فأجابه بالموافقة، وأنه يثق بهذا الرجل على الرغم من قسوته.

كان الضابط مُطرقاً وهو يستمع لتفاصيل المشكلة من عادل، ولاسيما عندما أخبر الضابط أن الاسرى من حقهم أن يفرحوا بنهاية الحرب التي استمرت لثماني سنوات، وهنا فاجأ عادل الضابط بسؤال عما إذا كان فرحاً بنهاية الحرب أم لا، فأشار الضابط برأسه بالإيجاب بعد برهة من الصمت.

لم يقم الضابط بأي إجراء لحل المشكلة، ولم يأمر بأية عقوبة بحق عادل، ولا على نائب رئيس الجملون، بالإضافة إلى أنّ الضابط لم يستمع له، وقد تفاجأ عادل عندما سأله رئيس لجنة الجملون عما إذا كان يوافق على أن يُنقل إلى جملون آخر أم لا، وقبل أن يجيب عادل، قاطعه الضابط بفكرة، وهي أن يُخيّر عادلاً بين النقل إلى جملون آخر أو يسجنه لمدة وجيزة للحفاظ عليه من أية ردة فعل من الموالين.

فكر عادل قليلاً، ثم وافق على أن يسجن لمدة وجيزة في الزنزانة الانفرادية، وقد شعر عادل بأن الضابط يعرف ما سيحدث لعادل فيما إذا نُقل إلى جملون آخر؛ إذ ما زال الموالون مسيطرين على الجملونات الأربعة وبينهم اتصالات.

طلب الضابط من رئيس لجنة الجملون أن يغادر الغرفة، ثم نادى على أحد أفراد حمايته، وأمره أن يأخذ عادلاً إلى الزنزانة، شارحاً له ظروف القضية، وأن عادل سيُحفظ في الزنزانة من دون أن يعامل معاملة السجين، وقبل أن يخرج عادل، ربت الضابط على كتفه وهو مبتسم، وهمس في أذنه بلغة عربية ركيكة: (هناك بعض الجمال في مقاومتكم، لكننا لا نقبله)، في حين كان عادل يضع يده على صدره تعبيراً عن الشكر وهو يقول: (المقاومة ليست عقيدة، إنها مجرد عمل).

ألقيَ عادل في الزنزانة السابعة عشرة، وهي زنزانة تقع في طرف صفّي الزنزانات العشرين، قرب مدخل الحمام، وتعد من الزنزانات المريحة قياساً بالزنزانات التي تقع قريبة من غرفة الحراسة.

وجد عادل أن السجناء يعدّون خبر وقف إطلاق النار إشاعة، فكان يخرج إلى الحمام، ويقف في زاوية لم يره فيها الحارس؛ ليخبر السجناء أن الحرب قد انتهت، لكنهم لم يصدقوه على الرغم من أنه يؤكد لهم ذلك، كان يعطيهم الحق في عدم تصديقهم له، فالإشاعات التي تعرض لها الأسرى لأكثر من ست سنوات كفيلة بعدم تصديق الحقائق.

وبعد أن عجز عن إقناع السجناء بنهاية الحرب، جلس عادل على أرضية الزنزانة، ووجه إلى الباب، وفي يده قطعة صغيرة من الجبس الأبيض اقتلعها من حائط الحمام راغباً بكتابة شيء على باب الزنزانة.

حين عجز عن كتابة أفكاره التي بدأت تتداعى بقوة، اكتفى برسم مخطط النظرية النسبية الخاصة، ثم بدأ يحاور أنشتاين حول تمدد الزمن وانكماش الطول، وكتبَ قانون جمع السرعات على الحائط الجانبي، فتهيأ له أن أنشتاين يجلس معه في الزنزانة، فبحث عن شيء يمثله، فلم يجد سوى قطعة اسفنج صغيرة غير منتظمة الشكل، استعملها السجين السابق لتنظيف أرضية الزنزانة.

كانت قطعة الإسفنج في زاوية قريبة من الباب، وكأنها تنظر إلى الخربشات المرسومة على الباب بطرف عينها اليسرى وهي ساخرة، وكان عادل يحاول أن يثبتُ لها أن ما رسمه صحيح، وأن نسبة الانحراف في الضلع القائم للمثلث الثاني كانت دقيقة، لكن قطعة الإسفنج بدتْ غير مقتنعة بالرسمة، ولما اشتد الجدل بينهما، خطر لعادل أن ينظف أرضية الزنزانة.

لاحظ عادل في اليوم التالي أن الفتحات الصغيرة في أبواب الزنزانات كلها مفتوحة، فلم يعد الحراس يغلقون تلك الفتحات، ولاحظ أن هناك إمكانية للحديث بهمس بين السجناء، وأن الحارس لا يدقق كثيراً عندما تثار همسات هنا وهناك، وحين نظر من فتحة الباب نحو الزنزانة المقابلة وجد فيها أحد تلاميذه الذين كان يعلّمهم اللغة الإنكليزية، فوجده ما زال مشغولاً بالإنكليزية، فهو، بين حين وأخر، يسأله بهمس عن كلمة أو قاعدة، ويجيبه عادل بحذر؛ إذ كان يخشى من أن ارتفاع الصوت يدفع الحارس إلى إغلاق الفتحات، لكن تلميذه ألح عليه أن يتلفظ له بعض الكلمات، فاهتدى عادل إلى فكرة تساعد تلميذه على التعلم، وتساعد عادلاً على أن يغيظ الإسفنجة بأن يتحدث مع غيرها.

قام عادل بقطع حواف رغيف الخبز السميكة التي غالباً ما تكون أشبه بالعجينة، وصنع منها أحرف اللغة الإنكليزية، وتركها حتى تجف، ثم بدأ يرتب حروف الكلمة التي يسأله عنها تلميذه بهمس على يده اليسرى، ويقرّب يده من فتحة الزنزانة، وكانت هذه الطريقة في التعليم تستغرق ساعة أو ساعتين لتعليم كلمات قليلة.

تأمّل عادل قانون جمع السرعات الذي كتبه على حائط الزنزانة، فخطرت له فكرة، وهي أن النسبية الخاصة قائمة على سرعة

الضوء، وأنَّ أي تعديل على سرعة الضوء يهدّ النظرية، وفجأة انقلبت الإسفنجة باتجاهه، فقال لها بصوت مرتفع ممزوج بالسخرية : (مجرد فكرة، هاي شبيچ).

قام عادل من فوره لينظر من فتحة الباب، فلم ير صديقه، فاستدار نحو الحائط الجانبي القريب من الإسفنجة ليتفحص القانون، لكنه انشغل بالخربشات التي تركها السجناء السابقون، فأثارت انتباهه خربشة تبدو منتظمة؛ إذ رأى خطاً بدا له أنه مرسوم بعناية، ويريد أن يدلّ عادلاً على شيء ما، فتتبع عادل الخط بحرص، إلى أن وصل إلى فتحة، تركها مسمار مخلوع.

نظر عادل داخل الفتحة، فرأى شيئاً يبدو أسود، فأثار ذلك الشيء فضول عادل، ولأنه لم يتمكن من إخراج ذلك الشيء؛ فكر في الحصول على عود يُخرج به ذلك الشيء؛ لذلك ادعى أنه يريد الذهاب إلى الحمام؛ لكي يحصل على عود من المكنسة التي يتركها الإيرانيون قرب بوابة الحمام الرئيسة.

عاد عادل إلى الزنزانة وكأنه يخفي جهاز راديو في جيبه، فدخل الزنزانة بحذر، وأغلق فتحة الطعام، وتحسس العود جيداً لئلا ينكسر في الفتحة، وبدأ عملية إخراج ذلك الشيء من الفتحة بحرص

شديد حتى أخرج ذلك الشيء، فوجد أنه قطعة صغيرة من علبة كبريت مطوية على عود ثقاب، تأمل عادل ما في يده، وبدأ يبحث في الخربشات، فوجد سهم صغير قرب الفتحة التي تركها المسمار يشير إلى عبارة كُتبت بخط رديء: (جدار الحمام الثاني).

ادعى عادل أنه مصاب باسهال؛ ليخرج إلى الحمام مرة ثانية، وحين استحصل موافقة الجندي الإيراني المسؤول، أسرع إلى الحمام الثاني، فمد يده اليمنى متحسساً أعلى جدار الحمام الثاني، فوجد لفافة من القماش فيها نصف سيجارة. اندهش عادل من خطة السجين السابق وهو يشعر بأجنحة تنبت على فرحته الغامرة، جعلته يجلس في الحمام لتأمل ما يجري.

فكر عادل في أن يدخن نصف السيجارة التي تركها له سجين سابق لم يعرف من هو، لكنه شعر بأنه يجب أن يعمل بحذر ودقة؛ إذ إن فشله في إشعال عود الثقاب، يجعله في موقف ضعيف من جوانب عدة: أولهما: الجانب النفسي، إذ إنه سيشعر بخيبة أمل كبيرة وحزن شديد. وثانيهما: أنه سيتعرض لسخرية من جانب الإسفنجة التي ستتشمت به؛ فضلاً عن أنه سيخيّب ظن السجين الذي ترك له هذا الكنز.

ربّع على الأرض، ووضع نصف السيجارة في فمه، ووضع قطعة الكبريت على ركبته، وأشعل العود فتوقد، واشتعل، فقربه من نصف السيجارة بحرص وحذر شديدين، فشعر أن يده ترتجف لكنه مسك أعصابه إلى أن أوقد سيجارته، فسحب نفساً قضى على نصفها، وتلاه بنفس آخر قضى على ما تبقى، فشعر بدوار جعله يرتد إلى جدار الحمام الخلفي، وكأنه يدخن لأول مرة، فأغمض عينيه إلى أن بدأ يشعر بالصحو، فنهض بهدوء وعاد إلى الزنزانة، وجلس أمام الإسفنجة، ونظر إليها وهو فخور بما أنجزه.

شعر عادل أن الإسفنجة مبتسمة وهي تخبره أن الفخر ليس له، وإنما هو لمن وضع الخطة، ورتب الأدوات وهو لا يعلم من الذي سيفيد منها، عندها مسك عادل الإسفنجة من وسطها وقربها من فمه وهمس في أذنها: (إن لي فخر الاكتشاف يا ألبرت).

بعد خمسة أيام من إيداعه الزنزانة، خرج جميع السجناء، وبقي عادل وحيداً، فنقله الحراس إلى الزنزانة الأولى، فشعر بالخطر عندما تذكر معاناته القديمة في هذه الزنزانة القريبة من نقطة الحراسة، والتي يضعون فيها من يريدون تعذيبه أكثر، لكنه اكتشفت أن الحراس يريدون أن يُبقوه قريباً منهم؛ من أجل تسهيل مهمتهم في الطعام والشراب والحمام.

وفي اليوم التالي، أقفل الحراس البوابة الرئيسة لممر الزنزانات، وتركوا باب زنزانته مفتوحاً، ليذهب إلى الحمام متى يشاء، ويتجول في الممر.

رأى عادل الحراس وهم يحتفلون بنهاية الحرب والابتسامة على وجوههم، وكانوا يشاركونه فطورهم الصباحي، ولاسيما إذا كان الفطور (كوكو)، وهو طعام لذيد يعدّ من البيض المخفوق بنوع من الخضار الذي لا يعرف عادل اسمه، يعطي البيض نكهة طيبة، وهو من ألذ الأطعمة التي تناولها في إيران.

11

خرج عادل من الزنزانة في العشرين آب عام 1988، وهو يوم وقف إطلاق النار الرسمي، فأخذه أحد الحراس إلى الجملون الشرقي الثاني القريب من المخيم الصغير، وبعد أن وصل إلى الجملون، رحب به الأسرى واحتفلوا به، وعانقه عارف عند بوابة الجملون وهما يبكيان، في حين كان عبد النبي وعماد سركيس يحضنانهما معاً، وكثير من الأسرى يتجمهرون حولهم.

روى عارف لعادل ما حدث في مدة غيابه بالتفصيل الممل، وإذاما نسي شيئاً ذكّره عبد النبي، وعماد سركيس، فعرف عادل أن مشادّات كثيرة حدثت بين أغلب الأسرى والموالين، وقد أدّتْ تلك المشادّات إلى شجارات استمرت إلى أن قام الإيرانيون بنقل الموالين من سمنان إلى مكان أخر، وقاموا بإعادة توزيع الأسرى المتبقين على الجملونات، فكان في الجملون الشرقي الثاني مجموعة كبيرة من المخيم الكبير، ومجموعة من المخيم الصغير، وبعض الموالين الذين تخلوا عن موالاتهم لإيران بعد نهاية الحرب، وكان الجميع ينتظر العودة إلى العراق في الأيام القادمة.

توالت الأخبار من الجنود والمترجمين العربستانيين حول اقتراب البدء بالمفاوضات بين طارق عزيز، وزير خارجية العراق، وعلي أكبر ولايتي وزير خارجية إيران، لكن البَلدين اختلفا في طريقة التفاوض، إذ أصرّت إيران على أن يكون اللقاء غير مباشر، أي عبر وسيط أممي، في حين أصرّ العراق على المفاوضات المباشرة، وقد استمرّ هذا الخلاف لمدة ليست بالقليلة، وحين بدأت المفاوضات غير المباشرة، استجابة لطلب إيران، بدأت مشكلات حول تنفيذ بنود قرار مجلس الأمن 598، إذ كان البند الأول هو وقف إطلاق النار، وقد نُفذ بالفعل، والبند الثاني هو الانسحاب إلى الحدود الدولية قبل الحرب، وكان بند تبادل الأسرى هو الثالث.

كان الأسرى يسمعون عن تلكؤ في تنفيذ البند الثاني، فكل من العراق وإيران يدعي خريطة حدود مختلفة، وإن هناك خلافاً حول طريقة التبادل إذا ما حدثت، وهو أن المفاوض العراقي يقترح التبادل الفردي، أي أسير بأسير، لكن إيران تطالب بتبادل كلي، أي كل مالديها من أسرى مقابل كل ما لدى العراق من أسرى، ومطلب العراق هذا، يوحي بأن لديه كثيراً من الأسرى الإيرانيين.

مضت سنة 1988 والأسرى في الجملون الشرقي الثاني يترقبون أخبار المفاوضات، وكانت أغلب الأخبار تثير اليأس في

أنفسهم، وقد أدى هذا اليأس إلى أن يعيشوا حياتهم في الجملون وكأن الحرب مازالت قائمة، كان عادل يتساءل عن جدوى بقاء الأسرى بعد نهاية الحرب، لماذا لا يقتدي البلدان بملكة بريطانيا عندما أمرت بإطلاق سراح الأسرى الأرجنتينين في حرب الفوكلاند؟ فعلى الرغم من أن تلك الحرب بدأت في نيسان عام 1982 وهو الشهر الذي أسر فيه عادل، إلا أنها استمرت لأربعة وسبعين يوما فقط، لكن الأسرى لم يمكثوا في الأسر سوى أسبوعين، إذ طلبت الملكة من القوات الملكية أن تطلق سراحهم؛ لأنهم لا ذنب لهم في تلك الحرب، لكن أهم ما كان يريح عادل هو أن الجملون بلا موالين، إذ تخلى الإيرانيون تماماً عن فكرة قيادة الجملون من قبل الموالين، وعلى الرغم من ذلك، كان أغلب الأسرى يقيمون صلاة جماعة خارج الجملون، وكان كثير منهم يمارس الألعاب المحببة لهم وهي الشطرنج والورق، وبدأ الرسامون يرسمون صوراً للأسرى مقابل عدد قليل من السجائر، والرياضيون يمارسون لعبة كرة القدم، إذ تشكلت فرق كرة قدم كانت كافية لأن يكون لدى الأسرى دوري، وهم يلعبون بكرات يصنعها عبد النبي لهم، فبعد أن تمعن في كرة قديمة ممزقة، حصل عليها أحد اللاعبين من جندي إيراني، صنع عبد النبي أشكالاً سداسية وخماسية دقيقة الأبعاد من جلد حذاء عسكري إيراني قديم، وقام بربطها ببعض بخيط استخلصه من جوراب مطاط، وقد تمكن من أن يتمها على الرغم من

صعوبة خياطة القطعة الخماسية الأخيرة، لكنه تغلب على تلك المشكلة بصناعة إبرة طويلة مقوسه، وبعد أن أتم صناعة الكرة، أهداها إلى فريق يشجعه. وعلى الرغم من ثقل الكرة الذي يزيد على كيلو غرام، إلا أن الأسرى كانوا يستمتعون عند اللعب، حذرين من أن تطيح بأحدهم عندما تُركل بقوة.

على الرغم من رداءة الطعام فإنه كان قليلاً جداً؛ إذ كثيراً ما يدعي الإيرانيون أن باخرة الرز قد تأخرت، فيأتون بمرق يسمونه مرق بطاطا، يأتون به في قدر كبير جداً، يبلغ قطره متراً تقريباً، مملوء بماء وردي اللون، فيه حبة بطاطا واحدة وربما اثنتان. كان أغلب الأسرى يكتئبون عندما يقترب وقت الغداء، خشية أن يكون الغداء مرق بطاطا، وكان عارف يخمّن أن الغداء مرق عندما يسمع صوت سقوط القدر الكبير على الأرض، وذلك عندما ينزله الجنود الإيرانيون من السيارة، حتى أنه أنشأ مقولات حول ذلك من مثل: (إذ رنت القدور فاعلم أن يومك كئيب).

كانت السيارة التي تحمل الغداء تأتي في منتصف النهار، وفي هذا الوقت يكون باب الجملون مغلقاً، فتقف السيارة في الساحة الخارجية، ويبدأ الجنود الإيرانيون بإنزال القزانات، فيبدأ عارف بالتخمين عندما يسمع صوت القزان وهو يرتطم بالأرض، لكنه لم يكن

يستطيع معرفة نوع المرق، فهناك نوع من المرق أفضل من نوع آخر، والخشية كل الخشية أن يكون المرق ما يسميه الإيرانيون بطاطا.

ذات يوم تسلق عبد النبي إلى النافذة العلوية للجملون، بمساعدة مجموعة من الأسرى؛ ليشاهد نوع المرق بعد أن أكد له عارف أن الغداء مرق، كان كثير من الأسرى في الأسفل ينظرون إلى عبد النبي الذي استقرّ في النافذة العلوية وهم متلفهون لمعرفة غداءهم، وكان عبد النبي يشير لهم، وهو في القمة، بأن الجنود أوشكوا على فتح القزان، ثم مرت مدة من الصمت لدى عبد النبي، بعدها قام بحركة غريبة، فقد جازف لكي يخلع نعلية بصعوبة وهو في النافذة، ثم أخذ وضع الجلوس في الصلاة في وسط النافذة، فانتاب الأسرى شعور بأنه سيسجد سجدة شكر؛ لأن الغداء رز، لكن عبد النبي، وبعد أن استقر في جلسته، رفع نعليه وبدأ يضرب بهما رأسه من الجانبين بالتناوب، وهو يردد بحزن: (بتيتة ، بتيتة).

لم يكن الطعام هو النادر فقط؛ إذ كانت السجائر التي توزع على الأسرى هي أقل من السابق، فعلى الرغم من أن حصة الأسير هي ثلاث سجائر في اليوم، لكن الحصة الشهرية تأتي منقوصة، وإنّ كثيراً من السجائرة خالية من التبغ، وهو الأمر الذي يجعل عادلاً يضطر إلى القيام بحيل كثيرة؛ ليحافظ على حصته إلى نهاية الشهر؛ إذ

تعوّد عادل أن يصبر على التدخين لسببين، الأول أنه جديد على التدخين بالقياس إلى صديقيه، والثاني: أنه قضى كثيراً من مدة الأسر في الزنزانات الانفرادية التي يكون فيها التدخين ممنوعاً؛ لذلك كان يقسِّم حصة اليوم الواحد على ستة أنصاف سجائر بواسطة خيط دقيق لكنه قويّ، مربوط على عمود السرير، وهو يلفه حول السيجارة من الوسط، ثم يشده برفق، ليقسمها على نصفين، مع حرصه الشديد على أن تكون الفتحات الجانبية مغلقة؛ لكي لا يتناثر التبغ من جانبي القطع.

كان يدخّن نصف سيجارة بعد كل وجبة طعام، ونصف سيجارة في أوقات بين الوجبات، وبذلك يتمكن من أن ينهي الشهر وهو يدخن، ولا يخلو هذا القانون من اختراقات تحدث في كل شهر، تجعله يمضي يومين أو ثلاثة من دون سجائر.

كان عادل وعارف وعبد النبي وعماد يتناولون وجبات غذائهم معاً، وكانت سجائر أصدقاء عادل تنفد في النصف الأول من الشهر، ويبقون نصف شهر من دون سجائر، في وضع أطلق عليه عارف مصطلح (داوي)، وهو لفظ مقابل للجوعان والعطشان، والداوي هو ذلك الأسير الذي لم يدخن منذ أيام؛ لذلك يشعر بأنه منهار من الداخل، ورأسه مصدّع باستمرار؛ وهو الأمر الذي يجعله يغضب بسرعة في قضايا لا تستوجب الغضب.

ذات يوم، وبينما كان عادل يجلس على فراشه، جاءه عارف وعبد النبي يحملان حصتهما من السجائر ووضعاهما أمام عادل، وطلبا منه أن يكون مسؤولاً عن تقنين حصتهما؛ لكي تكفيهما إلى نهاية الشهر، فتبسم عادل ووافق بشرطين، وهما أن يكون عماد رابعهم، وأن يوافقا ويوافق عماد على طريقته في تحديد أوقات التدخين، فوافقا من دون أي تردد.

حين وافق عماد، بدأ عادل ينفذ خطته عليهم، فيعطي كلاً منهم نصف سيجارة بعد كل وجبة طعام، ونصف سيجارة أخرى في أوقات ما بين الوجبات، لكنهم غالباً ما يحاولون كسر هذا القانون الصارم، فغالباً ما يتوسلون في الأيام الأولى لتوزيع السجائر لكي يحصلوا على أكثر من حصتهم اليومية، لكنه يرفض بشدة، ويذكّرهم بأنهم اتفقوا على أن يتبنى توزيع حصة السجائر، ولا يأخذ أي منهم غير الحصة اليومية، وعلى الرغم من ذلك، لم يتوقفوا عن توسلاتهم، فكانوا يسلكون سبلاً عدة للحصول على نصف سيجارة إضافية، لاسيما عارف ثم عبد النبي، أما عماد سركيس فقد كان ملتزماً بالقانون، لكنه لا يمانع إذاما مُنح فرصة للتدخين.

في الساعة التاسعة ليلاً، ادعى عارف أنه تخاصم مع أسير، فجاء غاضباً وهو يشتم أحداً ما، ثم سانده عبد النبي، وبدأ بتهدئته،

وحين ظل عارف غاضباً، اقترح عبد النبي على عادل أن يعطيه نصف سيجارة ليهدأ، لكن عادلاً كشف حيلتهم فقال لعبد النبي بهمس: (سولفها للدّبّة). وهي عبارة عراقية تعني أن الحيلة لم ولن تنطلي على قائل هذه العبارة.

ذات يوم طلب عارف وعبد النبي من عادل أن يجتمعوا؛ ليتحدثوا في أمر ما، وما إن جلسوا على سرير عادل، حتى بدأ عارف بإنشاد قصيدة يمتدح فيها عادلاً، ويصفه بكرم الطائي، في حين كان عبد النبي وعماد يصفقان، ويؤيدان ما يقوله في قصيدته، وقد أنهى القصيدة بمقطع يأمل فيه الشاعر أن لا يقول عادل: (سولفها للدبة) فقال عادل بهمس أيضاً: (اروِ حكايتك لأنثى الدب) لكنه تراجع عن رأيه، فأعطى لعارف وعبد النبي نصف سيجارة يدخنانه معاً، ودخن نصفاً آخر هو وعماد سركيس.

كان عادل قاسياً في توزيع أنصاف السجائر، وهو يعرف ذلك، لكنه يدير حصة السجائر بحرص شديد لا يدركه أصدقاؤه إلا في الأيام العشرة الأخيرة من الشهر، عندما تنفد السجائر من أغلب الأسرى؛ فيبدؤون بالبحث عن أية عشبة يابسة يطحنونها ويضعونها في ورقة ويدخنونها.

في آذار 1989 أقام الجنود الإيرانيون حديقة صغيرة مربعة الشكل، في منتصف ساحة الجملون الخارجية، طول ضلعها عشرة أمتار تقريباً، ووضعوا حولها سوراً شائكاً، وطلبوا من الأسرى أن يسقوها يومياً، ولا يدخلوها، فوجد أغلب الأسرى أنها فكرة جيدة أن تكون لديهم حديقة زهور.

جلس عارف قرب أحد أسيجتها الأربعة يتأمل الورود البيض الكبيرة، وبين حين وآخر، يقطع بعض العشب الذي خرج عن السور الشائك وكأنه يشذبه، لكنه في الحقيقة يجمع العشب لكي يجففه، ليصنع منه تبغاً.

ذات يوم قرر عارف أن يقطف وردة بيضاء من تلك الورود التي تشبه البوق الكبير، فقطف وردة، وقطّع ورقها ليضعه في الشمس، فوجد في كعب البوق قطعة مدورة يابسة كأنها حبة ثمرة تين مجفف، لكنها بثلاثة فصوص، وفي كل فص منها حبوب صغيرة تشبه حبوب الدخن، كانت تلك الحبوب جافة؛ وهو الأمر الذي دعا عارف إلى أن يضعها في ورقة شفافة؛ ليصنع منها سيجارة، وحين أكمل سيجارته، دخنها بامتعاض، وما إن أخذ نفساً ثانياً، حتى شعر بدوار كاد يسقطه أرضاً، وكأنه تناول زجاجة خمر كاملة.

ركض عارف في ساحة الجملون الداخلية وكأنه يضرب بقدمه شيئاً يرأه على الأرض، شيئاً لم يره أحد غيره، فأثار سلوكه هذا صديقه عادلاً؛ فحاول إيقافه، لكن عارفاً ظل مواضباً على ضرب الأرض بقدمه اليمنى وهو يهرول، فمسكه عادل من يده، وحاول جره إلى سريريه، فأخبر عارف عادلاً بأنه سياتي معه بعد أن يتخلص من العجوز الصغيرة التي تهرب منه. كان يرى امرأة عجوزاً بطول ربع متر تحاول إخافته، وكان مصراً على دعسها، لا لأنها عجوز قصيرة، بل لأنها تسخر منه في كل مرة لا يتمكن فيها من دعسها، فهي تخرج له لسانها وتهرب إلى مسافة قصيرة؛ لتمنحه أملاً بالقضاء عليها.

بعد أن شعر عارف بالتعب، وقف ووجهه إلى جدار الجملون القريب من البوابة، آخذا وضع من يبول وهو واقف، وحين اقترب منه عادل، حذره عارف من تدفق البول، وعلى الرغم من أنه لم يكن يبول، إلا أنه كان مصراً على أنه يبول منذ ساعة، ولا تنتهي بولته أبداً، وأنه يتعرض لانهيار جذبي، ثم التفت إلى عادل وقال له بهمس: (بلتْ روحي)؛ إذ شعر عارف بأن جسده يذوب ويتحول إلى بولة، وشعر أنه سوف يتحول كله إلى بولة.

في اليوم التالي شاع خبر تدخين عارف لكعب الوردة البيضاء، فبدأ بعض الأسرى بتدخينها، وهو الأمر الذي جعل الجملون مضطرباً،

وكثيراً من الأسرى يسلكون سلوك عارف السابق، وهذا ما دعا الجنود الإيرانيين أن يتدخلوا، وحين عرفوا سبب سلوك الأسرى هذا، حضرت مجموعة من الجنود، واقتلعت كل أزهار الحديقة، ورفعوا السور، وساووا الأرض؛ إذ تبين لاحقاً أنهم زرعوا نبتة كوكائين.

بعد أن مضى الربع الأول من عام 1989 من دون تبادل الأسرى، شعر كثير من الأسرى باليأس من المفاوضات بين العراق وإيران، وأن العودة إلى العراق قد لا تأتي، فلجأ كثير من الأسرى إلى الدعاء، وصاروا يؤلفون أدعية جديدة لعلها تمنحهم الحرية وتعيدهم إلى بلدهم، وكان عادل وأصدقاؤه الثلاثة يسخرون من تلك الأدعية، ويقولون بعدم جدواها، وكان بعض الأسرى ينذر نذوراً طائلة فيما إذا عاد إلى العراق، وغالباً ما كان عارف يسخر من النذور، التي يعدها تشخيصاً لعلاقة الأرض بالسماء، في حين كان عبد النبي يرى أن النذر خرافة لابد منها.

جلس عادل على سريره، ليلعب الشطرنج مع عارف، فحاولا تذكر الدست الذي لم يكملاه منذ سنتين، وكان عبد النبي وعماد مبهورين من قوة ذاكرة عادل؛ إذ تمكن من تذكر أماكن القطع، وقد طلب من عارف أن ينقل نقلته، إلا أنه رفض، وطلب من عادل أن يكملا هذه المباراة في العراق، فوافقه عادل على مقترحه، وبدأ عارف

يروي لأصدقائه قصصاً قصيرة عن مواقف شطرنجية بين أبطال العالم، وعندما روى قصة بطولة العالم بين بوبي فيشر وبوريس سباسكي، وأثر الحرب الباردة على البطولة، تداعت لعادل قصة عن عالم فيزيائي أنشأ مجسماً للكون في بيته، وكان يدعي أنه يحاول إصلاح خللٍ في بنية الكون عن طريق إصلاح ذلك الخلل في المجسم، فكان ذلك البروفيسور يخرج من بيته كالمجنون، يبحث عن شيء تافه في الخارج، من مثل علبة معجون طماطم فارغة، أو مسمار صغير أو غيرهما، ويدعي أن خللا ما سيحدث في الكون إذا لم يجد ذلك الشيء التافه، فتفاعل عارف مع موضوع الحكاية وانشغل به؛ لذلك طلب من عادل أن يعيد رواية القصة خشية أن يكون قد فاته شيء منها، وبعد أن أتم عادل القصة، قفز عارف من مكانه وذهب إلى الحمام، ثم عاد بعد دقائق وفي يده صامولة صدئة، كان قد رآها في عتبة نافذة الحمام، فأراها لعادل، مدعياً أنها السبب الرئيس في تأخير تبادل الأسرى، ثم وضع كفّه الأيمن على صدره وقال: (أنا موجود، إذاً أنا أفكر).

قلّب عادل الصامولة بين أصابعه، واقترح على عارف أن يزيل عنها الصدأ؛ إذ اعتقد أنّ الصدأ هو السبب في بقائهم في الأسر وليس مكان الصامولة، ومن دون تردد أخرج عارف عبوة معجون أسنان، وبدأ يزيل الصدأ من على الصامولة، وبينما هما مشغولان في

تنظيف الصامولة، أخبرهما عماد أنه يعرف سبب تأخرهم في الأسر، فطلب منهما الذهاب معه إلى خارج الجملون، وحين وصلوا إلى نهاية حائط الجملون من جهة الشرق، أشار عماد إلى مسمار سميك مثبت في جدار الجملون، وطلب من صديقيه أن يخلعا ذلك المسمار؛ إذ بمجرد ما يخلعانه فسوف يعود كل الأسرى إلى العراق في بضعة أشهر، وبما أن طول المسمار يقترب من سبعة إنجات، فإن الأسرى سيعودون بعد سبعة أشهر، لكن عارفاً خالف عماداً في عدد الأشهر، فاقترح أن تكون أربعة أشهر فقط؛ لأن ما اخترق الحائط من المسمار هو أربعة إنجات فقط، ولما احتدم الجدال بين عارف وعماد، تدخل عادل، واقترح أن يكون ما تبقى لهم في الأسر هو خمسة أشهر ونصف، فوافق الصديقان على المقترح، وعادوا جميعهم إلى سرير عادل ليتشاركوا في تدخين نصف سيجارة فقط مكافئة لهم على هذا الإنجاز.

كانت روايات المعمم الذي يحاضر في الجملون في رمضان تشبه إلى حد بعيد أدعية الأسرى ومقترحات الأصدقاء الأربعة، إلا أن هناك خلافاً بينهم، فالأصدقاء يحاولون إصلاح خلل ما في الكون، في حين يطمح المعمم في كل مرة إلى أن يدمر الكون، وكأنه مخلوق لهذه المهمة، فمنذ أن كان يحاضر في المخيم، كان يتحدث عن اقتراب يوم القيامة، وفي كل مرة يدعي أن يوم القيامة قريب، ولكن في هذه السنة

أكد ان عام 1989 لم ينته، إلا والقيامة قد قامت، فذكر علامات تعوّد المعممون والدجالون ذكرها عند كل انتكاسة.

أدرك عادل أسباب تأكيد المعمم على إقامة يوم القيامة، فإيران قد خسرت الحرب وقائد إيران مات، والإسلام أصبح في خطر من وجهة نظر المعمم، فلا يوجد حل سوى أن يدمر العالم، فقد كانت علامات الساعة التي يخبر عنها المعمم ليست إلا علامات الفشل الذي يشعر به، وقد اضطر مرات عدة إلى ترقيع مقولاته القديمة، فعندما سأله عارف عن جدوى ترديد شعار يترجون فيه الله أن يحفظ قائد إيران، علماً أنه مات، ولم يأخذ الله بهذا الدعاء الذي يردده أغلب الإيرانيين يومياً خوفاً وطمعاً وقناعة؛ ادعى المعمم أن المقصود من الدعاء هو حفظ الفكر وليس الجسد، فضحك أغلب الأسرى الحاضرين على تخريجه لغرض الدعاء.

في شهر نيسان عام 1990 حضر المعمم بعد مرور سنة على نبوءته في العام السابق، ليعيد على الأسرى، في محاضرة رمضانية، أن القيامة ستقوم، ولكن في عام 1992 هذه المرة، وهنا انتفض عادل وقال له بصراحة (إنت چذاب، مَ تستحي من تكرار الچذب في كل مرة؟)، فرد عليه المعمم بعد برهة من الصمت: (إنت بعثي خبيث). حاول المعمم تغيير مسار الموضوع، عن طريق اتهامه لعادل بالانتماء

إلى حزب البعث، فأخبره عادل بأسلوب ساخر، أنه قد كذب مرة ثانية باتهامه له بأنه بعثي، فخرج المعمم من الجملون وهو غاضب.

عندما كان عادل يستمع إلى خرافات المعمم، ييقن بأن الله لم يمت، ولن يموت؛ لأن الخرافات التي يتلقاها الأطفال ستستمر مع آخر إنسان، فالمعممون يبثون في الأطفال فايروسات تنتقل من المعلمين إلى الأطفال، ولاسيما في المدارس الدينية، لكنه من جانب آخر، يوقن أن الإنسان سيخفف التراكم السلبي للخرافات، ذلك التراكم الذي يجعل الخرافة كبيرة في السن، فلا يوجد علاج جذري للشيخوخة، مادام هناك من يدعي أنه القارئ الأكبر الذي يحاول إجبار العصر على أن يسير على وفق ما يقرأ. كان عادل يستغرب من مقولة: الأطفال المسلمون، إذ كيف يصفون طفلاً بأنه متدين؟! واتخذ قراراً في نفسه أن يعمل على الوقوف ضد الخرافات في كتاباته، وأنه لن يكتب للكبار، وإنما سيكتب للأطفال قصصاً تنفي تلك الخرافات وتسخر منها؛ إذ كان عادل يرى أن الكتابة للكبار لا تغير الوعي الاجتماعي مثل الكتابة للأطفال.

بمجرد ما خرج المعمم من الجملون شعر عادل بالسلام، وتذكر ذلك المعمم عندما كان يأتي إلى المخيم عام 1983، أيام حكم الموالين، كان كثيراً ما يصرخ بصوت عال: (كل الشرايع زلگ)، فيرد عليه أحد الموالين بصوت أعلى: (من حيدر العبرة)، وبعد أن

ُطرِدَ الموالون في ذلك العام، جاء المعمم ليلقي محاضراته الدينية، فصاح بصوت عال: (كل الشرايع زلگ)، فرد عليه عارف بصوت أعلى من صوته: (من عفلق العبرة). فقال: (ويحكم أهل العراق يوماً معي ويوماً عليّ)، وخرج. كان هذا المعمم يحاضر في النهار، وفي الليل يذهب إلى الزنزانات الانفرادية ليعذب الأسرى، إذ كان معه سبعة من الموالين ملثمون يأتمرون بأمره عند تعذيب الأسرى.

في مطلع آب 1990 بث راديو الجملون أخباراً مفادها أن العراق احتل الكويت في ساعة واحدة، وأن أمير الكويت قد هرب إلى السعودية، وأن إيران تؤيد ما قام به العراق، ثم توالت الأخبار عن تقارب كبير في وجهات النظر العراقية الإيرانية أدت إلى تقديم بند تبادل الأسرى بين البلدين على بند الانسحاب إلى الحدود الدولية.

وما إن مضى أسبوع واحد حتى جاء ضابط التوجيه السياسي، وأعطى لكل أسير بطاقة صغيرة فيها ثلاثة خيارات، وطلب من الأسرى أن يؤشروا على أحد تلك الخيارات وهي: (أرغب بالعودة إلى العراق)، (أرغب بالبقاء في إيران)، (أرغب باللجوء إلى دولة أخرى)، وهناك مستطيل قرب الخيار الأخير لاسم الدولة، فيما إذا رغب أحد الأسرى باللجوء إلى دولة أخرى.

شعر عارف أن القضية قد انتهت فعلاً، وأن الإيرانيين جادّون هذه المرة، حتى أن ضابط التوجيه السياسي سأل الأسرى فيما إذا كانوا سيرحبون به إذاما زار كربلاء أم لا، وبعد أن عرف عارف قصده، أشار إليه من بعيد بكلتا يديه بأنه سيقسمه نصفين، لكن الضابط لم يتخذ بحق عارف أي إجراء، فقد بدأ يتكلم عن نسيان ما مضى، وأن الأسرى سيعودون لبلدهم، وتأسّف على بقاء الأسرى في إيران لسنتين بعد نهاية الحرب، وأن العلاقة قد تحسنت بين العراق وإيران، وكل شيء بخير.

عندما خرج الضابط من الجملون، قام عبد النبي بنثر مكعبات السكر على رؤوس الأسرى تعبيراً عن الفرحة، فتبعه عماد وأسرى كثيرون، وبدأ أغلب الأسرى يغنون: (منصورة يابغداد)، عندها تصالح كل المختلفين فيما بينهم، وبدت الأفواه مفتوحة وكأنها قد تجمدت على ابسامة عريضة، والعيون لا تطرف، وليس هناك أسير واحد يجلس في مكانه؛ إذ كان كل الأسرى يتعانقون، ويقفون أمام بعضهم لثوان، ثم يذهبون إلى مكان آخر.

حضر ضابط التوجيه السياسي عصراً، فأخذ البطاقات التي اختار فيها الأسرى بين العودة إلى العراق أو البقاء في إيران أو اللجوء إلى دولة أخرى، وبدأ يقلب البطاقات وهو مبتسم، إلى أن وصل إلى ورقة أربكته قليلاً، فنادى على عارف، وبدأ يحاوره بهمس، في حين

قال عارف بصوت مرتفع: (هاي النتيجة الحتمية لمن يعرف الإسلام في إيران). كان عارف قد اختار اللجوء إلى دولة أخرى، ووضع في المستطيل المخصص لاسم الدولة كلمة (إسرائيل) بخط واضح وكبير، وحين صرخ ضابط التوجيه السياسي بعارف: (إسرائيل؟ إسرائيل؟)؛ قال عارف : إنهم لا يطبخون الأطفال في لبن أمهاتهم، فاحتار الضابط فيما أراده عارف من عبارته؛ لذلك سكت، ووضع ورقة عارف بين الأوراق الأخرى، ولم يرد عليه.

في الحادي والعشرين من الشهر الثامن عام 1990، ظهرت قائمة بأسماء 100 أسير بوصفهم الوجبة الأولى من وجبات تبادل الأسرى من الجملون، وما إن وضع الإيرانيون الأسرى المئة في باصين، شاع بين الأسرى أن الإيرانيين اختاروا مجموعة من أسرى المخيم والجملونات، عددهم 300 أسير؛ ليخفوهم في مكان ما، وتأكّد الأسرى من صحة تلك الإشاعة في اليوم التالي، وذلك عندما نقل أحد الجنود خبراً لعبد النبي، بأنه كان مع الأسرى المنقولين إلى معسكر تحت الأرض.

في صبيحة اليوم الثالث والعشرين من آب، شاهد الأسرى باصات كبيرة كثيرة في الساحة الخارجية للمعسكر، وبعد أقل من نصف ساعة، طلب أحد الضباط الإيرانيين من الأسرى أن يتحركوا

نحو الباصات بالطابور، وأن يحمل كل منهم باج الصليب الأحمر الدولي بيده، ويريه إلى ضابط يقف قرب باب الباص، ومن لا يمتلك باجاً، فإنه سيبقى في الجملون، ولا يخرج إلى الباصات.

كاد عادل يتهاوى وهو يتحرك نحو الباص، فبعد أن أرى باج الصليب الأحمر للضابط، وضع رجله اليمنى على عتبة الباص وهو غير مصدق لما يحدث، فهل من المعقول أن هذا الباص سيقله إلى العراق بعد هذه السنين الطويلة؟ فتحرك نحو وسط الباص، وألقى جسده على كرسي، ثم أغمض عينيه وهو يسند ظهره إلى الخلف، ويمس بهدوء حافة الكرسي برأسه من الأعلى، وما هي إلا دقائق حتى تحركت الباصات بهدوء على الرغم من الضجة التي تثيرها بهجة الأسرى لتحقق حلمهم بعد مضي أكثر من ثماني سنوات.

على الرغم من طول الطريق من سمنان إلى مهران، إلا أنه بدا متبايناً من وجهة نظر عادل؛ إذ بدا الطريق أطول من المعتاد؛ بسبب رغبة عادل في الوصول السريع إلى الحدود العراقية، ومن جانب آخر، بدا الطريق مريحاً، قياساً برحلة عادل من عبادان إلى طهران عام 1982، عندما كان مكبلاً في القطار.

12

استغرق الطريق إلى مدينة مهران الإيرانية أكثر من عشر ساعات، وعندما وصلت الباصات إلى أطراف المدينة، ركن السائق الباص قرب جملون كبير خصصه الإيرانيون لتغيير الثياب.

وقف عادل ومجموعة من الأسرى عند بوابة الجملون، فطلب منهم جندي إيراني أن يخلعوا ثيابهم سوى القطعة الصغيرة التي تستر عوراتهم، ثم وقفوا في طابور وهم شبه عارين.

انسحب عادل إلى نهاية الطابور ليبحث عن أصدقائه، ثم تحرك باتجاه مجموعة الباصات التي تصل تباعاً، وبينما هو يفتش بنظره في وجوه الأسرى، وضع عارف يده على كتف عادل وقال: (عدولي، دورت عليك كل الباصات)، فعانقه عادل وسأله عن عبد النبي وعماد سركيس، فأجابه بأنهما يبحثان عنه في الباصات القادمة، وبعد دقيقتين لاح لعادل عبد النبي وعماد وهما يلوحان بأيديهما من بعيد، فركض عادل وعارف باتجاههما، فتعانقا ثم جلسا على التراب وهما غير مصدقين لما يحدث.

عاد عادل إلى الطابور يتبعه أصدقاؤه الثلاثة، وعندما وقف أمام الكشك الأول في داخل الجملون، استلم حقيبة رياضية متوسطة الحجم، فيها قرآن وعلبة بسكويت وكيس شكولاتا، فالتفت إلى عارف وهو يشير إليه بالحقيبة الصغير جداً التي تحتوي على القرآن، فقال عارف وهو مبتسم: (هذا زغيّر بسرعة يخلص). فضحك الأصدقاء ومَن كان حولهم من الأسرى من طرفة عارف.

تباعاً، مرّ عادل ومن معه بالأكشاك الأخرى؛ ليأخذ بنطلوناً وقميصاً وقبعة، وعندما وصل إلى بوابة الخروج مرّ بمحاسب أعطاه مبلغ 50 الف ريال إيراني، ثم خرج من البوابة المقابلة للجملون وهو بأبهى حلة في نظر الإيرانيين.

لم يكن المكان المخصص للمبيت كافياً لهذا العدد الكبير من الأسرى الذين حضروا من معسكرات كثيرة، فقد نام أغلب الأسرى في العراء، على أمل أن يدخلوا الأراضي العراقية في صبيحة اليوم التالي.

كان من شروط العودة أن يمتلك الأسير باج الصليب الأحمر الدولي؛ لذلك كان عادل يتحسس جيبه في كل لحظة لئلا يفقده، إلى أن أخذه النعاس، فاضطجع على التراب متوسداً حقيبته، وما إن أخذته غفوة حتى أيقظه صوت يردد اسمه: (عادل عادل...)، وحين صحا من

نومه، وجد رجلاً طاعن في السن يقف قربه، كان عادل يحترم هذا الأسير كثيراً، على الرغم من أنه لم يلتقه مباشرة، لكنه كان يسمع عنه أنه من مثقفي المخيم الكبير، حاول عادل أن يقف، لكن الرجل وضع يده على كتفه، وجلس جنبه القرفصاء، وهمس في أذنه: (أحتاجك).

أربكت هذه الكلمة عادلاً، وتساءل في نفسه: (ما الذي يمكن أن أفعله له في هذه الليلة المربكة، المفرحة والمحزنة)؛ إذ كان ينتابه الخوف والحذر واللهفة، وكانت كل المشاعر التي يمكن أن يشعر بها الإنسان تأتيه دفقة واحدة في كل لحظة. قام من فوره وسأله عما يحتاجه منه، فتمشيا قليلاً مبتعدين عن الأسرى النائمين على الأرض، وهناك، طلب الرجل من عادل أن يزوّر باجاً لأسير شاب اسمه (سلام خالد)، فسأله: (كيف استقل ذلك الأسير الباص وهو لا يمتلك باجاً)، فأجابه الرجل: (أن ذلك لا يهم الآن).

كان على عادل أن يعمل باجاً لأسير لا يتجاوز عمره 23 عاماً، أسر وهو طفل صغير ابن 14 عاماً مع ألوية المهمات الخاصة، وقد أخفاه الإيرانيون عن لجنة الصليب الأحمر؛ لأنهم يظنون أن المهمات الخاصة تحمل اسمها فعلاً، فهم لم يدركوا إلا لاحقاً أن هذه القوات تشبه إلى حد ما قوات البسيج لديهم، فهم شباب دون الثامنة عشر، أجبروا على التطوع للقتال في الحرب العراقية الإيرانية.

وكان عادل يكتئب حين يفكر بأنه قضى أجمل أيام حياته في الأسر، لكنه عندما كتب تاريخ ولادة هذا الأسير، شعر بأنه ليس أسوأ حالاً منه؛ إذ هو الذي قضى أجمل أيام حياته في الأسر.

عندما كان عادل ينتظر أن يهيئوا له أدوات التزوير، سمع صوتاً يناديه: (انتظرني لأتبعك)، وحين التفت إلى جهة الصوت، وجد شاباً وسيماً يسير على مهل، وابتسامة بريئة على وجهه، فأردف قائلاً: (أنا أخبرتُ والدي ... أنني ذاهبٌ معك)، كان الشاب يحاول أن يقول شعراً، فردد مطلع قصيدة (الطفل والنهر) التي كانت موضوعاً في كتاب المطالعة في الصف الرابع الابتدائي، لكن هذا المقطع في تلك الظروف جعل عادلاً يتأكد من أن هؤلاء الشباب أمانة في أعناق الأسرى الكبار، وتتوجب عليهم حمايتهم من الضياع، وهو ما زاد حماسه في تزوير الباج لإعادته إلى العراق.

أحضر له الرجل قلماً أحمر، وورقة بيضاء مقواة، وقلم رصاص، وجلس عادل على الأرض، وقد أحاط به عارف وعبد النبي وعماد، ومعهم مجموعة من الأسرى؛ لكي يحموه من نظرات الأسرى الآخرين والإيرانيين، فوضع عادل الكارد الأبيض على القرآن، وبدأ يرسم ما موجود في باجه على تلك الورقة بدقة وحذر شديدين، وبعد

مضي ساعتين من العمل الدؤوب، أتم الباج، لكنه لم يعطه للرجل، إذ طلب أن يسلمه بيده للشاب.

حين عاد الشاب، أخبره عادل أن هذا الباج أفضل من الطبيعي، وعليه أن يسلمه للجنة الصليب الأحمر التي ترافقها مجموعة من المخابرات الإيرانية من دون أن يرتبك، وأن لا ينظر إلى عيونهم حتى إذا سألوه، وأن يدعي أنه متعجل بالدخول. كان عادل يخشى من ارتباك الشاب الذي ربما يجعله يعترف؛ لذلك طلب من الرجل طلباً صريحاً وحازماً، وهو أن يقف بالطابور قبل الشاب بكثير، لكي يضمن دخوله إلى العراق قبل أن تحدث كارثة ما، فوافق الرجل.

في صبيحة يوم 24 آب 1990 تحرك الأسرى بالطابور ليمروا من أمام لجنة الصليب الأحمر. كان أعضاء اللجنة السبعة يجلسون على كراسٍ وُضعت بانتظام على أرض ترابية، ويجلس معهم سبعة من المخابرات الإيرانية بوصفهم لجنة تسليم الأسرى، وأمامهم منضدة طويلة بيضاء تمتد على طول الكراسي الأربعة عشر، وكان العضو الأول من اللجنة، الذي يسأل الأسير عن باجه هو من الصليب الأحمر الدولي، ويتبعه إيراني.

وكان كل أسير يضع باج الصليب الأحمر على المنضدة، ثم يقوم أحد أعضاء اللجنة بتسجيل اسمه في سجل كبير، ثم يتحرك الأسير من أمام اللجنة إلى أن يصل إلى لجنة أخرى تحدد له باصاً إيرانياً يقله إلى المنطقة المحرمة بين إيران والعراق.

لم يستمر هذا النظام إلا لدقائق؛ إذ حدثت ضجة كبيرة عندما تقدم كثير من الأسرى ليقفوا في مقدمة الطابور، وقد كانوا بالمئات؛ وهو الأمر الذي جعل لجنة الصليب الأحمر توقف عملها لحين استقرار الوضع. وبعد مرور ربع ساعة، تمكن الجنود الإيرانيون من جعل الأسرى يعودون إلى الخلف، ثم طلبوا منهم أن ينتظموا على وفق الحروف الهجائية العربية.

تحرك الباص الذي ركب فيه 50 أسيراً من ضمنهم عارف باتجاه خط المنطقة المحرمة، وفي المقابل من جهة العراق 50 أسيراً إيرانياً كانوا قد نزلوا على خط المنطقة المحرمة من جهة العراق.

كانت المنطقة المحرمة بعرض 50 متراً أيضاً، وعلى الأسرى أن يدخلوها مشياً، وما إن يصلوا إلى منتصفها، يقابل طابورهم طابوراً من الأسرى الإيرانيين بعددهم بالضبط، وهم جميعاً يقفون لبرهة، ثم

يتحركون نحو بلديهم، كان كل أسير عراقي يصافح الأسير الإيراني العائد إلى بلده مصافحة سريعة بضرب كف بكف.

تمكن عارف من أن يسبق جميع من في الباص ليقف في أول الطابور، وبعد أن صافح خمسين أسيراً إيرانياً، وصل إلى خط المنطقة المحرمة من جهة العراق، متأملاً العلم العراقي الذي يخفق كقلبه الذي لم يطمئن لهذه الصبيحة؛ إذ كان يخشى أن يغير الإيرانيون رأيهم في اللحظات الأخير، مع علمه بأن أكثر من عشرين ألف أسير قد عادوا إلى العراق في الأيام السابقة.

ما إن وضع الخطوة الإولى في العراق حتى نام على وجهه مع أغلب من كانوا معه في الباص. كان الضبّاط والجنود العراقيون يحاولون إنهاض عارف الذي ظل متشبثاً بالأرض وهو يبكي، فامتزجت دموعه بالتراب الذي كان يعفر فيه وجهه، وعندما نهض، عانقه ضابط عراقي، وهنّأه على سلامة العودة، ثم أخذه من يده ليضعه في الباص الذي أقلّ الأسرى الإيرانيين قبل قليل.

أخذ عارف مكاناً في المقعد الأول بجانب الضابط وهو في حالة ذهول، إذ كان يشاهد حركات الضباط والجنود العراقيين الذين يتحدثون مع العائدين عن أشياء، لكنه لا يسمع أصواتهم.

بعد لحظات أُغلِقتْ النوافذ، وصعد إلى الباص نقيب في الجيش العراقي يهنئهم بسلامة الوصول، ويخبرهم عن وجهتم مع بعض التعليمات حول بقائهم يوماً في معسكر عراقي لتسجيل أسمائهم، كما أخبرهم أن لا صحة لإشاعة احتجازهم لشهرين قبل أن يذهبوا إلى أهاليهم.

بدأ الباص بالتحرك على مهل في العمق العراقي، كان الضباط والجنود العراقيون يحيّون الأسرى في أثناء شروع الباص بالتحرك، وقد شعر عارف بذهول عارم عندما شاهد كثيراً من المدنيين من نساء ورجال وأطفال يرفعون لوحات كُتب عليها أسماء أشخاص يسألون عنهم. كانت العوائل تقف بكثافة على جانبيّ الشارع، وكثير من النساء يضعن أجسادهن أمام الباص ليتوقف؛ لكي يسألن عن أبنائهن.

توقف الباص مرات عدة؛ لأن مجموعة كبيرة من الأطفال كانوا نائمين في عرض الشارع؛ ليجبروا السائق على إيقاف الباص، وكان الأسرى العائدون يجيبون أسئلة العوائل بعشوائية، فما إن يسمع أحدهم اسما يعرفه حتى يتطوع، ويخرج رأسه من نافذة الباص ليجيب السائل، وكان الضابط المسؤول عن الباص لا يسمح لهم بالنزول، ويطلب من الأهالي أن يسألوا من النوافذ، وأن يجيبهم الأسرى العائدون من النوافذ.

تفاجأ عارف عندما شاهد اسماً يعرفه مكتوباً على أحد تلك اللوحات. إنه اسم أسير أصيب بمرض وهو في الجملون بعد نهاية الحرب؛ إذ تعرض لحمّى؛ فارتفعت حرارته إلى أكثر من 40 درجة، ولم يُرسله الإيرانيون الى المستشفى لمدة خمسة عشر يوماً. ثم بعد ذلك نُقل الى مستشفى سمنان، وأحيل إلى طهران، ومات فيها، وهاهم أهله يسألون عن مصيره، فبكى عارف بحرقة راثياً عجزه عن إجابتهم؛ إذ كان يشعر باضطراب كبير في تلك اللحظات؛ فهو من جانب يرغب بإجابتهم، ومن جانب آخر يرغب باستمرار الأمل لديهم، وتخترق تلك الأفكار رغبة في أن يكون الباص سريعاً؛ لئلا يغير الإيرانيون رأيهم ويتبعوهم إلى العراق.

وقفت امرأة كبيرة في السن أمام الباص الذي يقل عارفاً، وهي ترفع لوحة كتب عليها اسم أسير، فنهض الشاب الذي يجلس خلف عارف فجأة وصاح: (هذا اسمي، هذا اسمي)، فتعاطف معه الضابط وجلعه يقبّل أمه على دكة الباص، لكن الأم جرّت ابنها إلى الشارع، وصاحت بأعلى صوتها: (وليدي)، فجاءت امرأة أخرى وحاولت أن تأخذ الأسير منها وهي تصرخ بأعلى صوتها: (يمه وليدي)، فتمسكت الأولى بالأسير، وهنا تدخل الضابط وسأل الأسير عن أمه، فأشار إلى الأولى من دون أن ينطق بكلمة، فعانقته أمه وهما يبكيان، ثم طلب

الضابط من الأم أن تترك ولدها الآن، ووعدها أنه سيعود إليها غداً بعد تسجيله بوصفه أسيراً عائداً، لكن الأم رفضت وهي تنظر إلى المرأة الثانية، ولما أصرّ الضابط، قالت بحرقة ولهفة: (وليدي ما أنطيه.. أجي وياكم، يمه، خلوني أصعد وياكم)، وهنا صمت الضابط قليلاً ثم أشار إليها لكي تركب في الباص مع ابنها.

13

في العاشرة ليلاً ، وصلت الباصات إلى معسكر منصورية الجبل، إذ تأخرتْ كثيراً في الطريق من الحدود المقابلة لمهران إلى منصورية الجبل.

وقف عارف في طابور طويل متأملا ساحة عرضات معسكر منصورية الجبل، محاولاً تركيز نظره على لوحات كبيرة مثبتة بإعمدة خشبية على أرض جرداء على مبعدة منه، كُتب عليها اسماء محافظات العراق التسع عشرة، وقطع تأمله صوت عال من عبد النبي الذي كان يقف خلفه: (عارف، عروفي)، فالتفت عارف إلى عبد النبي وعانقه عناقاً طويلاً وهما يبكيان، وبعد أن وزع الضباط العراقيون الأسرى على محافظاتهم، اتفق عارف وعبد النبي أن يلتقيا بعد أن تكتمل عملية توزيع الأسرى.

عندما حل وقت العشاء، تسلم الأسرى طعامهم في قصع عسكرية كبيرة، وكان كل ثمانية أسرى يأكلون على عجل في قصعة واحدة، وعندما أنهى عارف عشاءه، ذهب إلى موقع محافظة عادل ليسأل عنه، فوجد عبد النبي قد سبقه، وأخبره أنه لم ير عادلاً، وبينما هما يسألان الأسرى عن صديقهما، سمعا نداء مكبر الصوت يطلب من

الأسرى العائدين أن يقفوا في الطوابير بحسب محافظاتهم، فوقف عارف في صف طويل هادئ تحت لوحة كتب عليها بخط رديء: (بغداد).

شعر عارف بأن الوقت يمر وهو ينتظر الإجراء القادم، وفي تلك اللحظة جاء أحد الضباط العراقيين ليخبر الأسرى العائدين عن أنه سيسجل أسماءهم ثم يرسلهم إلى محافظاتهم بأسرع وقت، وبينما هو يتحدث سأله عارف:

ـ الحرب انتهت؟

= إي انتهت من زمان، صار سنتين.

ـ وشط العرب؟

= شبيه شط العرب؟

ـ صار للعراق لو لإيران؟

= هاي شبيك لا تفكر بهاي المواضيع، فكر باهلك الينتظروك.

فعلى الرغم من أن الضابط قال عبارته الأخيرة وهو ساخر، إلا أنّ عارفاً لم يشعر بسخرية السؤال، لكنه عرف عن طريق هذا الحوار السريع أن ما كان يسميه قضية مصيرية ناضل من أجلها، لم يعد كذلك، فالمسألة ليست سوى موجات من القضايا تمر بسرعة، وعليه أن يمر معها بسرعة أيضاً، فتجاوز هذا الحوار بسرعة وهو موقن أن مقولة إن العراق انتصر في الحرب كانت خديعة أبشع من خديعة إدعاء الإيرانيين بالنصر.

14

في مساء الثاني من شباط عام 2022، استيقظ عماد سركيس على ضجّة أحدثها حراس الزنزانات، فحاول أن ينظر من فتحة الطعام ليرى ما يحدث، لكن كثرة الحراس كانت تحجب بصره المتعب، فشعر بألم في قدميه جعله يبرك على الأرض مستعيناً بيديه.

وعندما حان موعد العشاء، أحضر له أحد الحراس صحناً صغيراً من الألمنيوم، فيه مغرفة مرق، وكسرة خبز، فتناولهما عماد من فتحة باب الزنزانة، وقبل أن يجلس، سأل الحارس باللغة الفارسية التي بـــدأ يتعلمها منذ ثلاثين عاماً، عن الضجة التي حدثت قبل قليل، فأجابه الحارس وهو مبتسم: (سجين زنزانة رقم 2 مات)، وما إن سمع عماد نبأ موت عادل، حتى انهارت قواه، فسقط طعامه من بين يديه، وبرك على الأرض.